
منى سلامة
جريمة
في رأس
السيد هود
رواية
كتابيستا
عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان: جريمة في رأس السيد هود

- تأليف: منى سلامة
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

- الطبعة الأولى: يناير 2026م
- رقم الإيداع: 2025/33920م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-632-2

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

منى سلامة

جريمة في رأس السيد هود

إهداء

إلى جميع الضحايا المحتملين.

تحذير

إلى جميع الجناة المحتملين.

"عندما يكون لديك خمس رصاصات،

لا تفتعل ست مشكلات!"

مكسيم غوركي

أنا الأداة التي تفعل ولا يُفعل بها. أتحيّن اللحظة المناسبة للانقضاض، مثل شبكة بين يدي صياد.

لكل جريمة أركان راسخة، جانٍ وضحية وأدلة دامغة. يرويها شاهد أو محقق أو مطلع على الأحداث. وهل سمعت من قبل عن قضية بطلها أداة الجريمة، تفند المشاهد، وتجمعها، وترويها؟

أنا الأداة التي ترتدي قناع البراءة، أتحيّن اللحظة المناسبة للانقضاض، مثل شبكة بين يدي صياد.

خمسة أمور مُخزية لن يخبرك بها السيد هود عن نفسه:

1) حبه للحواديت.

2) كوابيسه التي تلازمه كل ليلة.

3) خوفه المَرَضي من اللون الأصفر.

4) شعوره الداخلي أنه مشروع سفاح.

5) احتفاظه بسرّ رهيب لا يتذكره!

إذا ما صادفت السيد هود خارج محيط عمله أو منزله، ألفيته جالساَ حول طاولته المفضلة في مقهى المراكب الأصيل، وهو يشرع في القراءة بالكروم بوك، ستفطن على الفور لكونه رجلاً به مسحة بدائية، كأنه لا ينتمي إلى زمان أو مكان.

بخلاف ملابسه الداكنة، ورائحة عطره العتيقة، وشعره الأشعث، وكاميرته المتدلية من رقبته بشريط أحمر التي يربئها ويدللها كحيوان أليف، ثمة شيء في نظرته يجعلك تتلمس الحاجز النفسي الذي يضعه أمام الجميع.

منعزل في جزيرته الخاصة حتى وهو بين الزحام، يراقب بعينين مدققتين ما يدور حوله.

تلك التفاصيل التي تلتقطها عيناه، هي المادة الخام للحياة، يعيد تشكيلها في عقله كيفما يشاء، وفي جوف ليالي الوحدة ينسج القصص، ويتتبع الحيوات.

ما يلزمك معرفته عن السيد هود أنه مصور جنائي، وأحد أمهر أعضاء فريق البحث الجنائي التابع لمديرية أمن دمياط، أتم قبل أيام عامه التاسع والعشرين، تحديداً يوم إنهاء رحلة زواجه المريعة التي استمرت عاماً ونيفاً.

السيد هود رجل متوسط القامة والبنية، دقيق الملاحظة، ذو بديهة سريعة، بملامح حادة، وعينين ضيقتين تشعان نباهة وقدرة فائقة على التقاط التفاصيل.

وهوايته المفضلة الإيقاع بالأوغاد.

- أين أضع الحقائب يا باشا؟

- هنا في الصالة، ولا تنسَ إدخال حقيبة الحاسب المحمول. احذر، هذه الحقيبة السوداء تحوي كاميرا غالية الثمن.

- لا تقلق يا باشا.

- خذ هذا لأجلك.

- كلك ذوق يا باشا.

تفقد السيد هود محتويات العشة(1)1 بنظرة سريعة، بعدما أنقد الجيب بالجلباب الرمادي مائة جنيه، نظير حمله لحقيبة ملابسه، وأخرى لمعدات وثالثة لحاسوبه المحمول، ثم وقف يتطلع إلى السماء المظلمة من نافذة غرفة النوم الوحيدة في العشة.

لم يصدق السيد هود نفسه حين فاز بأسبوعين للإقامة في شقة حديثة الإنشاء، لشركة تسويق عقاري برأس البر، تلك المدينة الساحلية الصغيرة التي تبعد عن دمياط بمسافة 15 كيلومترًا، ويمكن قطعها بالسيارة في نحو 20 دقيقة فحسب.

لم يفز السيد هود بشيء طوال حياته، هذا إذا ما استثنينا علكة بالنعناع منحه إياها مدرس اللغة العربية في المرحلة الابتدائية، عندما تمكن من الإتيان بكلمة تبدأ بحرف الضاد، في الحقيقة كان قد سمع همس زميله بها فرفع يده يسبقه في قولها.

لو اطلع السيد هود على صحائف الغيب، لعرف أنه سيكون الشاهد الوحيد على جريمة غامضة جرت خارج نافذة غرفته، تحديدًا بعد ثلاث ساعات، وخمس وعشرين دقيقة، وتسع عشرة ثانية من دخوله العشة!

ولما قبل بتلك الدعوة المجانية المشؤومة.

كعلكة النعناع التي التصقت ببنطاله، وتلقى على إثرها صفعة موجعة من أمه حال عودته إلى المنزل.

بدأ كل شيء عندما قرر السيد هود -خنقا للملل- تنشيط حسابه على أحد تطبيقات مواقع التواصل الاجتماعي.

فإليكم القصة كما وقعت بحذافيرها، وكما هي مدونة في الأرشيف المركزي لوزارة الداخلية، ملف قضية رقم 3758 لسنة 2021م.

(1)

جريمة الظل

كانت عباءة الليل مسدلة على الأبنية عندما استرق السيد هود النظر من نافذة غرفة النوم، بعشة الطابق الأرضي التي فاز بالإقامة فيها لأسبوعين.

الأثاث البسيط، والأرض النظيفة، كانا مبعثًا على الراحة، إذ جل ما كان يخشاه أن يمنحه القائمون على المسابقة شقة قذرة تأبى نفسه الإقامة فيها.

يشرب للمرة الثالثة على التوالي -طلبًا للدفء- مشروب القرفة بالزنجبيل، يفكر في تفاصيل طلاقه الحديث، وشقته الصغيرة الكائنة بدمياط القديمة، التي احتلتها طليقته رغم عدم وجود طفل تتحجج بحضانته.

في الواقع، لم يرغب السيد هود يومًا في إنجاب الأطفال، لماذا يهدي هذا العالم البائس المزيد من الضحايا المحتملين؟

العالم وحش كبير لا يشبع، يلتهم الحيوات والأحلام، لا ينجو من أنيابه إلا قلة من السعداء، وهؤلاء غالبًا هم نزلاء مستشفى العباسية والخانكة للصحة النفسية، وما شابههما من جنات النعيم الأرضي، حيث يتشوش إدراك المرء وينفصل شعوريًا عن العالم.

لا ينجو من أنياب هذا العالم المفترس سوى ميت أو مجنون، ولم يكن السيد هود أحدهما، مع الأسف.

هذا ما جال بخاطره وهو يعب من المشروب الساخن رشفة كبيرة أحرقت طرف لسانه.

يدير رأسه مستطلعًا الأفق من نافذة غرفة النوم، مفرغًا ما بوسعه لطرد الأفكار السوداوية من رأسه، محاولاً الاستمتاع -أو التظاهر بالاستمتاع- بإجازته القصيرة ذات الإقامة المجانية.

وكانت تلك بالذات هي اللحظة الفاصلة في عُمر حكايته، اللحظة التي تتغير فيها حياة المرء إلى الأبد.

***

سراج القمر الوهاج والضوء المنبعث من غرفته، كانا كافيين لتمييز الجسدين المتلاحمين من خلف الستارة الرقيقة المتطايرة لنافذة العشة المقابلة، ظل لرجل مهيمن وآخر لامرأة خاضعة، للوهلة الأولى غلبه الحرج، إذ حسب أن نظراته الفضولية اقتحمت لحظة حميمية لزوجين قررا الانعزال عن العالم، في هذا الطقس الزمهريري داخل عشتهما الصغيرة.

إلا أن الحركة العنيفة لرأس المرأة وهي تميل إلى الأمام والخلف، ثم يمنة ويسرة، عملت كجرس إنذار أنبأه بأن شيئًا خطيرًا يدور خلف الستارة البيضاء المتطايرة.

وقبل أن يتمكن السيد هود من ترجمة ما يشاهده، أطبق ظل الرجل فوق عنق المرأة يسحقه بين قبضتيه، فلم تقو على إفلات نفسها.

لم يسمع السيد هود لها صوتًا، رغم مسافة الأمتار الخمسين التي تفصل بين العشتين، كان هزيم الرعد أقوى من صرختها، ولمعة البرق أكثر بريقًا من الحياة التي تتسرب من أطرافها.

تحاول ذات الشعر الطويل الثائر -عبثًا- نزع الأصابع العشر المطبقة حول عنقها، تبتعد عن النافذة في محاولة يائسة للنجاة، فيتبعها ظل الرجل الملتحم معها في صراع عنيف.

يغيب المشهد لثوان عن ناظري السيد هود، إلى أن يعود الجسدان ليحتلا منتصف الإطار من جديد.

وفي لحظة خاطفة، يستل ظل الرجل الضخم خنجرًا ويرفعه عاليًا، وقبل أن يتمكن السيد هود من اتخاذ ردة فعل مُحتمة، يطعن الرجل صدر المرأة ثلاث مرات متتابعة!

يتجمد جسد السيد هود في موضعه، ككل المواقف التي عجز فيها عن الإتيان بحركة، يشعر بالندبة العميقة القديمة التي تتوسط جبينه تنبض بعنف.

تلهث كأنها حدثت للتو.

انقشع الضباب ببطء أمام أعين شاب، أو شبه ضباب، أضواء كاشفة تحيط بمساحة المسابقة وأصبح معها في قلب الحدث.

هل من أحد هنا؟ أي أحد

لا تصطدم اصطداماته في مساراتها المنفرجة بآذان بشرية، صرخة طغت من هول إهدار أمواله المتراكمة في مدينة «رأس البر» في منتصف ليلة

كان طقسها يجمد الدماء في العروق

تساقط ظل المرأة ببطء من خلف الستارة، إلى أن اختفى من المشهد مشهد مروع عمل فيه صفير العواصف كموسيقى تصويرية مفزعة

وقف ظل الرجل مبهوتاً، وملقياً بالخنجر فوقها من غير اكتراث.

خافق قلب السيد هود غضباً وهلعاً، لطالما شهد الجرائم وهو يقوم بالتقاط الصور لمسارح الجرائم التي عمل عليها، تثير حنقه الدماء والأشلاء والضحايا والأغراض المتناثرة.

ودّ لو يملك ساعة تسبق ساعات العالم بعدة دقائق فحسب، تكفيه كي يمنع كل جريمة قبل وقوعها.

الآن ولأول مرة، يشهد جريمة جارية، جريمة لم يتمكن من منعها.

غاضباً من نفسه، ناقماً عليها، يركض السيد هود بعزم طاقته ليبحث عن المجرم، ويحاول إسعاف الضحية، يصطدم بالأرائك ويطيح بالمزهرية، يفتح باب الشرفة ويقفز فوق الدرج بقلب واجف.

يضغط 123 فوق شاشة هاتفه النقال ويصيح هادراً:

- ألو إسعاف، لدينا حالة طارئة، أرسل سيارة ومسعفاً فوراً إلى هذا العنوان، ثمة جريمة تحدث هنا.

***

وبينما هرول السيد هود صوب الجثة المقابلة، مرت بخاطره ومضات سريعة للأحداث القدرية التي أوصلته إلى هنا.

كل ما كان مطلوباً منه في مسابقة المقاطع القصيرة التي وصلت إليه عبر رسالة عبر بريده الإلكتروني، أن يضغط زر الإعجاب على الفيديو المنشور، ثم يترك تعليقاً واحداً.

لم يكن السيد هود بالرجل الساذج ليترك تعليقاً على مقطع قبل أن يشاهده، امتلأ قلبه غيظاً لمدة دقيقتين وثلاثين ثانية في أثناء اعتراف حماسي لسيدة في منتصف العقد الرابع، بأنها أطعمت زوجها دجاجاً فاسداً، كانت قد اشترته كصفقة رابحة من ثلاث دجاجات من بائعة تفترش الأرض بسوق الثلاثاء.

ورغم لونه المتغير ورائحته المنفرة، طهت السيدة الدجاج مع الكثير من التوابل ومكسبات الطعم الاصطناعية، ثم قدمته إلى زوجها الذي يرفض

طلاقها، إلا بالتنازل أولاً عن حقوقها كافة.

لم يأت اعترافها على سبيل الإقرار بالذنب أو طلباً للمغفرة، إنما تشجيعاً لتحذو النساء حذوها، توفيراً لبضعة جنيهات لقاء صفقات مماثلة، وانتقاماً من الرجال المبغضين لزوجاتهم.

لا يتذكر السيد هود أنه ضغط زر الإعجاب على هذا المقطع، إذ علت معدته وواتته رغبة عاتية في التقيؤ، عندما طاف بذهنه أن لربما قد أطعمته زوجته هو الآخر دجاجاً فاسداً، رغم أن كليهما لم ينطق بكلمة «طلاق» إلا يوم الواقعة.

- طلقني.

- أنت طالق.

هكذا دون دراما.

لا يذكر السيد هود أنه ضغط عامداً على زر الإعجاب، على مقطع السيدة التي تطعم زوجها دجاجاً فاسداً، إذ إنه في الواقع كان يبحث عن صورة لوجه غاضب أو فم باصق أو عين زاجرة، ليدرجها في تعليق على المقطع.

فانتهى به المطاف وقد كتب تعليقاً من عشر كلمات، يتضمن ثلاث كلمات فاحشة يُعاقب عليها القانون.

وبعد مضي ثلاثة أيام، أضاء صندوق بريد السيد هود معلناً استلام رسالة تهنئة على اختياره للفوز بالهدية المعلنة، أسبوعين في منتصف فبراير الجاري، للإقامة بشقة تابعة لشركة التسويق العقاري الراعية للمسابقة.

وعندما عاد إلى المقطع وجد ملايين المشاهدات، وعشرات الآلاف من التعليقات والتفاعلات والمشاركات، مبارزة بالكلمات بين الجنسين يرفع كل منهما فيها أسلحته في وجه الآخر، وهذا تحديداً ما أرادته الشركة من تسويق سلبي، حقق لها ما تصبو إليه من أهداف ناجحة.

ورغم أنه مدرك لتلك الألاعيب التسويقية البغيضة، فإنه وقع فيها كأي ساذج.

لم يمنحوه الهدية في منتصف الموسم الصيفي، بل تخيروا أسوأ فترة في العام، بيد أن هذا لم يمنعه من قبول الهدية المجانية، التي لم تكلفه سوى ضغطة زر خاطئة، وحرق أعصابه في أثناء مشاهدة مقطع مدته دقيقتان وثلاثون ثانية، يذيله بثلاثة ألفاظ منافية للآداب العامة.

لا يملك السيد هود مكاناً للإقامة بعدما طردته طليقته من شقة الزوجية، وأتت برجال أسرتها ليقفوا ككلاب حراسة أمام عتبتها.

ما كان للسيد هود القدرة على مجابهة قطيع غاضب يسيل لعابه من أجل مشاجرة.

ارتأى أن يريح أعصابه فترة الأسبوعين، ويمنح نفسه فسحة للتفكير في كيفية استعادة شقته، حتى وإن كان ذلك في مدينة «رأس البر»، في أثناء موسم شتوي ينخر العظام من الداخل.

***

ينطلق بأقصى سرعة يملكها صوب الجثة التي شهد للتو على جريمة مروعة تحدث فيها، فيما كانت يده الأخرى تعالج رقماً آخر على هاتفه النقال.

يسري صوت الجرس عبر مكبر الصوت ليخترق سكون الليل، يقفز فوق الدرجات السبع المؤدية إلى شرفة العشة وبابها في أربع قفزات فحسب.

يطرق الباب بقوة، بينما صوت الطرف الآخر يسري عبر هاتفه، لرجل ناعس أزعجه اقتحام الرنين لأحلامه وانتشاله من غفوته:

- ماذا هناك يا «هود»؟ هل تعرف كم الساعة الآن؟ إنها الثالثة صباحاً في حال لم تنظر إلى هاتفك، إن لم يكن اتصالك هذا يتضمن حالة طارئة كأن تكون على الأقل في طور الاحتضار فسوف...

- اسمعني جيداً، وقعت جريمة هنا.

لا تزال قبضة السيد هود تطرق الباب بالقوة ذاتها، حين سكت الرجل على الطرف الآخر سكتة قصيرة، ثم أردف محذراً بنبرة يتطاير منها أثر النعاس:

- ماذا تقصد بجريمة؟ إذا كنت تمزح يا «هود» فسوف...

- أسرع يا «درويش»، أنت ضابط مباحث، قم بواجبك.

- انتظر، لحظة لأفهم، لم تخبرني أين «هنا».

- قبلتُ بجائزة المسابقة التي أخبرتك عنها. أنا الآن عندك في رأس البر. شاليه تيوليب بشارع 63، يقع مركز الإسعاف في شارع 51 كما تعرف. اتصلتُ بالخط الساخن لكن أخشى أن يأتوا بعد فوات الأوان. تحدث أنت إليهم وأرسل سيارة إسعاف عاجلة، ثمة امرأة على وشك أن تفقد حياتها.

- انتظرني يا «هود»، لا تقم بأي تصرف أحمق، سأتي في الحال بصحبة قوة من القسم، انتظرني ولا تتهور.

أنهى السيد هود المكالمة في الوقت الذي انفتح فيه الباب، وقد تبدى من خلفه رجل ضخم التكوين، استطاعت نظراته الفاحصة بسهولة تأكيد أن له البنية نفسها التي يملكها الظل الذي رآه يطعن بخنجره المرأة من خلف الستارة.

- من أنت وماذا تريد يا هذا؟

نبراته غليظة كبنيته، كافية لإفزاع الطارق المقتحم لخلوته.

لم يوقف هذا السيد هود عن الاندفاع إلى الداخل، دافعًا بمرفقه صدر الرجل، الذي أطلق صيحة ألم ممزوجة بالغضب.

توجه مباشرة صوب غرفة النوم المغلقة، بعدما جالت عيناه بنظرات سريعة داخل العشة، وقد أدرك أنها تماثل في التصميم تلك التي يقيم فيها.

لا بُد أن النافذة التي شاهد خلالها الجريمة هي نافذة غرفة النوم بدورها.

كان عازمًا على إدارة مقبض الباب عندما عرقلت مسعاه يد غليظة حاسمة، أدارت جسده الذي لا يزن أكثر من ثمانين كيلوجرامًا، ثم سددت لوجهه لكمة قوية غاشمة، أسقطته على إثرها أرضًا.

تعامدت نظرات السيد هود الساخطة على الجاني الذي ارتكب قبل لحظات جريمته.

دومًا ما يتدخل بعد فوات الأوان، دومًا.

***

أمسك السيد هود بباب غرفة النوم يستند إليه، في محاولة يائسة لتعطال أنامله المقبض وتفتحه، جذبه الرجل من ساقيه وأبعده، وفوق وجهه سدد لكمات متتابعة.

نجحت كل هذه الضوضاء أخيرًا في جذب انتباه الخفير ذي الجلباب الرمادي، الذي هرول في اتجاه العشة، يضم معطفه البني الثقيل حول جسده اتقاءً للبرد، مرتديًا فوق رأسه قلنسوة من الفرو.

يحاول عبثًا إبعاد الثائر الضخم الذي أخذ يرغي ويزبد، مشيرًا بأصابع الاتهام صوب السيد هود ناعتًا إياه بالمنحرف الذي يحاول اقتحام غرفة نومِه.

رغم عدم اقتناع الخفير بالتهمة المنسوبة إلى رجل بدا له في أثناء تسلم مفتاح العشة شابًا متحفظًا، لا يكثر من الحديث أو اللعب، سأله معاتبًا:

- السيد هود، هذا اسمك، أليس كذلك؟ أتذكره جيدًا لأنه مركّب، تركيب غريب وتوليفة لا تُنسى. السيد هود، لماذا تزعج جارك الأستاذ «نسيم»؟ إنه الفائز رقم 2 في المسابقة، منحته شركة التسويق العقاري أسبوعين للإقامة في هذه العشة برفقة زوجته، لا تبدو لي منحرفًا بل رجلاً محترمًا. ألا تعرف أن اقتحام بيوت الآخرين يعد خرقًا للقانون؟

قاطعه السيد هود مشيرًا صوب غرفة النوم ذات الباب المغلق، وصاح بعنف لاهثًا:

- هذا الرجل قتل زوجته.

اتسعت عينا الخفير وتلجلجت نبرته، يكرر بنبرة خشنة مترددة:

- قتل زوجته؟ لا بُد أنك تمزح، هل هذا معقول؟

- رأيتُ كل شيء من نافذة غرفة النوم، تشاجر معها، خنقها، ثم طعنها بالخنجر.

نقل الخفير بصره بين السيد هود والأستاذ «نسيم» في حيرة وشك مستريب. أنكر الأستاذ «نسيم» التهمة جملة وتفصيلاً، وفي الوقت ذاته رفض رفضًا قاطعًا فتح باب الغرفة أمام نظرات الرجلين المدققة.

- إنها غرفة نوم زوجين وبها أغراض خاصة، هل جننت يا رجل لتطلب مني فتحها؟

أوشك على ضرب الخفير بدوره، لولا أن بدا له هزيلاً غير قادر على الصمود لثلاث ثوانٍ في مشاجرة، تراجع الخفير رافعًا كفيه في إشارة لتهدئته قائلاً:

- أدرك حساسية الطلب يا أستاذ «نسيم»، لكن السيد هود يدّعي أن شيئًا سيئًا وقع لزوجتك. إذا كانت بالداخل ألا يمكنك أن تطلب منها الخروج من الغرفة فقط لنطمئن أنها بخير؟

التقط الأستاذ «نسيم» مزهرية من فوق الطاولة، ألقى بزهورها البلاستيكية أرضًا، ثم تقدم نحوهما رافعًا إياها مهددًا:

- اخرج أنت وهو من العشة حالاً وإلا يمين بالله أكسر هذه فوق رأسيكما.

وقف الأستاذ «نسيم» أمام الغرفة مثل أسد يحمي عرينه، مانعًا إياهما من مجرد التفكير في الاقتراب، ولم يملك أي منهما القدرة البدنية للإطاحة بهذا النسيم الذي يزمجر مثلما تفعل العواصف العاتية.

- سأدخل رغمًا عن أنفك، لن أترك مجرمًا مثلك يفلت بفعلته.

هذا ما قاله السيد هود في فورة غضب، مصممًا على إنقاذ المرأة المستلقية على أرض الغرفة المغلق بابها، والسابحة في دمائها.

وقبل أن يندفع صوبه النسيم العاصف محاولاً الإطاحة به، دوى في الأرجاء صوت صافرة سيارة الشرطة مصحوبة بسارينة الإسعاف.

وقف السيد هود على باب الشاليه يُشير بحماس إلى أفراد القوة للتقدم. اندفع «درويش» صوب صديقه لما رأى كدمة أسفل عينه وأخرى عند صدغه، قائلاً:

- هل أنت بخير يا هود؟ من فعل هذا بك؟

صديقان منذ عُمر العاشرة، لديهما الكثير من القواسم المشتركة مثل حبهما للحوادث. التحق «درويش» بكلية الشرطة، ونمى السيد هود موهبته في التصوير ليصبح مصورًا جنائيًا.

- غرفة النوم يا «درويش»، قتلها في هذه الغرفة، زوجته، إنها بالداخل.

قال موضحًا بعبارات قصيرة لاهثة بينما يشير إلى الغرفة، التي يقف أمامها الأستاذ «نسيم»، كباب فولاذي عملاق. أفصح «درويش» بغلظة متعمدة:

- أنا النقيب «أحمد درويش» من مركز رأس البر، افتح الغرفة حالاً.

- حتى وإن كنت وزير الداخلية بجلالة قدره، على جثتي أن أفتح باب غرفة نومي دون أمر تفتيش رسمي.

- تنح جانباً وإلا ألقيت القبض عليك بتهمة عرقلة عمل الشرطة، افتحوا الباب.

أمر معاونيه ثم وجه إلى «نسيم» تحذيرات رادعة، إثر اعتراض هذا الأخير على اقتحام خصوصيته.

- كيف تجرؤون على دخول العشة وتصديق هذا المنحرف؟ إن اقتربتم من غرفة نومي فسوف...

في حركة سريعة أبعده اثنان من أمناء الشرطة، وقد أخليا الطريق ليدير ثالثهما المقبض فينفتح باب الغرفة أخيراً أمام عدد من العيون المترقبة.

من الوهلة الأولى، بدت الغرفة شديدة التنظيم كأنها لم تمس. تشبه الحالة التي وجد عليها السيد هود غرفته، ولأن العشتين مملوكتان للجهة نفسها، كان الأثاث كذلك متطابقاً.

اندفع السيد هود إلى وسط الغرفة، يدير رأسه في المكان ذاهلاً!

هناك أمام النافذة المفتوحة رأى ستارة بيضاء تتطاير بخفة، تماماً كما رآها تفعل عندما شهد الجريمة من نافذة عشته، تحتها سجادة بنية رخيصة كتلك التي في غرفته.

لكن لا شيء فوقها على الإطلاق، لا جثة ولا خنجر ولا قطرة دماء واحدة!

***

(2)

جريمة في الرأس

- هذا الرجل مجرم، حاول خنقها أولاً، وعندما فشل في ذلك رفع خنجره وطعنها، ثلاث مرات، كان هذا عدد الطعنات، أثق فيما رأيت يا «درويش»، لماذا لا تصدقني؟

يصيح السيد هود بنبرات واجفة، يحك بقوة ذقنه النابتة ويلمس شاربه الخفيف بأطراف أنامله.

يرمقه «درويش» ويطيل النظر، ثم ينهض ليحضر مكعبات ثلج من المجمد، يضعها داخل منشفة صغيرة، يعطيها للسيد هود كي يضعها فوق كدمات وجهه قبل أن تتدرج من اللون الأحمر إلى الأرجواني.

يمرر «درويش» نظرات سريعة على محتويات العشة، ثم تنتهي حيث يجلس صديقه ويقول بصبر لا يتميز به عادة:

- وكيف تمكن «نسيم» هذا من التخلص من الجثة خلال هذا الوقت القصير، الذي لا يتعدى دقيقتين، وهي المدة التي استغرقتها أنت منذ أن شاهدت ما يحدث وحتى اقتحامك للعشة كما رويت لي؟ رأيت الرجل بنفسك، إنه مثل الباب المصفح، ليس خفيف الحركة إلى هذه الدرجة ليتمكن من حمل جثة وإخفائها خلال هذا الوقت القصير، ثم أين أخفاها؟ فتشنا العشة وقلبناها رأساً على عقب أمام عينيك، لا وجدنا جثة ولا حتى خنجراً، ثم هناك مسألة الدماء، كيف استطاع مسح الدماء النازفة؟

ألقى السيد هود المنشفة المحشوة بالثلج بجواره، ثم مال إلى الأمام مؤكداً، وهو يطرق بسبابته فوق الطاولة الخشبية:

- لا أعرف كيف نجح في إخفاء آثار جريمته، لكنني أعرف ما رأيت، هذا الرجل قتل زوجته يا «درويش».

بالصبر المعروض والنبرة الهادئة نفسيهما، حاوره صديقه الأقرب:

- سأسلم بما تقوله يا «هود»، قتلها وأخفاها خلال دقيقتين ومسح الدم كذلك، وهو شيء لم نشهده من قبل ولم نسمع بمن عاصره، سأتخيل أنه نجح في ذلك عن طريق معجزة، أو سحر أسود يمارسه، إذن أخبرني بربك، كيف تحدثت زوجته إلينا عبر الهاتف عندما أجبرته على الاتصال بها؟

عملت كلمات «درويش» كحجر ألجم السيد هود فأسكته.

استعاد في ذاكرته قصيرة المدى ما حدث، بعدما رأى الجميع الغرفة الخالية، وأدركوا أن البلاغ كاذب، تعالت زمجرات الأستاذ «نسيم»، الذي يعمل موظفاً في شركة الاتصالات، هذا ما كان مدوناً في هويته الشخصية التي طلبها منه «درويش».

استجوبه السيد هود بحدة:

- أين هي؟ أين أخفيت الجثة؟

- أي جثة يا منحرف؟ زوجتي لم تأت معي الليلة، فضلت أن أسبقها بالحقائب لأتأكد أولاً من كون العشة تصلح للسكنى الآدمية، الحداية لا ترمي الكتاكيت كما يقولون.

تنحنح الخفير مؤكداً لـ «درويش»:

- ما يقوله الأستاذ «نسيم» صحيح يا باشا، سلمته مفتاح العشة قبل أربع ساعات تقريباً، ولم أر زوجته برفقته، وعندما سألته عنها لعلمي أنه يحق لكل فائز اختيار مرافق، ولعلمي أنه اختارها، وقتها أخبرني أنها لم تحضر بعد، وأنها ستلحق به في الصباح.

عندئذ صاح الأستاذ «نسيم» بغلظة متناهية:

- أريد التقدم ببلاغ رسمي ضد هذا التافه لاقتحامه العشة والتعدي على حرمات الآخرين.

بشق الأنفس تمكن «درويش» من تهدئته والاعتذار منه عن الانزعاج الذي حدث، ثم سحب السيد هود من مرفقه وأخرجه من العشة ضد إرادته.

والآن يقف السيد هود أمامه ويصر على رؤيته لجريمة لا أثر لها ولا دليل عليها.

- ربما المرأة التي قتلها هي عشيقته، هذا الرجل مجرم، ألم تر أمارات الإجرام على وجهه؟ كان عليك جره إلى المركز والضغط عليه للاعتراف.

- ومنذ متى تعتد الشرطة بـ «أمارات الإجرام على وجهه»؟ لم أظنك من أنصار نظرية «لومبروزو» يا «هود».

ولم يحسب السيد هود كذلك أنه قد يتفوه يومًا بتلك السخافات، إذ إنه من أشد المعارضين لهذا الشق من نظرية «شيزري لومبروزو» المعروفة بـ

«نظرية الرجل المجرم»، التي تعد من النظريات الأولى في علم الجريمة، وتفسر السلوك الإجرامي استنادًا إلى العوامل البيولوجية، تأثرًا بـ «داروين» ونظرياته عن التاريخ الطبيعي.

تؤسس النظرية لكون الأشخاص الذين يملكون سمات جسدية ووراثية معينة، يصبحون أكثر ميلًا لارتكاب الجرائم ممن سواهم، إذ يؤمن العالم الإيطالي «لومبروزو» أن بعض المجرمين وُلدوا ليكونوا مجرمين، ويمكن اكتشافهم من ملامح وجودهم وصفاتهم الفسيولوجية.

أردف «درويش» هازئًا وهو يضع ساقًا فوق أخرى، فيتبدى حذائه الجلدي اللامع:

- هل ستخبرني الآن عن جبهته المنخفضة، وأذنه الكبيرة غير المتناظرة، وفكه البارز، وأنفه المعقوف، وغيرها من الصفات التي توافق تصنيف «لومبروزو» لما أسماه بـ «المجرم الفطري»؟

كاد السيد هود أن يضرب بقناعاته عرض الحائط، ويسلّم بتلك النظرية العنصرية المتحيزة، التي تؤمن أن المجرم الفطري لم يمر بالتطور البشري الكامل، وأنه أكثر بدائية وأقرب إلى الحيوان الهمجي، إذ كانت مواصفات الأستاذ «نسيم» الجسدية والسلوكية تمثل تطبيقًا دقيقًا لتلك النظرية التي لم يعد جزء كبير منها مقبولًا في الأوساط العلمية.

شعر أنه لو تمادى أكثر في تطبيق الدراسات التي أجراها «لومبروزو» على جماجم المجرمين، لوجد في جمجمة الأستاذ «نسيم» بصمة القاتل الأثيم.

قال بنبرة اتسمت ببرودة تماثل الزمهرير الذي يتخلل عظامهما في تلك اللحظة:

- لكل شيء مرة أولى، قد أغير قناعاتي وأسير خلف «لومبروزو» مع كل الذين ساروا، ثم إن للرجل دراسات أخرى كثيرة معتبرة نستطيع أن نطبقها ها هنا، ما يهمني هو أن هذا الرجل قاتل.

- يكفي يا «هود»، عليك أن تعترف بوجود مشكلة.

- أي مشكلة؟

- زواجك الكارثي لمدة تزيد على العام بامرأة لا تشبهك، عاجز عن العيش معها وعاجز عن مفارقتها، وعملك مصورًا جنائيًا محترفًا الذي بات يضغط على أعصابك بعد مشاهدتك وتوثيقك لكل تلك الجرائم الدامية أخبرتك أن

عليك رؤية اختصاصي نفسي، لا يعيبك في شيء لجوؤك إلى متخصص يساعدك.

لمس «درويش» أنامله داخل الجرح واعتصر، شعر السيد هود بالغضب يتصاعد من أحشائه وينتشر في خلايا جسده والأوردة.

هذا ما هو عليه، عاجزه عن الإتيان بفعل، دومًا ما يكون ردة فعل، كأن مصاب بلعنة أو تعويذة من ساحرة غجرية، تجمده في المواقف العصيبة والقرارات المصيرية.

العجز يشل حركته، يسحب أنفاسه من صدره ويتركه خاويًا على عرشه من غير قوة أو إرادة.

شرع السيد هود يروح ويغدو، يقول بغضب غير مكتوم:

- أنا بخير.. زواجي كان منتهيًا منذ مدة وأنت تعرف ذلك، كل ما حدث أننا ترجمنا ذلك على الورق بطريقة متحضرة، وعملي لن أهمله، أخذت إجازة شهرين طلبًا للراحة لا أكثر، أنا بخير.

نهض «درويش» وأمسك بكتفي صديقه ينهره:

- لست بخير أبدًا، على من تكذب يا «هود»؟ سلبت طليقتك كل ما تملكه، المال الذي كنتما تدخرانه في الحساب المشترك، حتى شقة دمياط القديمة منعتك من دخولها، لم تستطع أن تفعل شيئًا رغم أنني عرضت عليك أكثر من مرة أن أتدخل بصفتي الرسمية، وعملك الذي تدّعي أنك ابتعدت عنه طلبًا للراحة، ليس هذا ما حدث، لقد انهرت في موقع الجريمة الأخيرة في أثناء تصويرك لها، رحت تبكي مثل طفل صغير ضل الطريق.

حمد الله أنه لم يخبر «درويش» عن الكوابيس التي تهاجمه كل ليلة، كوابيس منسوخة من تفاصيل كل مسرح جريمة انغمس في تصويره.

يتراءى له الضحايا ينهضون من سباتهم العميق، ويشيرون نحوه بأنامل دامية، يستغيثون به ويستصرخونه: لماذا لم تحاول إنقاذنا؟

فيستيقظ بعرق غزير وأنفاس لاهثة، يخشى النوم إذ بات يداهم كل ليلة تقريبًا.

بعد كل تلك الجرعات المكثفة من مشاهدة الشر وهو يجول بمنجله ليحصد الأرواح البريئة والأنفس الغافلة، ما عاد بإمكانه تحمل جرعة إضافية.

بات متخما بالغضب من رؤية الشر يرتع في كل مكان، يشعر أنه يعيش معه، وفيه، وبه، كأن العالم -وفي غفلة عن الجميع- استبدل بهوائه ذرات الشر التي لا لون لها ولا طعم ولا رائحة.

لكنه يراها ويتذوقها ويشمها، يسكن الشر كل الأماكن، يسكن كل الثواني والدقائق.

وبينما كان يقوم بعمله في تصوير أركان مسرح الجريمة الأخيرة، التي راحت ضحيتها رضيعة كتمت أمها أنفاسها بوسادة، بعدما خسرت أمام المحكمة قضية حضانتها، شعر برئته تتقلص، وبضباب كثيف يحتشد أمام ناظريه.

ما عاد بإمكان رئتي السيد هود تحمل كل هذا القدر من الدخن.

تحيط بعينيه هالتان رسمهما الأرق بريشته السوداء، يقول محرجًا، ومبررًا:

- أي إنسان طبيعي كان ليتأثر بتلك الجرائم المروعة.

- وهذا ما أقوله، عليك اللجوء إلى اختصاصي نفسي يخفف عنك، أو تبحث عن عمل آخر لا يستنزفك.

- أنا فقط متعب، قليلاً، هذا العالم أكثر وحشية مما ينبغي، أنا بخير، العالم هو المريض، يحتضر، ولا أظن أن ثمة طبيبًا قادرًا على إنقاذه.

- تتحدث كما لو أن الجريمة أمر مستحدث، ألم تقرأ التاريخ، المعارك، المذابح، الفظائع التي وقعت منذ أن اقترف «قابيل» الجريمة البشرية الأولى؟

- أعرف التاريخ جيدًا.

- لماذا إذن تشعر أن ما يحدث اليوم أشد فظاعة مما حدث بالأمس؟

- لا أعرف، ربما لأنني أعيش اليوم، لم أكن موجودًا الأمس.

لا يخاله شك أن «درويش» يهدف إلى دعمه، إلا أنه لم يكن في حالة تسمح باجترار الحديث عن فظائع التاريخ ما يشغل ذهنه في تلك اللحظة هو الجريمة التي شهدها نبض سكون نافذة غرفة نومه. الجريمة التي لا أثر يدل على أنها وقعت في الحقيقة.

أتت كلمات «درويش» المتتالية لتضيف الشك إلى الحيرة وتصيبها في قلب واهن.

- ذهنتك مجهد يا «هود»، أنا لا أكذبك يا صديقي، تعرف كم أنك إنسان رجل يحركه المنطق، لكن أستحلفك بالله أخبرني بم كنت ستفعله لو كنت مكاني؟ لا دليل على ما تقول إنك شاهدته، والتفسير المنطقي الوحيد لذلك أن هذه الجريمة وقعت داخل رأسك!

- داخل رأسي؟

- سمه إجهادًا، أو توهمًا، أو أيًا ما كان المسمى، عقلك المجهد حيّاك حريقًا لم تحدث من الأساس، وجعلك تظن أنك تراها أمامك بكل تلك التفاصيل الدقيقة، عقولنا تخوننا أحيانًا، تعرف ذلك. رأيي أنك بحاجة إلى راحة، سعت بقبولك الجائزة، على الأقل ستظل هنا في رأس البر لأسبوعين، وسنتمكن من التلاقي يوميًا بدلاً من مجيئي وذهابي إلى دمياط لرؤيتك. اسمع، بما أنه يحق لك الإقامة مع مرافق، إذا أحببت فبإمكاني المكوث معك هنا والمبيت فوق هذه الأريكة، لا بأس بها على أي حال.

آخر ما يريده السيد هود رفقة تزيد من تشتته، شعر أنه بحاجة إلى اختلاء بنفسه، وترتيب أفكاره المتناثرة.

- ربما في يوم آخر.

- كما تشاء يا صديقي، يفصل مكان إقامتي عنك عشر دقائق بالسيارة. كما تعرف، إذا احتجت إلى شيء لا تتردد في الاتصال بي.

وعندما بلغ عتبة الباب التفت محذرًا بجدية:

- لكن ليس في الثالثة صباحًا، أنا رجل ينفذ صبره حين لا ينام جيدًا.

لم يغمض للسيد هود جفن إلى أن تسرب الضوء داخل شقوق الليل الأسود، خاف إن نام أن تقتحم أحلامه الضحية الجديدة ذات الشعر الطويل المتموج، وتلومه على عجزه عن تسليم قاتلها إلى يد العدالة بإثبات الجريمة التي وقعت.

قرب مقعدًا من نافذة غرفة نومه، وظل يراقب النوافذ المغلقة للعشة المقابلة.

هل عجز إلى هذه الدرجة أن يميز الوهم من الحقيقة؟

إذا لم يثق المرء بحواسه، فبم عليه أن يثق؟

(3)

المرأة التي قتلت مرتين

أمضى السيد هود قسمًا من طفولته برأس البر، في هذه المدينة البيضاء تلتقي مياه البحر المتوسط المالحة مع مياه النيل العذبة.

يقف الآن أمام نقطة الالتقاء المعروفة بـ «اللسان»، يتأمل الحد الفاصل بين الماءين، يتماوجان معًا دون أن يتمازجا، ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝﴾(1)2.

وبينما شمس الظهيرة الباهتة تسطع فوق رأسه، مر بخاطره وهو يقف أمام البحر أن ثمة برزخًا يضرب بين أحلامه وواقعه، بين ما يأمله وما يتحصل عليه، ربما يلتقيان أحيانًا، لكن أبدًا لا ينسجمان، يظل كل منهما بمعزل عن الآخر، مثل مياه البحر والنيل عند اللسان.

يضم ياقة معطفه الرمادي الصوفي اتقاءً لزمجرات الهواء العنيفة، يدس يديه في جيبيه ويسير بمحاذاة اللسان المكون من صخور طويلة ضخمة تلمع في وضح النهار.

في الشتاء يقل زوار المدينة، تتقوقع على ساكنيها، لا أحد يتحمل تقلبات البحر ولسعات الهواء إلا أبناؤها الأوفياء، وقلة من المجانين الذين يحبون هذا الطقس الثائر.

يغلق أزرارِ معطفه الطويل كثير الجيوب، ويعيد تثبيت الوشاح الصوفي حول رقبته، تاركًا للرياح حرية العبث بشعره القصير الأسود.

يمر بالمحال المغلقة، التي دومًا ما تفتح ذراعيها في مواسم المصيف، المكتظة بأبناء الأقاليم والمحافظات.

يشعر بفراغ في داخله يماثل رأس البر في الشتاء، ما من مدينة إلا ولها لسان، ويخبره لسان رأس البر أنها مثله، تشعر بالخواء.

يشعر السيد هود أن الفراغ أصبح جزءًا من تركيبته النفسية وحتى الجسدية، كأن ثمة جزءًا غير مكتمل، ولن يكتمل.

الفراغ وحش فتاك يقضم المرء إلى أن يبتلعه بالكلية، فيُنسى كأنه لم يأت إلى الدنيا.

يرفع السيد هود كاميرته المدللة بمحاذاة رأسه، والمعلقة بشريط أحمر حول رقبته، يلتقط الصور، الكثير من الصور، محاولاً طمس الفراغ الذي يفتح فمه على اتساعه، ويشتهي ابتلاعه.

يتحسس الخدوش الصغيرة في بدن الكاميرا بحنو كبير، كأنها تملك أعصابًا قادرة على أن تنبض ألمًا.

للصور قدرة على التحدث من غير لسان، تبوح بما يعجز المكان عن وصفه، وتفشي ما يخبئه الناس في جيب الزمن.

الكاميرا هي عين الحقيقة.

يؤمن السيد هود أن بإمكان الصور أن ترى ما لا تراه العين المجردة، وتشكل عالمًا مختلفًا عما نعيش فيه الآن.

لو التقط كل منا كل جميل يشهده، لاصطفت صورنا الجميلة مُشكّلة جنة أرضية تسعنا جميعًا.

لكننا في عالم يسعى حثيثًا لتأطير أسوأ اللقطات الممكنة، وأشدها شراسة وفظاعة وإثارة للغثيان، ربما لأننا لا نستحق أن نعيش سعداء.

تطوف تلك الأفكار السوداوية في رأس السيد هود، فيسير مفتتًا على غير هدى، يمر اليوم رتيبًا من غير أحداث تثير البيائق الراكدة.

وعندما يعود إلى مكان إقامته، يمرر نظرات فضولية على العشة المقابلة، يلتهب حماسه، يدور حولها فلا يجد بابًا مفتوحًا أو نافذة مشرعة، يسترق السمع فلا تبلغه همسة ولا تنهيدة، هل قرر الأستاذ «نسيم» المغادرة؟

يتأمل الأرض من حوله تحت كشافات الغروب، يبحث بعين فاحصة بتدبر بها عن بقعة دماء، أو أثر إدانة، أو حجر في غير موضعه، يثبت به الجريمة التي لا يصدقها أحد.

يمسح اليأس فوق جبينه بأيادٍ عشر، فيدخل عشه، ينفض عن رأسه الأفكار المسترسلة عن جاره الغليظ، وذات الشعر الثائر، والجريمة التي شهدها، أو التي ظن أنه شهدها.

يقف أمام مرآة الحمام يرنو إلى رأسه مقرًا: وقعت الجريمة داخل رأسك يا هود، إنه أغرب مسرح جريمة على الإطلاق منذ قتل «قابيل» أخاه وواراه الثرى!

ينهي عبارته بشيء من الزهو، لا أحد غيره مر بتلك التجربة الفريدة المغايرة.

جريمة داخل الرأس، يا لها من سابقة.

يُعد مشروبًا يساعده على تدفئة الدماء المتجمدة في عروقه، يضع الكاميرا فوق الرف العلوي للمطبخ مخافة أن يسقط فوقها الماء المغلي، أو يصطدم بها عرضًا فتخدش عدستها كما حدث سابقًا.

لم يلق اليوم «درويش»، ولم يرد على اتصاله، فضل الاختلاء بنفسه منعزلاً داخل صومعة أفكاره.

انتصف الليل الذي بدا أطول من كل الليالي التي سبقته، مرت ساعة واثنتان وثلاث، جلس خلالها أمام النافذة، يقرأ نسخته الورقية من «تشريع حمورابي» في العصر البابلي القديم، أقدم تشريع جنائي متكامل مدون في التاريخ، الذي يُعد رمزًا ثقافيًا عالميًا يؤكد على أن العدل قيمة مقدسة، هدفه الأسمى حماية الضعفاء.

ويرسخ لفكرة العقوبة بالمثل، العين بالعين.

خلال القراءة، لم يستطع منع نفسه من استراق النظر صوب العشة المقابلة، وهناك بينما الساعة تدنو من الثالثة صباحًا، رأى ما دفع بدفقة عالية من الأدرينالين في دمه.

المشهد نفسه الذي أبصره بالأمس، يتكرر بكل تفصيلة خزنتها ذاكرته القصيرة، النافذة المفتوحة، الستارة المتطايرة، الظلان، الخنق، الصراع، والخنجر.

ثم ثلاث طعنات متتابعة!

كما لو كان يسافر عبر آلة زمن جهنمية إلى الأمس، ليشهد الجريمة نفسها تحدث أمام ناظريه من جديد، عبر شريط سينمائي فريد.

بيد أنه لم يقطع تذكرة لأي قطارات زمنية، فاللحظة التي يعيشها الآن هي فصل جديد في يوم جديد، الشيء الوحيد الذي يتكرر هو الجريمة بكامل تفاصيلها.

انطلق السيد هود صوب المطبخ يلتقط الكاميرا من الرف العلوي، لكن الوقت الذي استغرقه ليعثر عليها ويعود بها إلى النافذة، كان كافيًا لتنقضي

اللقطة التي يستقر فيها ظل المرأة ذات الشعر الطويل أرضًا، ومن فوقها ينثني ظل الرجل بالخنجر.

لم يستطع تجميد المشهد، لم يستطع الحصول على دليل، ملأه هذا غيظًا.

تجاهل الاتصال بـ «درويش»، ونسي استدعاء الإسعاف، انطلق من فوره صوب ساحة الجريمة مصطحبًا معه سكين صغير، أخذه من طبق الفاكهة الكبير، دفاعًا عن النفس إن حاول المجرم مهاجمته كما فعل الليلة الماضية.

طرقات قوية بقبضته على الباب، ثم ظهور الأستاذ «نسيم» بوجه غاضب مستريب، هذه المرة تراجع للخلف إثر تهديد السيد هود له بالسكين:

- ابتعد وإلا أفرغت كرشك السمين.

- ماذا تفعل يا معتوه؟

- لا تضطرني إلى أن أعيد كلامي مرتين.

تظاهر الأستاذ «نسيم» بالتقهقر والتسليم، إلى أن أقبل السيد هود صوب باب غرفة النوم وعزم على فتحها، وفي لحظة خاطفة انقض عليه الأستاذ «نسيم» من الخلف، قيد حركته بذراعين قويتين، ونزع من يده السكين.

- أرجو أن تكون قد اتصلت بالإسعاف مثل أمس أيها المأفون، لأنك ستكون بحاجة إليه.

كان هذا آخر ما سمعه السيد هود قبل أن تنقض على وجهه وصدره لكمات صاعقة، حاول الانفلات عبثًا مثل ناموسة بين إصبعي مارد جبار.

لم تقو صفعاته العشوائية على إحداث أثر يذكر، بيد أن عضة قوية لذراع الأستاذ «نسيم» اللحيم، كانت كافية ليطلق هذا المارد صرخة تجذب انتباه الخفير.

حرص الأستاذ «نسيم» على تقييد السيد هود بالحبال فوق المقعد، واستدعاء الشرطة بنفسه.

- سأريك ما سأفعله بك أيها المنحرف، لا أكون رجلاً إن لم أجعلك تبيت في الحبس هذه الليلة.

- أنت مجرم، قتلت زوجتك، استدع الشرطة إن كنت رجلاً.

صاح السيد هود بأنفاس لاهثة، مشيرًا برأسه صوب الغرفة المغلقة، مناشدًا مساعدة الخفير، الذي لم يجرؤ على طلب فتح الغرفة للتأكد، بعدما شهد

الجميع بالأمس كذب السيد هود وادعاءاته الفارغة.

لم يمر وقت طويل حتى اقتحم «درويش» العشة، استجابة للبلاغ الذي تلقاه بينما كان في مكتبه بمركز الشرطة، حضر بمفرده هذه المرة، دون قوة تدعمه.

هاله ما رأى من حال صديقه المقيد بحبل ثخين، تنز الدماء من شق بشفته العلوية، وآخر بوجنته.

- ماذا فعلت بنفسك يا «هود»؟

بينما يقول ذلك يفك عقدة الحبل، يجيبه هود منفعلاً بجنون:

- قتلها يا «درويش»، أنا متأكد هذه المرة، أرجوك افتح الغرفة، إنها بالداخل، رأيتها بعيني، جثة المرأة بالداخل، ربما لم تمت بعد، قد نستطيع إنقاذها.

- لن أسمح بهذا التجاوز مرتين يا سعادة النقيب، لن يمر الأمر مرور الكرام كما حدث أمس، ابن الحرام هذا سينال عقابًا رادعًا.

لم يعارضه «درويش»، بل طلب متلطفًا بأقصى ما يمكن أن تحتمله عبارة مماثلة:

- لن أطلب منك أن تسامحه أو تتنازل عن حقوقك، لكن لو سمحت لنا برؤية الغرفة و...

- لا يكون هذا الشارب على رجل إن سمحت لكم بالتعدي على حرماتي، - لا يوجد تعدّ على الحرمات لا سمح الله، كل ما هناك أنني أريد أن ألقي نظرة على الغرفة.

- زوجتي بالداخل.

- جميل، إذن اطلب منها الخروج، هذا كل ما نريده لنكتمل إجراءات البلاغ، ألا تريد فتح محضر ضد جارك السيد هود؟ إذن يجب أن أتأكد من كونه قد قدّم ادعاءً كاذبًا.

زمجر الرجل وأقسم باسم العظيم ألا يدعه يفلت دون عقوبة مغلظة، طرّق الباب ثم فتحه مسافة سنتيمترات كافية ليدس رأسه ويطلب ممن بداخل الغرفة:

- ارتدي شيئًا مناسبًا.

-

أغلق الباب بقوة ووقف على عتبه كالزبانية، يجيل بنظراته النارية في وجوه الجميع.

تمر دقيقتان، ثم ينفتح الباب، يشرئب السيد هود بعنقه مستطلعًا، وكذا يفعل «درويش» والخفير، تتبدى أمام أعينهم الجاحظة امرأة ترتدي فستانًا طويلاً من الصوف بلون نبيذي.

تلف حول عنقها وشاحًا من لون مماثل، يعلوه وجه بيضاوي نحيف ذو بشرة خمرية، وعينان واسعتان مكحلتان كأنهما بئران عميقتان بلا قاع، تمرر نظرات متوجسة في وجوه الجميع، دون أن تنطق بكلمة واحدة.

تنسكب نظرات السيد هود على شعرها الطويل المتدرج، الشعر نفسه الذي كانت تملكه المرأة الظل، التي تلقت ثلاث طعنات بالصدر لليلتين على التوالي!

يتوقف الزمن، يغوص السيد هود في تأمل قسماتها، وردائها، وشعرها، محاولاً القبض على بقعة دماء، أو كدمة، أو دليل إساءة متعمدة.

فلا يجد أيًا من هذا، تتجمد أمامه امرأة رائقة لم تمتد لها يد الزمن بسوء قط.

يتقدم «درويش» وبنبرة قوية يُطلق رصاصاته فوق جبين الصمت فيصرعه:

- مساء الخير يا مدام.

يتسرب إلى رأس السيد هود بصمة صوتها التي تشبه عزفًا منفردًا لكمان تائه، وسط فضاء خالٍ من الأصوات وهي تتمتم:

- مساء النور يا فندم.

- هل أنتِ زوجة الأستاذ «نسيم»؟

- أنا هي.

تتسرب الدهشة إلى قسمات السيد هود، كيف تتزوج النسمة بعاصفة؟ الزهرة بجبل؟ الماء الزلال بئر الرماد؟

- هل لي برؤية هويتك الشخصية؟ أنا النقيب «أحمد درويش»، مباحث رأس البر.

تختفي قليلاً داخل الغرفة، ثم تعود حاملة حقيبتها البيضاء الصغيرة.

تتضافر نظرات السيد هود مع أناملها الرفيعة الطويلة، وهي تتحرك بين محتويات الحقيبة لا باحثة بل مُهنهدة.

- تفضل يا سيادة النقيب.

يدير «درويش» هويتها بين أنامله، يتحقق من البيانات ويطابق الصورة بصاحبتها، ثم يردف:

- أنتِ من تحدثنا إليها أمس عبر الهاتف؟

- بالتأكيد.

- «ساري أكرم»؟

- أنا هي.

يتردد اسمها داخل رأس السيد هود مثل طوفان من الأصداء، لا بداية لها ولا منتهى، «ساري»!

يشعر بوجودها طاغيًا على المخلوقات والجمادات والأفكار، وجودها الذي ينفي حدوث جريمة يدّعي وقوعها!

هذه المرأة لم تُقتل أمامه مرة واحدة، بل مرتين!

ورغم ذلك تبدو حية جدًا، مخلوقة نقية خرجت من إحدى الحكايات الأسطورية، هندامها أنيق مرتب، وشعرها المتموج في أكثر حالاته تألقًا.

تنظر بحساب، تتحدث بحساب، وتتحرك بحساب، لا تجرؤ على خدش الصمت أو إلحاق الأذى بنسمة عابرة، إحدى حاملات نوبل للسلام أتت لتعذر المحبة على العالم، تُوقف الحروب وتُنهي الخطوب.

تقدم منها خطوتين رغم تحفظ زوجها، وتوتر صديقه، وتقهقر الخفير، يسألها مباشرة وهو ينظر إلى عمق عينها:

- ألم تتعرضي للأذى؟

ما إن نطق السؤال حتى أدرك أنه استخدم صيغة فضفاضة، من منا لم يتعرض للأذى؟ لم يستبدل بها أخرى، ولم يحاول توضيح مقصده، إذ تطلعت إليه «ساري» بحيرة، ممزوجة بشيء من التوجس، والترقب، والتردد.

امرأة هادئة تحتضن بين ذراعيها قنبلة!

وصف غريب لكنه يناسبها بشدة، هكذا قرأها.

- لا أفهم مقصدك، عامة أنا بخير.

كاد أن يقول لها: كاذبة جدًا، لا أحد منا بخير.

لم يمهله زوجها الفرصة وحط بينهما مثل قطة سوداء تخمشه، وتنهره:

- يكفي هذا، لن أسمح بالمزيد من سخافاتك.

ثم رمق «درويش» بنظرة ذات مغزى، يحثه على القيام بواجبه، والقبض على الدخيل الذي اقتحم خلوته.

أدرك «درويش» أن صديقه هذه المرة وقع حقًا في مشكلة، وأن الرجل لن يتنازل عن حقه وإن خسر في سبيل ذلك كل قرش يملكه.

وبينما حاول البحث عن مخرج لاسترضاء الزوج الغضوب، أتته مكالمة عاجلة، تلقاها بتحفز، وأنهاها بعجالة:

- سآتي في الحال.

ثم التفت إلى الأستاذ «نسيم» قائلاً:

- تعال صباح الغد إلى المركز لفتح المحضر.

- بل الآن يا سعادة النقيب، سنتحرك جميعًا على القسم في رحلة جماعية بربطة المعلم، وينال هذا الخسيس جزاء فعلته.

مسح «درويش» بسبابته وإبهامه فوق شاربه الكث، فأدرك السيد هود أن صديقه في حالة غضب متنامية. استطرد «درويش» بقوة وغلظة:

- بل غدًا، الآن لدي مأمورية عاجلة.

- لن أترك حقي، هذا المأفون سيبيت في "التخشيبة" الليلة، لن أقبل بغير ذلك.

- قلت لك ليس الآن.

رغم أن الأستاذ "نسيم" لم يتوقف عن الصراخ مهددًا، لم يلق له أحدهم بالاً بينما كانوا يغادرون "العشة".

التفت السيد هود ليلقي على فتاة "السلام" نظرة أخيرة مودعًا، لم يصب منها لمحة، إذ أشار لها زوجها بالعودة إلى الغرفة فامتثلت لأوامره.

- ما كان علينا الرحيل يا "درويش"، هذه المرأة في خطر.

أغلق باب العشة بقوة خلفهما تشيعهما تهديدات سافرة، كان عقل "درويش" سابحًا في مكان آخر فلم يجار السيد هود في حديثه الغاضب، إلى أن استوقفه هذا الأخير قائلاً:

- "درويش"، ألا تسمعني؟ انتظر يا رجل، تبدو مضطربًا بشدة، أخبرني، ماذا حدث؟

- وردنا بلاغ بوقوع جريمة في شارع 61، أي على بعد شارعين من هنا، يجب أن أكون في موقع الجريمة الآن.

تذكر السيد هود صوت سيارة النجدة التي سمعها تمر قبل دقائق، عض الفضول صدره، ودفعه ليسأل "درويش" الذي أدار محرك سيارته بذهن شارد:

- أي نوع من الجرائم؟

كانت السيارة قد تحركت بالفعل عندما التفت "درويش" صوب النافذة المفتوحة، يوضح بعجالة قبل أن ينطلق إلى وجهته:

- وردنا بلاغ بالعثور على جثة امرأة تلقت ثلاث طعنات في الصدر

(4)

قضية بسيطة أم جريمة معقدة؟

عندما أطفأ "درويش" محرك سيارته وترجل منها، ولى وجهه شطر السماء، فلمع البرق بقوة، تبعه هزيم شق سكون المنطقة.

استقبله أول ضابط وصل إلى موقع الجريمة، معاون مباحث وملازم أول يعمل بمركز رأس البر.

تصافح الرجلان وتبادلا عبارات ترحيبية مقتضبة.

بينما تساءل "درويش" مشيرًا صوب المبنى الذي خرج منه الضابط للتو، أشعل سيجارته:

- ما الوضع يا "عمرو"؟

أفصح معاون المباحث "عمرو" عن المعلومات التي بحوزته لـ "درويش" الذي يعلوه رتبة، كما جرت العادة:

- يشرفني دائمًا العمل معك يا "درويش"، بك، أنا من أشد المعجبين بمهارتك وكفاءتك، بخصوص الحادث، ففي تمام الثالثة وعشر دقائق صباحًا تلقينا بلاغًا من رجل يقيم بإحدى العشش بآخر هذا الشارع، يفيد بأنه عثر على طفل بين السادسة والسابعة من عمره مغطى بالدماء، يصرخ ويهرول باكيًا وسط الطريق.

سعل "عمرو" مرتين، ثم أغلق سحاب سترته الجلدية اتقاءً لصفعات الريح الباردة وهو يستطرد:

- خرج الرجل وحمل الطفل ثم مر به على البيوت بطول الشارع، إلى أن وصل إلى هذه الشقة بالطابق الثاني، مستدلاً بتوجيهات الصغير الباكي

التفت مشيرًا إلى الأعلى جهة اليسار، أغلب بيوت رأس البر مكونة من طابقين أو ثلاثة، وكل طابق به شقتان متقابلتان.

رفع "درويش" رأسه ينظر إلى الشرفة المغطاة بستارة سميكة مهترئة باهتة ألوانها، ثم أصاخ السمع إلى "عمرو" الذي استطرد:

- كان الباب مفتوحًا والأنوار مضاءة، دخل الرجل وفوجئ بامرأة عجوز مطعونة في صدرها، فاتصل فورًا بالنجدة مستخدمًا هاتفه ورقمه المسجل باسمه وقدم بلاغًا تفصيليًا بما رأى، يمكننا أن نطلب من شرطي السنترال سماع المكالمة إذا رغبت سيادتك.

- وهل الجار الذي قدم البلاغ من أبناء رأس البر أم أحد المستأجرين؟

- الجار "صالح مدكور"، أربعيني، يملك العشة التي يقيم فيها، انتقلت ملكيتها إليه حديثًا بعد تقسيم ميراث عمه الراحل، أتى مع زوجته لإجراء تعديلات على العشة قبل بدء الموسم الصيفي.

- وأين الطفل الآن؟

- في بيت الجار، تعتني به زوجته، الطفل المسكين في حالة مزرية لا يتوقف عن البكاء، عاش تجربة مروعة برؤية جدته مقتولة أمامه.

سعل مرة أخرى ثم استطرد:

- تأكدنا أن الضحية هي جدة الطفل، والدة أمه، "سنية محفوظ"، ربة منزل في الخامسة والستين، من أبناء رأس البر لا إحدى زائرات الشتاء الراغبات في الاستمتاع بالمدينة في أثناء خلوها من المصطافين، تقيم في هذه العشة منذ أن تزوجت، وفي آخر عامين كانت تعتني بحفيدها الصغير بعد أن ماتت ابنتها وزوج ابنتها في حادث تصادم على طريق بلطيم، قبل خمس دقائق وصل زوجها الذي أبدى صدمته بما حدث.

- أين كان في هذا الوقت من الليل تاركًا زوجته وحفيده الصغير بمفردهما؟

- الزوج "محسن سرحان"، سبعيني، يملك مطعمًا للأسماك بشارع النيل، أمضى ساعات الليل هناك.

- وهل يفتح المطعم أبوابه حتى هذا الوقت المتأخر؟

- لديهم مجرد هذه التقارير ومثلها في الجرائم المماثلة..

بالمحاضر وبعض المحاولات طار صواب خبير الجرائم..

- وأين هو الآن؟

- تحفظنا عليه بداخل.

- انضم الطبيب الشرعي وفريق البحث الجنائي؟

- في الطريق يا فندم.

- وما رأيك في ملابسات الواقعة؟

أردف المعاون «**عمرو**» مؤكدًا، وهو يهز كتفيه بأريحية:

- إنها قضية بسيطة يا «**درويش**» بك، جريمة عنف منزلي أفضت إلى القتل، وقد يكون مخطط لها سابقًا، حتماً الزوج هو الجاني، بتحريات المباحث سنستطيع بسهولة إثبات أن الزوج لم يكن في الاجتماع مع العاملين بالمطعم طوال الليل كما يدعي، وسنعثر بين العمال على شاهد أدرك غيابه لنصف ساعة على الأقل، استطاع خلالها الحضور إلى بيته بسيارته وارتكاب الجريمة ثم العودة إلى المطعم كأن شيئاً لم يكن، صانعًا حجة غياب محكمة، أو هكذا يظن، أو ربما قتلها من غير ترتيب في لحظة غضب في أثناء مشاجرة، ثم توجه إلى مطعمه.

ثم أشار إلى الشارع من حوله قائلاً:

- كما ترى، رأس البر مدينة هادئة في موسم الشتاء، الزوج كان على ثقة أن أحدًا لن يراه وهو يأتي ولا وهو يعود، من المجنون الذي يجلس في الشرفة أو يفتح النافذة في هذا الصقيع؟

لم يستسغ «**درويش**» القفز إلى النتائج المتسرعة، لكنه لا يستطيع غض الطرف عن وجهة نظر الضابط المتحمس، الذي استطرد بثقة مؤكدًا:

- إنها قضية بسيطة.

ألقى «**درويش**» سيجارته المشتعلة أرضًا، سحقها بطرف حذائه، قبل أن يحيي «**عمرو**» بهزة خفيفة من رأسه، ويتوجه صوب مسرح الجريمة ليعاينه بنفسه.

- «**درويش**» بك.

التفت متململاً بنفاذ صبر، إذ كان في عجلة من أمره، راغب في فحص المكان بهدوء قبل مزاحمة الفرق القادمة.

حك «**عمرو**» رأسه قبل أن يقول بحيرة:

- ثمة تفصيلة عجيبة لا أستطيع تفسيرها، ستراها بنفسك في الداخل.

****

أول ما طالعه هو وجه زوج المجني عليها، محتقنًا وباكيًا، على جانبيه يقف فردان من أمناء الشرطة، يثبتانه فوق مقعد ويمنعانه من العبث بالمكان أو محاولة إتلاف الأدلة.

عفي الجسد رغم سنوات عمره التي تربو على السبعين، يعتني بصحته جيدًا، هذا ما استطاع «**درويش**» استنباطه من نظرته الأولية.

قائمة المشتبه بهم يعلوها دائمًا أول شخص يسوقه حظه العاثر للعثور على الجثة بنفسه، وفي هذه القضية فإنه «**صالح مدكور**»، الجار الذي قدم البلاغ.

المبلغ هو أول من تثار الشكوك حوله، لكن ثمة رجلًا آخر ينافسه على المركز الأول في قائمة المشتبه بهم، وهو الزوج الذي غاب عن منزله وقت ارتكاب الجريمة.

بعض الجناة ينسجون حجة غياب سابقة قبل ارتكاب جرائمهم الكاملة -أو هكذا حسبوها- ولم يكن «**درويش**» مبتدئًا لتنطلي عليه حجة غياب زوج الضحية.

أرجأ التفكير في الجاني، ومضى إلى حيث المجني عليها، يتخير بعناية المواضع البعيدة عن بقع الدماء لئلا يفسد عمل خبراء الأدلة الجنائية.

انتبه لطبعات أقدام صغيرة حافية مدماة فوق السيراميك الأبيض، متناثرة هنا وهناك بعشوائية في جميع الاتجاهات.

امتدت يد خفية تعصر قلبه وهو يتخيل الصغير ذا الأعوام السبعة، يبكي ويصرخ ويتقافز بالقرب من جثة جدته السابحة في دمائها.

تصل آثار خطوات الصغير إلى خارج العشة الكائنة بالطابق الثاني، ثم الدرج، وحتى البوابة الخارجية، مصدقة على هذا الجزء من رواية الجار المبلغ.

تقدم «**درويش**» أكثر، يعاين بدقة حدود بركة الدماء الممتدة حول الجثة.

قدَّر «**درويش**» أن الضحية بعد أن تلقت الطعنات المميتة، لم تستطع أن تغالب الإعياء والألم للعثور على من يسعفها، أيادي الموت كانت أقوى مما كانت تتصور، فماتت حيث هي.

اقترب من جثة العجوز المتسطحة أرضًا، وجهها إلى الأعلى، وفي مقلتيها نظرة رعب مباغتة، لم تصدق المسكينة ما يحدث لها، لم تحسب أنها النهاية المحتومة.

ربما كانت قبل الحادثة بقليل تهدهد حفيدها اليتيم لينام، أو تروي له قصة، تعده بنزهة على الشاطئ في الصباح، أو زيارة إلى الملاهي القريبة.

ربما قبل أن يداهمها القاتل بلحظات، كانت جالسة فوق هذه الأريكة تتخيل كيف سيكون شكله عندما ينبت شاربه، وتطول قامته، ويخشن صوته، كيف سيبدو في الثانوية، وأي كلية سيختار، وهل سيمهلها الله العمر لتراه رجلًا بالغًا؟

لم يمهلها الموت وقتًا إضافيًا للمزيد من التساؤلات، أخذها على حين غرة كعادته، وتركها بنظرة فزعة ذاهلة.

جثا «**درويش**» بجوارها، متفاديًا الدعس فوق بركة الدماء الكبيرة، التي تنبئه بأن مسرح الجريمة الابتدائي هذا هو نفسه الذي حدثت فيه الواقعة، قُتلت العجوز في هذا المكان، لم تُنقل من موضع لآخر، فارقت الحياة تمامًا حيث هي.

أخرج قلمًا من جيبه، وباعد بطرفه مقدمة ردائها المنزلي البسيط، تأمل الطعنات الثلاث المتقاربة، ضيق عينيه، وأطال النظر.

- كما أخبرتك يا فندم، إنها جريمة محلولة.

أطرق «**درويش**» برأسه دون أن يلتفت إلى «**عمرو**» الذي تبعه ووقف خلفه، لم يسأله عن سبب عودته بعد أن قام بدوره وسلم مسرح الجريمة لضابط يعلوه رتبة كما تقتضي اللوائح.

كانت نبرة «**درويش**» خشنة إذ قال:

- أن يقتل رجل سبعيني زوجته الستينـية، ألا ترى هذا غريبًا يا حضرة المعاون؟

- في العالم المجنون الذي نعيش فيه، لم يعد شيء غريب يا فندم، قد يقتل بائع خضار زبونًا لأجل عملة ورقية بالية أعطاها له.

- القتل طعناً جريمة شغف، تحتاج إلى الكثير من العاطفة. وانغمس

- خلال حديث مقتضب مع الجار قبل أن نرسله إلى القسم للإدلاء بأقـ

عرفتُ أن الزوجين كانا كثيري الشجار، حتى إن صوتهما كان يغلب

على نباح الكلاب الطليقة في الشارع.

أشار «عمرو» ليشير صوب التفصيلة التي حيرته متسائلاً بفضول:

- هل استطعت تفسير ذلك يا فندم؟

دس «درويش» يديه المتجمدتين في جيبي بنطاله، وقف يتأمل بإمعان شديد ما يشير إليه «عمرو»، خنجر خشبي مدسوس نصله كاملاً في صدر الضحية المفتوح على اتساعه!

(5)

أداة زائفة

جريمة قتل راحت ضحيتها امرأة تلقت ثلاث طعنات في الصدر، في عشة تبعد عنه بشارعين فحسب، هذا ما قاله «درويش» قبل مغادرته على عجالة.

فهل هذه مصادفة؟

أخذ السيد هود يجوب الصالة جيئة وذهاباً، بعقل لا يهدأ، وهواجس لا تسكن، يتمتم لنفسه وأنامل يُسراه تخلخل شعره غير المصفف: الجريمة التي

رأيتها تحدث لليلتين متتاليتين في العشة المقابلة، التي يصر الجميع على أنها جريمة متخيلة منسوجة داخل رأسي، تحدث في الحقيقة على بعد شارعين فحسب، كيف ذلك؟ هل هذا استبصار أو قدرة فريدة على رؤية المستقبل؟ متى اكتسبتها إذن؟ وكيف؟

أجابه الفراغ بالمزيد من الصمت، صمت له مخالب طويلة خمشت فضوله، وأدمت حيرته، لم يحتمل البقاء أكثر في مواجهة تلك الجدر المصمتة، التي تعجز عن منحه ما يحتاج إليه من أجوبة.

ارتدى معطفه الداكن الطويل العازل، كانت السماء قد بدأت في إفلات زخات المطر كأنها تجهش في بكاء مباغت.

لف شريط الكاميرا حول رقبته تحسباً لحاجته إليها، فقد تصادفه المزيد من الغرائب التي تحتاج إلى توثيق، عليه أن يكون مستعداً لئلا يتهمه الناس بالجنون أو الخرف.

حمل فوق كتفه حقيبته الجلدية الخاصة التي تحوي عدسات، وكشافاً،

وقفاذاً جلدياً أسود، وغيرها من الأغراض التي يحتاج إليها عادة في عمله، مثل
قماش خاص لتنظيف العدسة، مقياس مرجعي يوضع بجوار الأدلة لتوضيح
أبعادها، بطاقة ذاكرة إضافية، بطاريات، مفك براغ، شريط لاصق، شاحن
محمول، وكاميرا احتياطية صغيرة في حال تعطلت كاميرته.
غادر متوجهاً إلى شارع 61 حيث وقعت الجريمة، لم يفته أن يسترق
النظر صوب العشة حيث تعيش سيدة السلام التي تحتضن بين ذراعيها قطة
كانت الأضواء مشتعلة، والنوافذ مغلقة، فيما عدا نافذة غرفة النوم اللعينة
التي بقيت مواربة.

***

يدرك السيد هود بغض «درويش» لتدخل الآخرين في القضايا التي
يتولاها، رغم ذلك توجه إلى مسرح الجريمة المضاءة أنواره، ومن أمامه تقف
سيارتا دورية شرطة، وعدد من عناصر الأمن في وضعية تأهب قصوى.
رأس البر مدينة هادئة، نادرًا ما تحدث فيها تلك الجرائم الدامية.
لم يقترب كثيراً لئلا توقفه عناصر القوة، اتصل بـ «درويش» الذي لم
يجب بطبيعة الحال، فأرسل إليه رسالة مستجدية.
«أريد أن أطلع على ما يحدث بالداخل، أرجوك يا «درويش» هذا مهم
بالنسبة لي».
ثم اتكأ بظهره إلى سور قريب، وانتظر الرد على رسالته.
في الداخل، كان «درويش» يقرأ الرسالة ويتجاهلها عامداً معيداً الهاتف
إلى جيبه، يعود ليجثو إلى جوار جثة العجوز مرة أخرى، تتركز نظراته قليلاً
عند الحزام فاقع اللون الذي يطوق خصرها بقوة ويشده شداً، ثم يرنو بنظرة

فاحصة إلى الخنجر الخشبي المدسوس في عمق فمها.

فوق وجهها ملامح مرتعبة، كأنها قابلت الرعب وجهاً لوجه لحظة موتها.

عجز «عمرو» عن احتواء الفضول الذي سكنه:

- ما رأيك يا فندم؟ غريب، أليس كذلك؟

أجابه «درويش» وما يزال يمعن النظر:

- خنجر خفيف من الخشب، كأنه مُعد للعب، يبلغ حلق الجثة ويجرحه

غالباً، لكن الضرر الذي يحدثه الخنجر محدود للغاية.

قال ذلك وهو يقرب كشاف هاتفه من فم الضحية، فيما أردف «عمرو» - بالضبط، ألا ترى معي أن هذا غريب؟ أم بذل هناك وقتاً لبضع ثوانٍ ثمينة فقط ليدس خنجراً خشبياً في فم الضحية، وزنه خفيف للغاية، ثم إذا كان قد قتلها بثلاث طعنات في صدرها بسكين حقيقي لماذا يترك من خلفه سلاحاً آخر زائفا؟

- من قال إن سلاح الجريمة سكين حقيقي؟

رفع «عمرو» حاجبيه متطلعاً إلى «درويش» بنظرة حيرة، ثم أردف:

- بالتأكيد لم يقتلها بالخنجر الخشبي، كما ترى يا فندم إنه ضعيف، لا يقوى على اختراق ضلوعها أو بلوغ أعضائها الداخلية والتسبب في وفاتها.

- تعال وانظر.

انحنى «عمرو» صوب الجهة المقابلة لـ «درويش»، الذي أشار برأسه صوب صدر الجثة بعد أن باعد رداءها بطرف قلمه وهو يفصح:

- في مدخل الجروح الثلاثة هناك بقايا خشبية تستطيع العين المجردة التقاطها إذا ما دققنا النظر.

وفور أن تمكن «عمرو» من رؤية ذلك تباعدت شفتاه دهشة، أردف «درويش» بعد تنهيدة قصيرة:

- لم تحدث تلك الطعنات بسكين معدني، بل بهذا الخنجر الذي يملأ فمها. دقق في تلك الجروح ستجدها سطحية للغاية، مناسبة تمامًا للأثر الذي يمكن أن يُحدثه خنجر قصير مدبب من الخشب.

- أتقصد أنها لم تَمُت بسبب تلك الطعنات الثلاث بالصدر؟

- تلك الطعنات الثلاث ليست مميتة على الإطلاق.

رفع عينيه وسددهما في وجه الزوج الذي كان بعيدًا عن مرمى السمع. لم تتمكن أذنا الزوج من التقاط كلمات «درويش»، إلا أنه ظل يتابعه بعينين متسعتين في ترقب شديد.

وفجأة، صاح «درويش» في أمين شرطة يقف على مقربة:

- أغلق هذا الشيء اللعين.

ثمة موسيقى دائرة في الخلفية تمنعه من التركيز، ترتفع فجأة بتردد مستفز، ثم تختفي بغتة، ثم تعود لترتفع، كأنها تخرج من جهاز أصابه

العطب، يبدو أن الصغير وجدته كانا يقضيان وقتاً لطيفاً حينما باغتهما القاتل من حيث لم يحتسبا

ثمة طبق به بقايا كعكة برتقال على الطاولة، هل كان الصغير يتناولها عندما باغتتهما القاتل وسدد إلى جدته ضربته القاضية؟

انزعج «درويش» لهذا الخاطر، بيد أنه كأي ضابط كفء، أزاح سريعاً مشاعره الشخصية جانباً.

مرت ثوان قبل أن ينطفئ الصوت ويستعيد «درويش» صفاء التفكير، يقول كأنه يتحدث إلى نفسه متجاهلاً «عمرو» الواقف بجواره:

- لا وجود لآثار اقتحام على باب العشة.

- وجميع النوافذ مغلقة من الداخل يا فندم، باستثناء نافذة الحمام لكنها صغيرة جداً لا تكفي ليدخل منها القاتل أو ليغادر عبرها.

ثم ابتسم في انتشاء واضح:

- يبدو أن تحليلي المبدئي كان صائباً، القاتل على معرفة بالضحية، دخل العشة بطريقة طبيعية، القاتل هو الزوج «محسن سرحان»، لا أحد سواه.

أشار «عمرو» إلى جروح قطعية دقيقة وغير منتظمة لها حدود مربع صغير فوق جبين الضحية، قائلاً بشيء من عدم الارتياح:

- لكن... هذه الجروح أيضاً غريبة، كأن القاتل أراد تعذيبها، غريب فالجبين ليس موضعاً معتاداً للتعذيب ولا مكاناً تتجمع فيه الأعصاب بكثرة لإحداث أكبر قدر ممكن من الألم، هذا إذا ما كان هدف القاتل تعذيبها.

تلك الجروح في جبينها حدثت بعد الوفاة، وليس قبلها.

لم يكن «درويش» بحاجة إلى طبيب شرعي ليؤكد له ذلك، كانت نظيفة بلا دماء متجلطة، أدرك ذلك لكنه ما زال يجهل سبب إحداث تلك الجروح الصغيرة المنتظمة في شكل مربع فوق جبين الضحية.

أمسك «درويش» بكتف الجثة ووسطها، وأشار إلى «عمرو» كي يمسك بساقها، أدارها ربع دورة ملقياً نظرة سريعة على ظهرها قبل أن يعيدها سيرتها الأولى.

ثم أفصح بنبرة خافتة وهو يجيل بنظره فيما حوله بحيرة بالغة:

- لا وجود لجروح أخرى في جسدها أو مواضع بتمزق فيها رداؤها المنزلي، هذه المرأة لم تقتل طعناً.

- كيف ماتت إذن يا «درويش» بك؟ ولماذا بذل القاتل جهده ليجعلها تبدو كما لو كانت **قتلت طعناً**؟

دار هذا السؤال الملح في رأس «درويش»: لماذا يبذل القاتل كل هذا العناء ليبعد مسرح الجريمة بهذا الشكل العجيب؟ أما كان يكفيه قتلها؟

أشار «درويش» إلى الأرض من حوله، ثم قال بتوتر، رغم محاولاته الحثيثة ليبدو **واثقاً متماسكاً**:

- الأهم من ذلك، إذا لم تكن هذه المرأة قد قتلت طعناً، ولا يوجد أثر ظاهري في جسدها لمدخل رصاصة أو لجروح عميقة مميتة، كيف نزفت كل هذا القدر الكبير من الدماء إذن؟

جذبت بركة الدماء أنظار الجميع مثل مغناطيس قوي، بما في ذلك عيون فردي الأمن والزوج الذي غاب عن سمعه ما يُقال، إلا أنه أدرك أن ثمة شيئاً مريباً يثير القشعريرة.

ثلاث طعنات سطحية بسكين خشبي في الصدر، غير قادرة على إسالة كل هذا القدر من النزيف الذي يراه «درويش» من حوله، ولا التسبب في موتها.

تردد السؤال مرة أخرى في عقله: كيف نزفت هذه العجوز كل هذا القدر الكبير من الدماء؟

ولم يكن من أحد قادراً على منحه الإجابة سوى الطبيب الشرعي القادم في الطريق.

نظر إلى ساعته، وانتظره بصبر مستريب.

***

يُمكن لصفات عدة أن تلتصق بالسيد هود متى أدار رأسه، الجدة، النظرة السوداوية للحياة، التراخي أمام القرارات المصيرية.

وما لا يُمكن أن يتصف به هو الصبر.

لم يتلقَّ ردًا من «درويش»، في الحقيقة لم ينتظر سوى دقيقتين... مستندًا بظهره إلى السور القريب، وكان هذا أقصى مدة تمكن خلالها من ضبط نفسه.

انتهز فرصة انتهاء قوة التأمين المكونة من ثلاثة أفراد من أمناء الشرطة، أحدهم في التحدث إلى اللاسلكي، والآخر في النقاش مع زميله، ثم التف حول المبنى.

ومن الجهة الخلفية التي تحوي نوافذ الحمامات والمطابخ، تخير إحدى مواسير الصرف واسعة القطر للتسلق.

كانت صدئة ذات رائحة منتنة، وزلقة تحت يديه إثر المطر الذي أفرغته بطون السحب، ولا تزال.

أخذ عدة صور متفرقة للأرض التي غرقت تمامًا بالأوحال، صور لم تكن ذات أهمية حقيقية إذ طمست الأمطار أي آثار موجودة.

عبثت الريح بقبعة رأسه الرياضية وراقصت أطراف معطفه، ترك حقيبته فوق الأرض الندبة بالأسفل، لم يحمل معه من أغراضه سوى الكاميرا التي لفها حول رقبته.

امتن لحذائه الرياضي متين البدن، باهظ الثمن، من علامة تجارية شهيرة، مكَّنه من الارتكاز بمقدمته فوق حواف النوافذ وانبعاجات ماسورة الصرف عند مواضع الربط، إلى أن بلغ نافذة حمام الطابق الثاني محل الجريمة.

نافذة صغيرة جدًا، مفتوحة من غير ستارة تستر ما خلفها، تمكنه من رؤية محتويات الحمام الصغير النظيف. أخرج كاميرته والتقط عشر صور للمغسلة والجدران والأرضية اللامعة، ثلاث فرش للأسنان، علبة معجون، منشفة، ماكينة حلاقة، ولوفة ناعمة.

حاول دس جسده إلى الداخل، ورغم بنيته المتوسطة لم يتمكن إلا من إدخال رأسه ومقدمة كتفه اليمنى بالكاد، إذ كان إطار النافذة أصغر بكثير من استيعاب جسده كاملًا.

- انزل يا «هود».. حالاً.

لم يلتفت ليستطلع هوية الآمر، رغم الريح العاصف ميز صوت «درويش» ونبرته الغاضبة، كان بالفعل قد رصد كل ما يمكن أن يتحصل عليه من زوايا تصوير، وعجز عن الدخول لرصد البقية.

لم يجد بدًا من النزول ومواجهة «درويش» الذي يراه بالأسفل مثل أسد يتمطى على غريمه سحلية.

- ماذا تفعل؟ هذا الذي أمامك مسرح جريمة، هل أنستك إجازتك المرضية كيف نقوم بعملنا؟

- أولًا ليست إجازة مرضية، ثانيًا أريد الدخول يا «درويش»، لدقائق فحسب.

- وهل تظنها ملاهي أو سينما لأصطحبك معي؟ هل نسيت يا جناب العصور الجنائي أنه لا يحق لأحد دخول مسرح الجريمة سوى الأشخاص المصرح لهم؟

- أريد معروفًا من صديق، ليس أكثر.

- ومنذ متى أجاملك أو تجاملني في العمل؟

وقفا بالخارج يتجادلان بحدة، كانت السماء قد تمكنت من إحكام قبضتها، فبات ما تسقطه فوق رأسيهما ليس أكثر من رذاذ خفيف، تطيره الرياح وتلقيه في فاهيهما في أثناء الحديث:

- هل ترى هذا وقتًا مناسبًا يا «هود»؟ ثمة امرأة مقتولة بالداخل.

- ولهذا السبب تحديدًا أريد الدخول، «درويش» أحتاج حقًّا إلى الاطلاع على تفاصيل هذه الجريمة.

- قل لي سببًا واحدًا مقنعًا لذلك. هل نسيت الانهيار العصبي الذي أصابك في آخر مسرح جريمة صورته؟ ثم لماذا تثير فضولك هذه الحادثة بالذات؟

التقط «هود» أنفاسه بينما بخار الماء يتصاعد من فمه في أثناء حديثه المتسارع:

- ألا ترى هذا غريبًا، أن أشهد ليلتين جريمة طعن امرأة بالصدر من نافذة غرفتي، ثم تحدث جريمة مماثلة يفصلني عنها شارعان فحسب؟

- ما علاقة هذه الجريمة بأوهامك يا «هود»؟ الجثة التي بالداخل حقيقية، الدماء حقيقية، والطفل الذي فقد جدته الليلة دموعه وصرخاته حقيقية، بينما جريمتك المتخيلة لا دماء فيها ولا جاني ولا ضحية.

- جدته؟ هل الضحية كبيرة في العمر؟

- نعم، في الخامسة والستين.

- من يرغب في قتل عجوز في العقد السابع؟

- ما زلت أعمل على القضية كما ترى، إن كنت انتهيت من استجوابي عد إلى عشك.

- ألا تستطيع تقديم هذا المعروف لصديق؟

- لأنك صديق لا أستطيع أن أسمح لك بذلك بينما أنت في هذه الحالة الذهنية المتردية.

وقف السيد هود يتلمظ غيظًا، يحاول كبحه لئلا يثير غضب «درويش» أكثر، يسأله بنبرة هادئة لكن محتدة:

- إذن أخبرني على الأقل، ما طبيعة الجريمة؟

- جريمة بسيطة رغم بشاعتها، زوج أراد التخلص من زوجته لخلافات بينهما، وجهز قبل الإقدام على ذلك حجة غياب قابلة للتشكيك، أو في أحسن الأحوال شجار بين زوجين أفضى إلى الموت.

- وكيف قتلها؟ إذا كان الزوج يماثلها في العمر أو يكبرها قليلاً فربما لا يمتلك من القوة البدنية ما يكفي للإجهاز عليها باستخدام سكين، ألم تحاول الضحية الدفاع عن نفسها؟

- تراودني شكوك أخرى بشأن وسيلة القتل لكنني لن أشاركها معك يا «هود»، كما أن الرجل رياضي والمرأة ضعيفة هزيلة الجسد، يستطيع التغلب عليها بسهولة.

- هل أنت متأكد من كونها مجرد جريمة عنف منزلي؟

- متأكد إن لم أكن في نظرك بائع بطاطا.

- والطفل، حفيدهما، أين هو الآن؟

- عند الجار الذي قدم البلاغ، الذي يسكن في نهاية هذا الشارع. هل انتهيت من استجوابك؟ عد إلى عشك واتركني أقوم بعملي.

- حسنًا يا «درويش»، لن أعيقك أكثر. و... أنا حقًّا اعتذر.

حمل حقيبته ثم تولى منصرفًا في خطوات متسارعة.

وقف «درويش» يفكر فيما تلفظ به قبل قليل، هل يؤمن حقًّا أنها مجرد جريمة قتل معتادة؟

تفكيره مشوش، وخواطره مضطربة، بلا سبب واضح أو تفسير منطقي، ربما حسه البوليسي أنبأه بأن ثمة شيئًا غريبًا يدور هنا، لكنه فقط يلفلف بقايا مادة تؤكد حدسه.

- «درويش» بك، حضر الطبيب الشرعي

أومأ له «عمرو» برأسه، ثم مضى خلفه بهمة، عليه أن يكتشف ملابسات ما حدث الليلة، ويفقأ عين الفضول الذي حشر.

***

لم تضف مناظرة الطبيب الشرعي لظاهر الجثمان معلومة تفوق ما توصل إليه بنفسه.

رغم ذلك أنصت بعناية إلى حديث الطبيب الذي وقف منتهيًا من الفحص الظاهري، يخلع قفازه الطبي ويدسه في جيبه، ثم يتطلع إلى ساعته وهو يتمتم:

- الوقت المُقدَّر للوفاة قبل ساعة تقريبًا، لا جروح ظاهرية باستثناء ثلاث طعنات سطحية في الصدر غالبًا حدثت باستخدام الخنجر الخشبي المدسوس في فمها، وجروح منتظمة فوق جبينها غالبًا حدثت بأداة معدنية، لكن أيًّا من هذه الجروح لا تؤدي إلى الوفاة حتمًا، فضلاً عن أن جميعها حدثت بعد الوفاة.

- كيف نزفت الضحية كل هذه الدماء إذن؟

تساءل «درويش» بفضول مقاطعًا استرسال الطبيب الذي استوقفه السؤال للحظات، رفع كتفيه ثم أردف بحيرة بالغة:

- لا يمكنني أن أجزم بشيء قبل التشريح، لكني أستطيع أن أؤكد أن المرأة المسكينة بوغتت بقاتلها، لا أثر لجروح دفاعية على جسدها، هذه المرأة لم تقاوم المجرم.

- أعرف كل ذلك، أعطني ما يفيد يا دكتور.

- كما قلتُ يا سيادة النقيب، ليس عندي المزيد لأمنحه لك قبل تشريح

الجثمان.

جثا مرة أخرى، ثم أشار إلى «درويش» ليفعل بالمثل، تلاقت أعين الرجلين عند فم الضحية، تحديدًا فوق مقبض الخنجر الخشبي، تمتم الخبير مشيرًا إلى شيء غاب عن عين «درويش» في أثناء فحصه:

- ثمة كلمات محفورة فوق نصل الخنجر الخشبي؟ ألا ترى ذلك؟

ارتدى الطبيب قفازًا جديدًا، أمسك بمقبض الخنجر ينزعه ببطء من فم الضحية.

تأهب الجميع في فضول، تحدوهم اللهفة لقراءة ما حُفر بدقة فوق نصل الخنجر، سبقت عين «درويش» عيون الجميع وتمكن من قراءة المكتوب بصوت مسموع:

- «كان يا ما كان في كل مكان، ظلال تُراقب وعيون لا تنام»!

علت الدهشة وجهه، وتصورت الرهبة عقله، لماذا يكتب القاتل هذه العبارة التي بلا معنى؟

كأنها مطلع حدوتة!

بينما تأمل الكلمات منجذبًا ومشدوهًا، ترددت أصداء سؤال السيد هود الاستنكاري في أذنه:

من يرغب في قتل عجوز في العقد السابع من عمرها؟

(6)

ساري الليل

طرق الباب ثلاث مرات بخفة، استقبلته امرأة ترمقه بنظرات جزعة، فعاجلها مطمئنًا بسرعة:

- مساء الخير، أو صباح الخير بما أننا على أعتاب الفجر. احم، أنا «السيد هود» مصور جنائي تابع لمديرية أمن دمياط، أعتذر عن إزعاجك في هذا الوقت المتأخر، عرفتُ أن زوجك هو الذي عثر على الجثة وقدم البلاغ.

لم يكن من الصعب العثور على بيت الشاهد، إذ كان الوحيد على طول الشارع الذي كانت شرفته مضاءة، وإحدى نوافذه مشرعة.

- زوجي في القسم، أخذوه ليدلي بأقواله، يمكنك رؤيته هناك، قلت إنك مصور، تعمل مع الشرطة يعني؟

أخرج إثبات الشخصية عارضًا إياه أمام وجهها مجيبًا:

- نعم، أعمل مع الشرطة، أنا في الحقيقة لا أرغب في لقاء زوجك، أنا هنا لأجل الطفل.

- لا أعرف إن كان المسكين سيرغب في التحدث مع أحد، لم يتوقف عن البكاء، صرخ إلى أن بُحَّ صوته، فسكت تعبًا.

- هل يمكنني رؤيته؟

فوق الأريكة تقوقع الصغير على نفسه، بدا صغيرًا جدًّا وهو يغوص بجسده في المقعد الوثير، يعانق ساقيه بذراعين مرتجفتين، تنسكب من عينيه نظرات خوف ورهبة.

اقترب السيد هود منه رويدًا، وتحدث إليه متلطفًا ومحتويًا.

لم يرفع الصغير في وجهه عينًا، حرك جسده بوتيرة منتظمة إلى الأمام والخلف، كأن عقله انفصل عن الواقع سابحًا في مداره الخاص.

- اسمع، «السيد هود»، يمكنك مناداتي بعمو «هود»، أتيت لأطمئن عليك وأنت ما اسمك؟

لم تتبد نظرة الذهول في عين الصبي، فنثر السيد هود ملحًا على الجرح:

- أعرف أن ما مررت به بشع للغاية، أنا راغب في مساعدتك، أخبرني اسمك، وليد؟ كريم؟ مازن؟ ليس أيًا منهم؟ حسنًا، لا تخبرني إذا كنت ترغب في ذلك.

- «تميم».

تفهوت زوجة المبلغ بالاسم، فرمقها السيد هود شزرًا في غيظ، ثم أردف موليًا الصغير جل اهتمامه:

- أريد فقط أن أعرف ما حدث؟ هل كنت مستيقظًا؟ هل رأيت الشرير الذي آذى جدتك؟

راقبتهما المرأة من مقربة، تنقل بصرها بينه وبين الصغير بتوجس، أخبرت السيد هود أن الوقت غير مناسب لهذا الحديث فاستدار صوبها هامسًا في جفاء:

- ذاكرته طازجة الآن، بمرور الوقت سيتشوش إدراكه وتتلاشى التفاصيل، المعلومات التي نتحصل عليها بعد الواقعة مباشرة تكون في غاية الأهمية.

اقترب السيد هود أكثر، تجرأ على الجلوس بجوار الصبي، تلطف، وقبضت يد الإشفاق على قلبه واعتصرت.

لوح الغضب بخاطره عندما همست المرأة بنبرة الحكيم العارف:

- الأطفال قادرون على امتصاص الصدمات بسهولة، سيصبح بخير قريبًا.

نمت بداخله رغبة جامحة في أن يهشم وجهها، الأطفال لا يمتصون الصدمات، بل يغرقون فيها إلى أخمص أقدامهم الصغيرة، إذا لم تمتد لهم يد خبيرة، تنتشلهم من وحل العتمة.

للتجارب المتكررة الصادمة قدرة على احداث تحولات بنيوية في المخ، وخاصة في فترات نمو أدمغة الصغار وتشكيل عواطفهم وإدراكهم، تترك التجارب الضاغطة بصمات غائرة في أدمغتهم، يمتد أثرها في سلوكهم طوال العمر.

للمخ ستة وثمانون مليار خلية عصبية، ويستطيع السيد هود في هذه اللحظة أن يرى بعين الخيال هذا العدد الهائل من الخلايا وهو يتخبط في حالة ذعر، داخل رأس الصبي الذاهل.

ما إن لامست يد السيد هود ذراع الصبي حتى انتفض، وقفز من فوق الأريكة فزعًا، وبصوت مبحوح أصدر أنينًا متصلاً يمزق نياط القلوب، مثل حيوان

مذبوح.

اقتربت المرأة من الصبي محاولة تهدئته، ولما فشلت صبت نقمها على السيد هود:

- أخبرتك أن الطفل المسكين غير مستعد للتحدث عما مر به، من فضلك اخرج.

امتثل السيد هود وجر خلفه أذيال الخيبة.

جال في الشوارع هائمًا، ثم ساقه التعب إلى عشته ما إن شق النهار عباءة الليل ممزقًا.

***

كرجل شب على الخوف من أشياء سخيفة مثل اللون الأصفر، أخبره حدسه أنه سيمر بليلة عصيبة.

احتل الصغير مساحة لا بأس بها من تفكيره، ثم توارى في المؤخرة، وبرزت أمام ذهنه المعضلة الأساسية، امرأة قُتلت أمامه مرتين، بطعنات ثلاث من خنجر بطول 6 إنش تقريبًا، ولا شاهد سواه على تلك الجريمة النكراء.

امرأة تبدو للجميع كالأحياء، إلا أنها ليست كذلك، في نظره على الأقل، إذ أنها امرأة مُعذَّبة.

نرجع لحظات لقائهما القصيرة، تلحف ببطانية من الصوف، مقعد خشبي أمام نافذة غرفة النوم.

لطمت الريح الباردة وجهه، ونثرت رذاذ المطر في عينيه، لم يحد النظر عن النافذة المغلقة أمامه، ولم يتوقف عقله عن محاولة إيجاد وسيلة ناجعة يستحيل معها المجهول معلومًا، والخيال المراوغ حقيقة مثبتة.

تجاهل الألم الذي اعتصر أحشاءه، وباعد ما بين أضلعه، تسارع على إثره النبض والنفس، ألم رهيب أحدثه الغضب الذي تشارك وإياه جسدًا واحدًا، وبات معه فوق الفراش نفسه.

غضب طازج لا يعرف منشأه، يجدد نفسه باستمرار مثل خلية أميبية، دون الحاجة إلى عوامل خارجية.

لا يعرف لماذا هو غاضب هكذا على الدوام؟ ولا ممن؟

أقل حدث في حياته من شأنه أن يحوله إلى كرة من نار، وأقل هفوة يرتكبها زميل له في العمل، أو غريب يشاطره المقعد المجاور في الأتوبيس، أو حتى عابر يمر به مصادفة في الطريق، من شأن تلك الهفوات الصغيرة أن تستجلب غضبه عدة أيام لاحقة.

كأن قدرته على تحمل الناس وصلت إلى درجاتها القصوى، أما غضبه من نفسه فهو مثل الجمرة التي تجد على الدوام، لا تهدأ أبدًا، لا تفتر أبدًا.

السيد هود والغضب الذي بلا ملامح، لا يلتقيان في ليلة إلا وحل بينهما الأرق زائرًا غير مرحب به.

ضاق نفسه أكثر، كرد فعل فسيولوجي تجاه الغضب الذي خلع عنه عباءته، وتربع عاريًا فوق رأسه، دس أياديه التي تنتهي بخطافات مدببة داخل عقله، وشحذ فيه الخيال ليصنع أقنعة مرعبة لكل ما حوله.

«ساري»!

تردد اسمها داخل رأسه بوتيرة متصاعدة، تخترق أصداء أحرفها ساحات وممرات بداخله، لم يمر بها اسم امرأة من قبل.

«ساري الليل» يُطلق على المسافر في أثناء الليل، و«السحاب الساري» هي التي تتحرك في السماء ليلًا.

وكانت هي تجمع بين المعنيين في فقرة واحدة: مسافرة تتحرك في السماء ليلًا، سحابة لا جذور لها، ولا وجهة محددة، هائمة في ملكوت الظلام، مثل شمعة تطفو فوق سطح العتمة.

لم يكن السيد هود شاعريًا بطبعه، يعرف نفسه كرجل عملي يُسيّره المنطق، لا يؤمن بالمشاعر الثائرة المتطفلة على القلب من غير موعد أو استئذان.

يؤمن أن الانجذاب ما هو إلا تفاعل كيميائي يحدث داخل الجسد، وجذوة مبررة إذا التقى غريبان.

فما به يشعر باضطراب غير مفهوم، ومشاعر غريبة تتسلل من فوق أسواره المحصنة؟

مشاعر أخرى غير الغضب الذي يلازمه.

أغلق النافذة، بعنف يسري صداه بطول الشارع الخالي من المارة، أجبره الغضب على أن يتزحزح قليلًا فوق الفراش، ويترك له فسحة تسع جسده

المنهك، وأفكاره غير المشذبة.

حل الصباح سريعًا، أو حاول إقناع نفسه بأنه حل سريعًا، نهض من الفراش كمن استيقظ باكرًا، تظاهر بأن كل شيء في موضعه، وتجاهل الغضب الذي نهض بدوره وتبعه إلى الحمام.

مد يده قبله إلى مياه الصنبور التي تتساقط داخل المغسلة، غسل وجهًا بلا ملامح، ثم جلس فوق كتفي السيد هود في أثناء خروجه من العشة.

لم يملك برنامجًا محددًا لتمضية الأسبوعين، فتوجه إلى شاطئ البحر، واستغرق وقته جمع الأصداف المتناثرة، راقب الموج الثائر من كثب، وغسل الغضب بمياه البحر المالحة، علها تذيبه وتبتلعه إلى الأبد.

التقط الصور، الكثير الكثير من الصور، إلى أن أضاء زر بالكاميرا مشيرًا إلى امتلاء الذاكرة.

لا يحمل في جيبه ذاكرة إضافية، ولم يأتِ بحقيبته، زفر بقوة حانقًا، نثر الأصداف فوق الرمال الصفراء، ثم قفل إلى العشة عائدًا.

تعمد لملمة نظراته عن العشة المقابلة، كأنها غير موجودة على الخارطة، صعد الدرجات القليلة المؤدية إلى الشرفة الخاصة به، بخطوات ملولة متباطئة، يأمل في وجبة سمك طازجة يطلبها بالهاتف من مطعم «نوارة الساحل».

وفجأة تجمد في موضعه!

رآها هناك، في شرفته، جالسة فوق المقعد، بأسنانها تقرض أظفار يمناها، تجمع شعرها إلى جهة واحدة فتبلغ أطرافه خصرها، ترمق البلاط الأبيض المرقع بالأسود بقوة كأنها تستنطقه.

«ساري»!

تتردد أصداء اسمها بداخله، يتلفت بسرعة حوله يتأكد من غياب العاصفة.

تقف ببطء أمامه كخصم في مبارزة ودية، يفوز فيها من يقبض على الصمت وقتًا أطول، ويخسر من ينطق أولًا.

إنها هنا، عنده، أتته طواعية، تنحت من الصمت قصة، ترويها له في تسعين ثانية.

كانت تلك هي المدة التي انقضت قبل أن ترتبك وتتطلع إلى سيارة زوجها التي لاحت من مبعدة.

هرولت مسرعة تغادر الشرفة، وقد حُسمت الجولة الأولى بينهما بلا فائز ولا منهزم.

لبد السيد هود في مكانه، يسترجع تلك الثواني التسعين مرات لا حصر لها.

لماذا حضر زوجها في تلك اللحظة بالذات؟ اعتصر الغضب أحشاءه بأكثر مما فعل الليلة الماضية.

فيمَ جاءت، وفيمَ رحلت، وبماذا أرادت أن تخبره؟

ما الكلمة التي تلعثمت فوق لسانها، ترفض أن تفلتها، ولا تقوى على الاحتفاظ بها؟

تقافزت الأسئلة داخل وعاء رأسه كالفشار، تساقط على ما حوله، فتهيأ له أن المقعد يتشكل كعلامة استفهام بلا أجوبة، والنافذة تتجمع أضلاعها مكونة علامة تعجب مائلة، ومن حوله تتناثر «متى»، و«كيف»، و«أين»، و«لمَ»، وكل أدوات الاستفهام الممكنة.

حل المساء، فدق جسده فوق المقعد الخشبي أمام النافذة بمسامير الإصرار، دقت ساعة الحائط معلنة بلوغ الوقت إلى ما بعد انتصاف الليل، فرفع الكاميرا بيديه المتجمدتين بردًا وحماسة.

انتظر. وانتظر. وانتظر.

بعد قليل أو كثير، سيقتحم ظل الرجل والمرأة إطار النافذة، سيطوق عنقها، ثم يرفع خنجره ليطعنها ثلاثًا في صدرها.

وفي اللحظة الحاسمة سيلتقط السيد هود أكبر عدد ممكن من الصور، بل وفيديو كذلك.

ليس واهمًا كما يدعي «درويش»، بعد قليل سيصبح لديه دليل حاسم، أن الجريمة حدثت في الواقع لا في رأسه.

تدفق الأدرينالين في عروقه عندما رأى ظل المرأة يدنو من النافذة، شرع على الفور في التقاط الصور للقبض على دليل لا يقبل الشك أو التأويل.

أنبأه حدسه أن ثمة شيئًا مختلفًا في المشهد هذه المرة، وضعية جسد ربما أو حركة في غير موضعها.

وقبل أن يحدد نوع الاختلاف وعلّته، انفتحت أمامه الستارة.

وجد نفسه ينظر من خلال عدسة الكاميرا إلى عيني «ساري» مباشرة، ترمقه من نافذة غرفة نومها، غير ساخطة، ولا متعجبة، تمرر له تلك النظرات التي تشعره أن ثمة كلمة غير منطوقة تجاهد لتتجسد فوق شفتيها.

وضع عدسة الكاميرا أمام عينه وكبّر الصورة لأقصى درجة ممكنة، أطّر شفتيها داخل قطر العدسة، وتأمّل أن تخبره بما استعصى عليها الإفصاح عنه في الشرفة.

انتظر. وانتظر. وانتظر.

وأخيرًا كوفئ على صبره، تشكلت الكلمة فوق شفتي «ساري» ببطء وإصرار، معلنة هزيمتها أمام مارد الصمت الجبار:

- ساعدني!

(7)

دماء مجهولة

أعاد «درويش» قراءة المحضر الذي ضم أقوال الجار والزوج، للمرة الثالثة خلال ساعتين، استهلك خلالهما نصف علبة سجائر، وثلاثة فناجين من القهوة المُرّة.

- قضية منتهية.

وجه حديثه إلي معاون المباحث «عمرو»، الذي اجتمع به في مكتبه وأبدى اهتمامًا ملحوظًا بالقضية. أردف «درويش» وهو يشعل سيجارًا جديدًا:

- حادثة عنف منزلي أفضت إلى الموت، أو ربما جريمة قتل مع سبق الإصرار، التحريات المبدئية للمباحث كشفت عن خلافات مستمرة بين الزوجين «سنية محفوظ» و«محسن سرحان» على ملكية المطعم، حتى إنها وصلت إلى الطلاق قبل سنوات، ثم تصالحا واستكملا حياتهما الزوجية بعدما ماتت ابنتهما وزوجها في حادث تصادم واضطرا إلى احتضان حفيدهما الوحيد، نحاول الآن العثور على شاهد يفيد بأن الزوج غادر اجتماع العاملين في المطعم في وقت ارتكاب الجريمة، وربما لا نحتاج إلى شاهد بعدما تأتينا نتائج تفريغ الكاميرات في المطعم والمحال المجاورة، تشاجرا معًا وفي لحظة ساقه فيها شيطانه حدث ما حدث.

تحدث كما لو أنه يوضح استنتاجه الخاص، اغتم «عمرو» بهذا وضاق صدره، ورغم أنه أول من صرّح بتلك الفرضية، فإن الشك أمسك بتلابيب عقله إذ قال:

- احم، لكن يا «درويش» بك سبق وقلتَ سيادتك إن وجود أداة جريمة زائفة متمثلة في خنجر خشبي مدسوس في فم الضحية أمر غير مألوف في جرائم الشغف، والعبارة المحفورة عليه التي لم نقف لها على معنى تعد شيئًا غير منطقيًا، ثم هناك تلك الجروح الدقيقة في جبينها التي حدثت بعد الوفاة، كلها أمور مريبة، لماذا يتكبد الزوج كل هذا العناء لإعداد مسرح جريمة بهذا الشكل؟ وأين أخفى السلاح الحقيقي؟ وكيف نزفت الضحية كل هذا القدر من الدماء؟

زفر «درويش» الدخان بقوة مشكلًا سحابة بيضاء أحالت بينه وبين وجه «عمرو»، فاختفى لبرهة عن ناظريه، ثم قال موضحًا بنبرة حاسمة ممزوجة

بشيء من الاستهزاء:

- يبدو أنك لم تسمع أيًّا مما قلته في بداية دخولك يا «عمرو»، ستتعب كثيرًا في مهنتنا هذه إن لم تملك ذهنًا متيقظًا.

احمرت أذنا «عمرو» وتمتم بكلمات غير مفهومة، بينما «درويش» يستطرد بحزم، مشتجراً أصابع يديه فوق المكتب، كأنه يُدرب طفلًا صغيرًا على لعبة لا يجيدها:

- الزوج هاوٍ لأفلام الجريمة، جهازه اللوحي كان من ضمن الأحراز، بعد الفحص تبيَّن أنه ممتلئ بعدد لا حصر له من الوثائقيات حول قضايا مشهورة عالميًا، التي عجزت الشرطة عن حلها، يبدو أنه حاول إبعاد نفسه عن الشبهات بتلك الطريقة المخادعة، عن طريق دس تفاصيل لا علاقة لها بالجريمة، مثل الخنجر الخشبي المحفور عليه عبارة سخيفة، والجروح القطعية في جبين الضحية، وثلاث طعنات سطحية في صدرها، ليأتي هاوٍ مثله ويتساءل عن أداة الجريمة الزائفة وعن سبب تكبد المجرم لكل هذا العناء، وبالتالي يستبعده من قائمة المشتبه فيهم.

تضاعف احمرار أذني «عمرو» حرجًا، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يتساءل:

- وأين أخفى سلاح الجريمة سيادتك؟

- ألم أقل إن عليك أن تكون أكثر يقظة؟ أفاد تقرير الطبيب الشرعي أن جسد الضحية صُفِّي من الدماء، الزوج لم يكن بحاجة إلى سلاح كبير، فقط إبرة سحب الدم من الوريد، يفرغ بها دماء زوجته ويريقها من

حولها كما رأينا في أثناء المناظرة، وهذه الأداة من السهل إخفاؤها بإلقائها في أي مكان في أثناء عودته إلى المطعم، عامة كلفتُ دورية أمنية بالبحث عنها.

قال ذلك وهو يُلقي بصورة أمام «عمرو»، التقطها هذا الأخير بين أنامله ودقق النظر، صورة مكبرة لعنق الضحية على طاولة التشريح، تَبين بشيء من التدقيق موضع الحقن، وآثار دماء متجلطة من حوله.

- وُرد في تقرير الطب الشرعي أن عملية سحب الدم حدثت بينما كانت الضحية لا تزال على قيد الحياة.

يا له من رجل سادي، لم يكتفِ بقتل زوجته، وإنما أفرغ جسدها الحي من الدماء، ثم رسم به لوحة مرعبة أمام ناظري حفيدهما الصغير.

وكأن «درويش» قرأ أفكاره إذ قال بوجوم:

- الطفل يعاني اضطراب ما بعد الصدمة ولم نتمكن من استجوابه بعد.

- سمعتُ أن المصور الجنائي زاره وحاول التحصل على معلومات منه لكنه فشل في ذلك.

- الطفل في حالة مزرية، والكارثة أننا لا نملك شاهدًا غيره.

شعر «عمرو» باعتلال معدته، أعاد الصورة إلى المكتب ونهض معتذرًا عن الوقت الذي اقتطعه من «درويش»، ثم حياه منصرفًا، وراضيًا بما حظي به من أجوبة.

وحده «درويش» كان منزعجًا، وتمثل هذا الانزعاج في محرقة السجائر التي أشعلها داخل مكتبه.

أعاد قراءة المحضر الذي يضم أقوال الزوج المتهم «محسن سرحان»، الذي تحفظ عليه في الحجز لحين عرضه على النيابة.

أنكر التهمة المنسوبة إليه، وأبدى تقززه واستهجانه من فكرة قتله لزوجته والتمثيل بجسدها، لكن المجرمين هكذا لا يقرون بخطاياهم، وإلا لما كان ثمة حاجة إلى ضباط أكفاء مثله يتتبعون الحقيقة في ساحات الكذب وحواري التلفيق.

تجاهل حدسه الذي أنبأه بأن ثمة شيئًا مريبًا، وأجرى اتصالًا هاتفيًا يستطلع فيه أمر الترقية الاستثنائية المرتقبة، فأتته البشارة العاجلة.

«انتهِ أولاً من ملف القضية التي تعمل عليها فإنها مصدر إزعاج في مدينة سياحية كرأس البر، ولنُبارك لك مرتين لا واحدة».

يُدرك «درويش» أنه بسنوات عمره التي هي على أعتاب الثلاثين، ما كان بإمكانه أن يحلم بالترقية إلى رتبة «رائد»، لولا حاجة القسم إليه، وإثباته لكفاءته على مدار أعوام خدمته، حتى اشتهر بأنه أسرع من يُنهي القضايا دون شائبة.

يثق أنه إذا استمر على هذا المنوال من الأداء الوظيفي المتميز وحصد التقديرات السنوية، فإنه خلال سنوات قلائل سيترأس وحدة مباحث قسم شرطة رأس البر، تحت إشراف إدارة البحث الجنائي بمديرية أمن دمياط.

اتسعت ابتسامة «درويش»، وأسند ظهره إلى مقعده يتطلع إلى ملف القضية مرة أخيرة، قبل أن يلقي به في أحد الأدراج.

فليأتِ التقرير النهائي للمعمل الجنائي، ليُتمم إجراءات القضية ويزج بالمتهم نحو مصيره المحتوم.

ويتلقى ما يستحق من إشادة وثناء.

***

وليمة مُعدة بعناية من سمك الدنيس والقاروص والبوري البحري في شرفة العشة التي يقيم فيها السيد هود، كانت كافية لإثارة شهية «درويش» وإسالة لعابه.

يشهد الكثيرون -وأولهم «درويش»- بمهارة السيد هود في الطبخ.

في البداية كان يخجل من الكشف عن مهاراته المطبخية، والإفصاح عن السعادة التي يشعر بها وهو واقف بين الأواني، يعد وصفات جديدة مبتكرة، بيد أنه مؤخرًا بات يشعر بالاعتزاز بتلك المهارة، إذ إن أشهر الطباخين حول العالم من بني جنسه.

- قالت لك «ساعدني»؟ مثيراً

يتحدث «درويش» بفم ممتلئ ببطارخ البوري البحري، مغموسة بسلطة الطحينة المُعدة بطريقة السيد هود الخاصة، التي يضيف إليها نصف ملعقة من السماق، لكن حتى «درويش» لا يعرف ذلك.

يأكل ويتمطَّق متلذذًا، فيثير صوت فمه حفيظة السيد هود، الذي يمضغ طعامه بفمٍ مُطبَقٍ.

- ألا تصدقني؟

- هل يبدو على وجهي أنني لا أصدقك؟

- وجهك لا ينطق بذلك، بل يبصقه.

أطلق «درويش» ضحكة مرحة كاد أن يختنق بها، لم يعتد الصديقان تبادل المجاملات والردود الكاذبة، لذا أبدى السيد هود شيئًا من التفهم، بيد أن هذا لم يمنع شعوره المتنامي بالانزعاج.

- قلت لي إنك صورتها، أين الصور؟

- بطاقة الذاكرة الغبية، امتلأت يوم أمس، ونسيتُ استبدالها.

كان بإمكانه الآن أن يلقي أمام «درويش» بالصور التي التقطها لـ «ساري» وهي ترسم بشفتيها الكلمة التي أطلقت سراحها أخيرًا من أسر الصمت: ساعدني!

لولا أنه ارتكب هذا الخطأ الفادح الذي لا يقع فيه مصور مبتدئ.

نسي استبدال بطاقة الذاكرة.

هوَّن على نفسه بأن انفراجة شفتيها في الصورة الصامتة، وحتى لقطة الفيديو ما كانا ليصبحا دليلًا حاسمًا، يقنع به نقيبًا في المباحث متشكك الطباع.

- ما هي ملابسات جريمة شارع 61؟

- لم تُقتَل المرأة طعنًا، أعلم أن هذا ما يشغل تفكيرك يا «هود».

- قلت من قبل...

- أدرك ما قلته، كان ذلك قبل مناظرة مسرح الجريمة وتشريح الجثمان، ودعني أخبرك قبل أن تسألني، القضية ما هي إلا رحلة زواج فاشل انتهت بكارثة، وهذا يذكرني برحلتك المريعة التي انتهت بطريقة سلمية إلى حد ما، صحيح أنك خسرت شقتك، لكنك على الأقل نجوت بحياتك.

- ولماذا لا تقول إنها هي التي نجت بحياتها؟

- «هود»، كلانا يعرف أنك غير قادر على أن تؤذي نملة تتمخطر فوق ذراعك وتقرصك.

تطلع السيد هود مليًّا إلى «درويش»، الذي انغمس كلية في التهام ظهر سمكة دنيس شواها على الفحم بالزيت والليمون، يتنامى شعور بداخله أن صديق عمره لا يعرفه حق المعرفة.

وهل يعرف أحدنا الآخر كما نعرف أنفسنا؟

ليس بإمكان إنسان على ظهر الأرض أن يعرف الآخر كما هو، كل ما نعرفه عن بعضنا هو نسخ من أنفسنا نتعمد إبرازها.

لا يعرف «درويش» مثلاً أن السيد هود في أعماق نفسه يشعر أنه قاتل بالفطرة، وذلك منذ قرأ لأول مرة عن نظرية «لومبروزو»، فهو يملك جبينًا منخفضًا، وأنفًا معقوفًا، وفكًّا بارزًا، وأذنين غير متطابقتين.

كثيرًا ما تراوده فكرة شيطانية، أنه -وبكل هذا الغضب الذي يلازمه- يومًا ما سيرتكب جريمته الأولى، جريمة كاملة دون أن يترك خلفه شاهدًا أو دليلاً.

يجهل «درويش» كذلك الكوابيس التي تؤرق منامات السيد هود كل ليلة، والضحايا الذين يزورونه ويطالبونه بالإنقاذ والمساعدة، والمحاكمات التي يعقدونها له والاتهامات التي يلقونها على عاتقه.

يجهل «درويش» أن السيد هود يعيش حياته مثقلاً بسر لا يتذكره!

شعور متخم بالذنب يجثم فوق صدره ويُشعره أنه مدنس غير قابل للتطهير، مجرم لم ترصده عين العدالة، وغفلت عنه أيادي القانون المتراخية.

- «هود»، فيمَ أنت شارد هكذا؟ آه، لا بد أن عقلك يرفرف بأجنحة الهيام حول تلك الفاتنة التي تزور عشتك خلسة من خلف ظهر زوجها عجل البحر، وتهمس لك من خلف ستارة غرفة نومها كي تنقذها من الأخطار التي تحيق بها. آه، يذكرني ذلك بحكاية كنت تحبها في طفولتك، ما اسمها. آه، «ست الحُسن والجمال والشاطر حسن».

كانت «ست الحُسن والشاطر حسن» من تلكن الحكايات المُلهمة التي تأسره.

ينخرط النجار الفقير «الشاطر حسن» في صناعة دولاب خشبي يختبئ فيه في أثناء نقله إلى بيت «ست الحسن» ذات الجمال والحسب، كي يحميها من مؤامرات وعداوات تتكالب عليها.

ويوافق على أن يبيت ليلة في قفص الأسد الجائع، ليثبت شجاعته ويفوز بحبيبته.

لطالما تساءل السيد هود في نفسه: لماذا لا أشعر أبدًا أنني بطل حكايتي؟ أأنني لم ألتقِ بعدُ ستَّ الحُسن، أم لكوني جبانًا رعديدًا لا أليق بدور البطولة المطلقة؟

بادره «درويش» موقظًا إياه من أحلام اليقظة:

- نسيت أن أخبرك.

قال ذلك ثم أشار برأسه صوب العشة المقابلة، مردفًا:

- هذا الحُلُّوف قدَّم فيك شكوى لتعديك على العشة التي يقيم فيها.

وكان هذا آخر ما يهتم به السيد هود، الرجل مجرم محتمل يضمر الشر لزوجته المسكينة، زوجته التي استنجدت به لينقذها من مصيرها المحتوم، مصيرها الذي رآه متجسدًا أمامه لليلتين متتاليتين وما زال يجهل الكيفية التي حدث بها ذلك.

عقولنا تخدعنا، والجريمة حدثت في رأسه، هذا ما يقوله «درويش» تعليقًا على ما وقع، بيدَ أن هذا ليس كافيًا لإقناع السيد هود بالتخلي عن المرأة التي رسمت له بشفتيها نداء استغاثة مُلِحًّا.

قطعت استرسال أفكاره رنة هاتف «درويش»، الذي تلكأ في مغادرة الطاولة ليغسل يديه، ثم يجيب على المتصل:

- أرجو أن يكون اتصالك بي في وقت الغداء مبررًا ولسبب وجيه يستحق أن أترك باقي سمكة الدنيس كي أجيب عليك يا «عمرو».

لم ينطق «درويش» بكلمة بعدها، راقبه السيد هود بعيني صقر ترصدان كل خلجة من خلجاته، وأمارات وجهه التي تتقلب بين مشاعر شتى، جبينه المتجعد، وحاجباه المتقاربان، وأنامله تمسح فوق شاربه الكث، ثم إنهاؤه للمكالمة بقوله:

- فهمتُ.

بادره السيد هود يقرضه الفضول:

- الأمر يتعلق بجريمة شارع 61، أليس كذلك؟ ماذا هناك؟ أخبرني.

- الدماء التي وجدناها في مسرح الجريمة حول المجني عليها.

- ماذا بشأنها؟

سكت «درويش» سكتة أطول من اللازم، كانت نظراته خلالها تائهة، يعتصر ذهنه محاولًا حل أحجية عصية على الأفهام.

قال بعد زفرة حائرة، وبنبرة حانقة:

- أثبت تحليل المعمل الجنائي أنها ليست دماء الضحية!

- ماذا تقصد بأنها ليست دماءها، دماء مَن إذن؟

- لا نعرف! إنها ليست مطابقة للزوج والحفيد كذلك. المشكلة أن كمية الدماء التي عثرنا عليها حول الجثة تفوق ما يمكن سحبه من جسد إنسان لا يزال على قيد الحياة.

- أتقصد أن ثمة ضحية ثانية مجهولة أفرغ المجرم جسدها من الدماء، ثم نقل هذه الدماء إلى مسرح جريمة الضحية الأولى «سنية محفوظ»؟

أثار هذا التحليل المنطقي هواجس «درويش» وألهب أعصابه، هذه القضية ليست بسيطة كما يحلو له أن يظن.

وليست تقليدية على الإطلاق.

(8)

قاتل الحزام

أمام نافذة مكتبه بالطابق الرابع بمديرية أمن دمياط، وقف اللواء «لطفي درويش» غارقًا في بحور التفكير، عاقدًا ذراعيه خلف ظهره، ومطرقًا قليلًا برأسه.

اللواء «لطفي درويش» الذي اقترن اسمه بالشرف والنزاهة طوال سنوات خدمته، وجد نفسه أمام اختبار قديم غير محسوم، سحب منه المراقب الورقة قبل أن يتم إجابته.

غابت عن مسمعه الضوضاء المنبعثة من جهاز اللاسلكي الموضوع فوق مكتبه، حتى إنه نسي فنجان القهوة إلى أن برد.

حملته ذاكرته على أجنحة الترحال، وقذفته في مكان غير المكان، وزمان غير الزمان، حيث النسخة الأصغر منه، عندما كان ضابطًا برتبة أقل، في مقتبل حياته المهنية، مفعمًا بالطموح والحماسة والشغف.

يسعى لترقية تلو الأخرى، ونيشان تلو الآخر، يلهث وراء كلمات الإشادة ورسائل التزكية.

أراد صعود سُلَّم الرُّتَب بقفزات واسعة، يؤمن أنه قادر عليها، ولائق بها.

ارتحل ذهنه في دفاتر الماضي، إلى أن حط رحاله فوق دفتر متهالك لفرط ما قرأه واستعاد ما بداخله.

طالعته تفاصيل قضية قديمة كانت وسامًا فوق صدره، ونال على إثرها ترقية استثنائية وتكريمًا مشرفًا.

كان ذلك في شتاء 1999م، حيث كانت رأس البر قبلة مصطافي الطبقة الوسطى، من أبناء المراكز والقرى والمحافظات المجاورة.

مدينة هادئة، تعد خيارًا مثاليًا لتمضية الإجازة الصيفية بعد انتهاء العام الدراسي الشاق.

يتذكر اللحظة التي تلقى فيها المأمورية عبر اللاسلكي، وقتها كان يركب «الطفطف» برفقة ابنه «أحمد»، يطوف بهما من شارع 9 الرئيسي وحتى منطقة اللسان.

كان قد اشترى له بالونة حمراء راقته، ووعده أن يؤجر له ساعتين على الدراجة ذات البدالات الإضافية.

يحدثه عن رجال الشرطة الشرفاء، وعظم الأمانة الملقاة على عاتقهم، يُحاول بكل الوسائل الممكنة أن يُحبب ابنه «أحمد» في الطريق المرسوم له سلفًا، ضابط ابن ضابط ابن ضابط.

وقبل أن يصل «الطفطف» بهما إلى محطته الأخيرة، تلقى بلاغًا بالعثور على امرأة قُتلت بثلاث طعنات في الصدر!

لم يسعفه الوقت لإعادة ابنه إلى البيت، فاصطحبه معه، أبقاه في عُهدة أحد أمناء الشرطة الذين قدموا لتطويق مسرح الجريمة، ومنع الفضوليين من تدنيسه وإفساد الأدلة.

يتذكر كيف كانت انقباضة صدره الأولى، وهو يتطلع إلى طفل صغير يبكي إلى جوار جسد الضحية، طفل يحمل من الأعوام سبعة، وربما ثمانية، هزيل الجسد، أشعث الشعر، مغطى بالدماء من رأسه إلى أخمص قدمه العارية، أفلت نفسه من بين يدي أمين الشرطة وهرول في اتجاه جسد أمه الميتة، الذي لا يزال دافئا.

ينادي بلوعة:

- أمي، استيقظي. أمي، أجيبيني أرجوك.

يقترب من الصغير الباكي، ويحمله قسرًا بين ذراعيه، يبعده عن المشهد المفجع، ويمسح بحنان أبوي فوق ظهره المنتفض.

- لا بأس يا صغيري، اهدأ.

لا يتوقف الصبي المفجوع في أمه عن نداداتها بنبرات موجعة، ومتوجعة.

يلاحظ أصابع الصغير المنقبضة منذ أن أبعده عن جسد أمه، يباعدها بلطف في البداية، ثم بشيء من الحزم والقوة، ليعثر على شعرة قصيرة ذات جذر في بطن راحته اليمنى.

- هل نزعت هذه عن رأس الجاني يا صغيري؟ هل هذه الشعرة تخص الرجل الشرير الذي أذى أمك؟

تتركز نظرات الصبي على الشعرة لعدة ثوانٍ، ثم يومئ برأسه إيجابًا في وهن.

يلتقط الشعرة بحماس، ثم يخرج من جيبه كيسًا ورقيًا، كان قد اشترى فيه لابنه الفشار، وعندما أنهاه لم يجد سلة قريبة فطوى الكيس ووضعه في جيبه.

وضع الشعرة بداخل الكيس، طواه بعناية عدة مرات، ثم دس الدليل في جيبه.

أوكل رعاية الطفل إلى شرطي قريب، ثم عاد ليفحص جثة المرأة الشابة وما حولها، باحثًا عن الآثار والأدلة.

لم يغب الصغير عن خاطره، وبخاصة بعدما عرف أنه يتيم الأب منذ مولده، مات أبوه الصياد في حادث انقلاب مركبه في عرض البحر أمام صخور اللسان، بينما كانت زوجته في شهور حملها الأولى، ولم يبقَ على قيد الحياة أحد من العائلة.

رغم كفاءته، لم يعثر في مسرح الجريمة على أدلة كافية، المرأة كانت ربة منزل في السابعة والعشرين، تعمل خياطة من بيتها، لا أعداء لها، ولا دوافع قوية لقتلها، ولا حتى واهنة.

وبينما كان يفكر في تلك الجريمة التي بدت من غير دافع، وفي أثناء انتقاله إلى القسم لسماع أقوال الشهود، تعرض لحادث صغير خاض على إثره مشاجرة، مع السائق القادم من الاتجاه المعاكس.

توقف إلى أن حُرّرت مخالفة للسائق، وما إن بلغ مركز الشرطة حتى فوجئ بفقدانه للكيس الورقي الذي احتفظ داخله بالشعرة!

بحث عنه في كل مكان دون جدوى،

لم يكن أحد قد رآه يجمع هذا الدليل من كف الصغير، فكتم الأمر مخافة المساءلة.

وبعد يومين، زار الصغير في دار الرعاية التي أُودع بها، نغزه قلبه عندما ركض إليه وتعلق بساقه، إذ كان وجهه هو الوحيد المألوف هنا.

انتزعت الحياة هذا الصغير فجأة من أحضان أمه التي يحبها، وألقت به وسط عشرات الأطفال ممن لا أهل لهم.

- ألا تتذكر يا بني الرجل الشرير الذي آذى أمك؟ شكله، اسمه، غريب أم قريب؟

يحاول استجوابه بلطف أبوي كي يستخلص منه معلومة تفيده في البحث عن قاتل أمه المهدور دمها، فلا يتحصل منه إلا على كلمات قليلة غير مترابطة.

حمى عقل الصغير نفسه بفقدان ذكريات الحادثة.

- لا أعرف، لا أتذكر.

أقسم يومها أن يقبض على المجرم الذي سلب هذا المسكين كل ما يملكه.

كفل الصغير بالمال والرعاية، ظل يزوره شهريًا في دار الأيتام التي استقر بها في النهاية، يتشاركان اللعب والأوقات الممتعة.

وفي يوم أتى إلى الصغير ببشارة عاجلة:

- قبضتُ على الرجل الشرير وأُلقيتُ به في السجن كما وعدتك يا بني.

اتسعت ابتسامة الصغير امتنانًا وعرفانًا، لم يدرك وقتها أهمية القبض على المجرم الذي سلبه أمه، ما دام القصاص عاجزًا عن إعادتها إليه.

كان مكمن سعادته في وفاء الرجل بالوعد الذي قطعه على نفسه.

سعد الجميع بغلق ملف تلك القضية المؤرقة، التي تراجعت على إثرها السياحة الداخلية برأس البر خوفًا من المجرم الطليق، ونال هو لأجلها ترقية.

لكن في عتمة الليل، عندما ينام الجميع، يقض الأرق مضجع اللواء «لطفي درويش»، ويسترجع في ذهنه تفاصيل تلك القضية.

لم يكن على قائمة المشتبه بهم إلا اسم واحد فحسب: «مبسوط القرداتي».

رجل خمسيني يطوف الشوارع بملابس مبهرجة، وبصحبته ثلاثة قرود نحيلة، ودُف وعصا طويلة، يطلق صفيرًا قصيرًا تتجمع على إثره القرود الثلاثة وتبدأ رقصتها المثيرة.

يقص على مسامع الأطفال حكايات جذابة التفاصيل، تُنسيهم الدنيا بأسرها.

يتجمهر الأطفال مهللين ومصفقين، ومستمتعين بالفقرة الباهرة، يتفاعلون مع القردة الثلاثة وهي تطوف عليهم بقبعة، يضع الأطفال فيها خمسة قروش أو عشرة، مقابل لمس القرود واللعب معها ومشاهدة رقصها.

لم يُعثر في مسرح الجريمة على أدلة تُشير إلى جناة محتملين، ولم تُفضِ تحريات المباحث عن مشتبه بهم يمكن الإشارة إليهم بأصابع الاتهام.

بيد أن قطعة من الزينة التي كانت تلتف حول وسط أحد القرود الثلاث في أثناء العروض، التي حرَّزها من مسرح الجريمة، اعتُبِرَت دليلاً كافيًا لإدانة **«مبسوط القرداتي»**.

بالإضافة إلى بصمة جزئية لإبهامه وُجدت على ملابس الطفل الصغير ابن المغدورة، الذي كان مغرمًا بالعروض التي تقدمها القرود بالقرب من بيته، ويتابعها بشغف.

انتهت القضية بإدانة «القرداتي» والحكم عليه بأقصى عقوبة ممكنة، لماذا إذن لا يزال ضمير اللواء «لطفي درويش» يُعيده إلى تلك القضية القديمة ويؤرّق أيامه ولياليه؟

ربما من أجل الشعرة!

هذا الدليل الذي فقده بإهمال، ولم يُستغل كما ينبغي.

بعد ستة أشهر من غلق القضية والبتِّ فيها، وفي أثناء فحص سيارته عند الميكانيكي تمهيدًا لبيعها واستبدال طراز أحدث بها، حينئذ ظهر أسفل مقعد السائق الكيس الورقي مطويًا بالطريقة التي طواه بها أول مرة، فتحه بلهفة وعجالة ليعثر على الشعرة كما تركها.

لم تُفحص قط الشعرة التي وجدها اللواء «لطفي درويش» في كف الصغير، لم تقارن قط بالحمض النووي لـ «مبسوط القرداتي».

وطوال هذه السنوات ظلت تلك المسألة تؤرقه، حاول غير مرة أن يسعى لفتح ملف القضية من جديد وإجراء تحليل

فكر مرة أن يزور «مبسوط القرداتي» في محبسه، وفي اللحظة الأخيرة تراجع عن الفكرة، ولم تطرق ذهنه بعدها.

وها هو الآن يفتح الخزانة الصغيرة الرابضة في زاوية مكتبه، يخرج كيس الأدلة الشفاف، ويتأمل الشعرة التي قاومت أنياب الزمن، وظلت صامدة، وشاهدة.

صوت طرقات على الباب قطع استرسال اللواء «لطفي درويش» في أفكاره، أعاد كيس الأدلة بسرعة إلى الخزانة، وأغلق دفتر الذكريات المهترئ.

التفت يعامد قبضتيه خلف ظهره، يتطلع إلى ابنه النقيب «أحمد درويش» الذي تقدم وألقى تحية رسمية فاترة، ثم بادره بسؤال تفوح منه رائحة القلق:

- خير يا سيادة اللواء؟ أتيتُ بمجرد أن تلقيتُ رسالتك. هل الأمر يتعلق بترقيتي الوشيكة؟

انعقد حاجبا «درويش الكبير» غضبًا، وتبدت فوق قسماته أمارات السخط.

انحنى فوق مكتبه، أخرج من أحد الأدراج صورة العجوز التي قُتلت قبل يومين في شارع 61، ملقيًا بها بعصبية على جانب المكتب المواجه لـ «درويش الصغير» كما يحب المقربون أن يدعوهما، تمييزًا لفارق العُمر والمقام والرُّتَبِ، ثم هدر كبحر لطمه إعصار:

- كيف غفلتَ يا حضرة النقيب عن هذه التفصيلة المهمة في القضية التي تعمل عليها؟

أمسك «درويش الصغير» بالصورة وقربها مدققًا في جسد **«سنية محفوظ»** المتسطحة فوق الأرض في بيتها، دون أن يقف على السبب الذي أغضب أباه إلى هذا الحد.

أردف «درويش الكبير» بحزم مباغت:

- انظر إلى حزام المجني عليها.

- ما به؟ مجرد حزام عادي يطوق خصرها.

- هل ترى أن ارتداء عجوز بلباس بيت تقليدي لهذا الحزام فاقع اللون هو أمر عادي؟ هل ترى أن تضييقه إلى هذا الحد كما لو كان يعتصر جسدها هو أمر عادي؟ دقق النظر في الحزام وقل لي بمَ يُذكّرك.

استلزمه الأمر ثلاثين ثانية، كي يدرك ما يشير إليه والده.

في لحظة إدراك متأخرة، طاف عقله بالدفتر نفسه الذي كان اللواء «لطفي درويش» يُقلب صفحاته قبل قليل، الدفتر الذي يحفظه كلمة كلمة لكثرة ما رأى أباه يطالعه.

تمتم ذاهلاً وهو يسترجع تفاصيل الجريمة القديمة التي سمع تفاصيلها مرارًا، ورأى لها عشرات الصور:

- أتصدق أن المجرم في هذه الجريمة يُقلّد قاتل الحزام؟

هكذا أطلقت صحافة التسعينيات على «مبسوط القرداتي»: قاتل الحزام. وذلك بسبب الحزام الغريب الذي كان يلتف حول خصر الضحية معتصرًا لها، ولا يتوافق مع ردائها المنزلي البسيط.

لم يفهم أحد قط السبب الذي دفع «مبسوط القرداتي» لقتل خياطة مسكينة ترملت ولديها ابن صغير، أو السبب الذي دفعه لتطويق خصرها بحزام لا يخصها.

ولعدة أشهر متعاقبة، توالت المقالات التي كانت تحاول وضع فرضيات دون انقطاع، ولم يكن أيٌّ منها مقنعًا بشكل كافٍ.

التقط اللواء «لطفي درويش» نفسًا عميقًا ثم قال:

- هذا محتمل، ربما كان يقلده.

- هل الحزام فحسب هو ما جعلك تفكر في ذلك؟

- الحزام نفسه، المدينة نفسها، وأيضًا التوقيت نفسه، كلتا الجريمتين وقعتا في الشتاء، ولا تنسَ أمر الطعنات الثلاث بالصدر.

- ألا تظن يا سادة اللواء أن هذه الفرضية بعيدة للغاية؟ متى حدثت القضية القديمة؟ في أواخر التسعينيات، أليس كذلك؟ لماذا يقرر أحدهم فجأةً أن يرتكب جريمة قتل مستخدمًا طريقة قديمة لمجرم مُدان؟ ماذا كان اسمه؟ لا أتذكره.

- «مبسوط القرداتي».

- آه «مبسوط القرداتي»، ألم تنتهِ القضية بإدانته وهو الآن يقبع خلف قضبان السجن؟ ظنونك في غير محلها يا سيادة اللواء، يمكنني أن أعدد لك عشرة اختلافات على الأقل بين القضيتين.

ولما سكت «درويش الكبير» ظن ابنه أنه يتراخى في رأيه، فأردف بحماس:

- مثلاً في الجريمة الحالية ثمة طعنات سطحية بخنجر خشبي زائف في صدر الضحية، أما في الجريمة القديمة فالطعنات حقيقية بخنجر حقيقي وكانت بالفعل سبب الوفاة كما أتذكر. هذا فضلاً عن العبارة الغريبة المنقوشة فوق الخنجر، لم يحدث هذا في القضية القديمة. عمر الضحيتين مختلف إحداهما شابة والأخرى عجوز. وظروفهما الاجتماعية كذلك مختلفة. والأهم من كل ذلك الدافع مختلف. في القضية القديمة كان «مبسوط القرداتي» رجلًا بعقله لوثة، غير متزن، يتعاطى الحشيش وربما ما هو أكثر، اقتحم عشة

المرأة بهدف السرقة ولما لم يعثر على شيء وخاف أن تفضحه قتلها، أما في الجريمة الحالية فالزوج رجل رياضي، يدير مطعمه الخاص، تلقى تعليمًا جيدًا، ولا يشرب حتى السجائر، فلماذا يقلد المجرم الحالي مجرمك السابق؟

ظن لوهلة أنه أفحمه، ولكم يحب أن يفحمه، دائمًا ما يدور صراع غير معلن بين «درويش الكبير» و«درويش الصغير»، لا يعترف الأول بكفاءة الأخير، يتتبع زلاته، متشفيًا في عثراته.

- حتى وإن كنتَ على حق يا سيادة اللواء، وكان القاتل بالفعل يقلد قاتلك القديم، فلا بُد أنه قرأ عن تلك القضية على الإنترنت أو شاهد لها إحدى الوثائقيات، الزوج المتهم كان يحتفظ بعشرات منها على حاسوبه وهاتفه المحمول، تلك التفصيلة المتعلقة بالحزام ليست مهمة كما أوحيتَ لي سيادتك، ليست مهمة على الإطلاق.

استند «درويش الكبير» براحتيه فوق المكتب، مال بجذعه، وألقى بعبارة واحدة هدمت جل ما بناه ابنه للتو:

- ثمة معلومة غير معلنة لا يعرفها سوى القاتل في القضية القديمة يا حضرة النقيب. لا أحد يعرف أن الحزام الذي طوق به القاتل خصر الضحية. كان أصفر اللون!

(9)

أصفر كعيون الموت

يجهل السيد هود منشأ هلعه من اللون الأصفر، لا تسعفه ذاكرته لتحديد بذرة الهلع الأولى، ولا ينابيع سُقياها، كأنه مرض خبيث وُلد به، وترعرع معه.

يجهل السيد هود منشأ هلعه من اللون الأصفر، بيد أنه يدرك أن ندبات الطفولة المندسة في أعماق روحه، لن تبرأ يومًا.

كيف لطفل شهد جريمة قتل أمه، أن ينسى، بل ويشفى؟ كان الشاهد الوحيد في ذلك النهار الغائم عام 1999م، شاهد لا يتذكر اللحظات المريرة التي سبقت قتل أمه، مُسحت من ذاكرته بممحاة الرحمة.

لا يتذكر وجه المجرم، ولا صفاته، ولا يده الممسكة بالخنجر وهي تسدد لصدر أمه طعنات ثلاثًا مميتة!

كل ما ترسب في ذاكرته الهشة من ذلك اليوم بضع صور متفرقة، صورة لبركة من الدماء الدافئة التي تتسع وتبلغ أطراف أصابع قدمه العارية.

صورة لوجه أمه الذاهل الذابل، بعد أن قبضت أنامل الموت على روحها.

صورة لنفسه في مرآة معلقة في منتصف الصالة، هلوعًا، مفجوعًا، مطوَّقًا بهالة من الذهول تكاد تطيش بعقله الصغير النامي.

ثم صورة ليد اللواء «لطفي درويش» وهي تنتشله من رحم الصدمة، وتُعيد ولادته من جديد، طفل خدج الشعور، مشوه الإدراك، متشائم كما يليق بطفل موتور العائلة.

يقاسي الكوابيس كل ليلة وحده في فراش غريب، يكره الاستيقاظ لئلا تهاجمه جيوش الخواطر المتطفلة، التي تدور كلها حول مشهد أمه المقتولة والعائمة فوق بركة من الدم.

عجز عن تذكر قاتلها، أو اللحظات التي سبقت قتلها، ظلت تلك الذكريات الضارية حبيسة عقله الباطن، سر مخبوء في ثنايا الذاكرة.

اضطراب النوم، الانفصال عن الواقع، القلق الشديد، لم ينجُ السيد هود من أعراض اضطراب ما بعد الصدمة.

لصدمات الطفولة أثر ممتد مثل صدع يتسع بالضربات المتتالية لمعول الزمن.

في روحه شروخ غائرة، شفافة، لا تدركها الأيادي الغريبة التي عاش في كنفها، ربما لهذا السبب شعر بالإشفاق على الطفل «تميم» الذي شهد مقتل جدته، وأراد رؤيته.

بل في الحقيقة أراد رؤية نفسه من خلاله، عندما قُتلت أمه كان في عمر يماثله تقريبًا.

في دار الأيتام التي أُودع فيها، كانت الغرف تعج بأطفال غيره، في أمس الحاجة إلى الرعاية، مثله.

لم يسئ أحد المربين معاملته، أو يغلظ عليه في غير موضع يستوجب التقويم، لكن الأيادي من حوله كانت باردة، فاترة، تعاني نقصًا حادًا في العاطفة.

ربما لهذا السبب تشكلت شخصيته منطوية، منعزلة، كأنه ينتمي إلى عالم آخر لا يعرفه.

- آه.

خرجت منه قوية غائرة، بداخله بركان آهات مكبوتة، لو ثار يومًا لطمر العالم من أوله لآخره.

أحيانًا تنسل منه إحدى الآهات بصوت هامس لينفض عن نفسه الشعور بالوحدة، وليفقأ عين الغضب الوسطى. للغضب ثلاث عيون في جبينه، وعين في منتصف بطنه، فوق سُرته، تمتص كل ما حولها، وكان أكثر ما يخشاه السيد هود هو الانزلاق في أحشاء الغضب، والتيه بداخله إلى الأبد.

وكان نهار اليوم غاضبًا، إذ استيقظ بعد ساعة قيلولة على كابوس متكرر.

طفل صغير حبيس قفص معروض في حديقة الحيوانات، تلتف الذئاب والنمور والأسود حول القفص وتنقض على القضبان محاولة كسرها، والفوز بوليمة من جسد الصغير الباكي.

حلم متكرر، باختلاف التفاصيل، وزاوية التصوير.

أحيانًا يشعر أنه الطفل المحبوس في القفص، وفي أكثر الأحايين يشعر أن المحبوس طفل آخر، منفصل عنه عاطفيًا، يشاهده من موقع الضواري، كما لو كان يتابع فيلمًا في شاشة عرض.

وفي بعض الكوابيس تترك الضواري الطفل، وتلتفت له هو، تنقض عليه، تنهشه، إلا أنه لا يموت، يشتهي الموت ولا يجده، وعند هذه النقطة ينتهي الكابوس، ويستيقظ بجسد مغمور بالعرق.

وذات ليلة عضضته فيها الأرق، حكى الكابوس في مجموعة على الإنترنت مخصصة لتأويل الأحلام، فسر له أحدهم الكابوس تفسيرًا لم يعجبه، نساه في الحال.

وعندما كان يعبر الطريق أمام مديرية أمن دمياط، صادف شحاذة ترتدي جلبابًا قذرًا، تسأل المارة كسرة خبز، وتدّعي تفسير الأحلام.

أنقدها عشرة جنيهات، جلس إلى جوارها وباح بمكنون كابوسه، فما كان منها إلا أن أطلقت صرخة شعثاء، وأمرته بالرحيل في الحال!

***

سمع صوت سيارة جاره الأستاذ «نسيم» تتوقف أمام العشة المقابلة، نسي كابوسه، وارتدى معطفه على عجالة، أطلق زفيرًا حارًا قبل أن ينطلق في محاولة لإقناعه بالصلح، وسحب البلاغ المقدم ضده، استجابة لنصيحة صديقه.

عندما طرق باب الأستاذ «نسيم» وانتظر بصبر نافد أن يفتح له، ما كان يتوقع أن يرى «ساري» بدلًا منه.

بدت عليها المفاجأة ممزوجة بالقلق، تتطلع حولها في توتر، تستطلع إن كان ثمة عين متلصصة.

يُجلي السيد هود صوته، ويقول بنبرة عالية، ما قصد أن تكون كذلك:

- أنا هنا لمقابلة الأستاذ «نسيم» من أجل مسألة عاجلة.

- على الشاطئ، لم يعد بعد.

- آه، سمعت صوت سيارة فظننتها له.

- لسنا المجانين الوحيدين الذين يزورون رأس البر في الشتاء.

أجابته بصوتها المفعم بالقلق، والمزخرف بالشك، أتحسبه يتحجج ليراها ويتحدث إليها؟ في الواقع لم تكن في ذلك مخطئة تمامًا.

لم يستدر عائدًا كما يليق به أن يفعل، ظل واقفًا أمامها، متفحصًا، ومدققًا في كل حركة وسكنة، ينتظر كلمة أخرى غير التي دارت بينهما أمس، عبر مسافة لا تقل عن خمسين مترًا.

ولما طال بها الاختباء داخل شرنقة الصمت، تجرأ هو على تمزيقها:

- هل تحتاجين إلى المساعدة؟

قالها بنبرة رجل مهتم، لا انتهازي ينتظر أن يغيب الراعي ليفسد عليه رعيته.

رجل مهتم تحدوه رغبة عارمة في إثبات أنه ليس واهمًا، هذه المرأة قُتلت مرتين، وينتظر منها اعترافًا صريحًا بذلك، وليذهب المنطق إلى أعماق الجحيم!

- يمكنك إخباري إن كنتِ في خطر، أستطيع مساعدتكِ، لكنني أحتاج منكِ أن تصارحيني بما يدور معكِ.

وعندما لم يجد ما قاله كافيًا لاستنطاقها، أردف بحماس:

- ثقي بي.

لم يطلب من قبل من امرأة أن تثق به، ربما لأنه لم يشعر يومًا أنه جدير بالثقة.

يرى نفسه في مرآة الذات رجلًا مجبولًا على الخذلان، خذل أمه وفشل في إنقاذها، لا يتذكر حتى ما حدث لها بينما لم يكن في البيت آنذاك سواهما.

يهز رأسه بقوة لينفض الصور الأليمة العالقة بتلافيفه، يطلق تنهيدة قصيرة ممتعضة، ثم يدور على عقبيه ببطء يزمع المغادرة.

- عند اللسان، بعد ساعة من الآن.

التفت بقوة متفاجئًا، هل تضرب له «ساري» موعدًا؟

قبل أن يتمكن من استيضاح عبارتها الغامضة، أغلقت بابها في وجهه، وتركته على أعتاب السؤال يتجرع كأس الحيرة وحده.

تهادى ببطء عائدًا إلى عشته، وقلبه ينتفض في صدره بقوة لم يعتدها، كمراهق لوحت له ابنة الجيران من خلف خصاص النافذة.

«عند اللسان، بعد ساعة من الآن». تتردد كلماتها داخل رأسه كموجة صوتية وجدت أمامها ألف عائق وعائق، فارتدت بعدد لا نهائي من الأصداء.

تتهادى الدقائق متباطئة، تغيظه وتعانده، ينطلق قبل الموعد المذكور إلى المكان المعلوم، يرتشف الانتظار على مهل، رغم أنه لم يكن يومًا من أرباب الصبر.

يذرع الرصيف مجيئًا وذهابًا في توتر ملحوظ، جذب أنظار عاشقين يجلسان فوق إحدى الصخور وأيديهما تحتضن بعضها.

لم يسبق للسيد هود أن اختبر شعورًا مماثلًا، لم يدق قلبه يومًا لامرأة، لم يختل بحبيبة أو يضرب لها موعدًا، وما يعظم توتره الآن أنه يشعر بنفسه كمراهق يتذوق صنفًا جديدًا من ألوان الشعور.

تتلاقح الأفكار في رأسه، مُسلسلة بجيش من علامات استفهام بمقاسات متباينة، بعضها كبير بحجم الأسئلة الوجودية مثل: لماذا خُلق ولأي هدف يعيش؟ وبعضها تافه مثل محاولة تخمين ما إذا كان العاشقان حديثي عهد بالوصال.

وقليل منها غريب، مثل ما إذا كان سيلاحظ أحد المارة انتحاره قفزًا من فوق صخور اللسان إذا ما قرر ذلك.

وفي خضم تلك الأفكار المتشظية، والأسئلة المتصارعة، نسي أن ينظر إلى ساعته.

طوقت رسغ السيد هود ساعة سوداء قديمة، كانت ملكًا لوالده الصياد الذي مات قبل ولادته، غرق خلف صخور هذا اللسان الذي يتكئ عليه الآن.

كانت الساعة من بين أغراض قليلة جمعها اللواء «لطفي درويش» من بيته وأودعها دار الأيتام.

عندما نظر إلى ساعة والده القديمة، اكتشف مرور ساعة على الموعد الذي ضربته له «ساري»، امتلأ صدره حنقًا على أولئك الذين لا يكنون الاحترام الكافي لمواعيدهم، رغم أنه لا يلتزم أبدًا بموعده.

- آسفة، تأخرتُ.

هكذا ترامى إليه صوتها، هامسًا من خلفه، في اللحظة التي كان يزمع فيها العودة إلى العشة وتناسي تلك الإهانة المتعمّدة، وما إن اكتشف أنها غير متعمّدة حتى سكن غضبه، وهدأت فورته.

- لا مشكلة، تفضلي.

أشار لها بالجلوس فوق السور المنخفض، ففعلت محتفظة بمسافة بينهما، لم يحاول تقليصها بينما يجاورها صامتًا.

ترك لها دفة الحديث تُحركها وقتما تشاء، ليس رجلًا مراعيًا بطبعه، بيد أنه حتى لو كان جاهلًا بقواعد اللياقة في التعامل مع الأنثى، فإنه يعرف أن عليه إعطاءها مساحة كافية، فيزيائيًا ونفسيًا، قبل أن يصوب سهمًا إلى هدفه.

لم يطل انتظاره، تحدثت بسرعة كأنها ترغب في سكب ما بجعبتها والرحيل في أسرع وقت ممكن.

- لا أعرف لماذا عليَّ أن أثق بك، أنا لا أثق عادة بالغرباء، لكن، أنا بحاجة إلى المساعدة، ولم أجد غيرك يهتم.

- قتلكِ زوجكِ مرتين، أليس كذلك؟ خنقكِ ثم طعنكِ بالخنجر.

اتسعت عيناها تتطلع إليه كمن ترقب مجنونًا هاربًا، أطبقت بأناملها الطويلة النحيلة فوق يد حقيبتها البيضاء الصغيرة، تقول بتوجس:

- أي جنون هذا، كيف تقتلني ولا أزال حية أمامك؟

هذا ما لا يستطيع تفسيره، كيف تبدو أمامه حية جدًا، بينما هي مقتولة جدًا؟

هل يسع الحياة والموت جسد واحد؟

في رأيه يسع، ألم يعش عمره كله بخمول الأموات ونقمة الأحياء مذ رأى أمه مقتولة في صالة البيت؟

لعله في تلكما الليلتين، لم ير «ساري» تُقتل من خلف الستارة، لعل المقتولة هي أمه، أعاد عقله اللاواعي تمثيل الجريمة في رأسه، حيلة خبيثة من عقله ليتذكر ما وقع ليلة الحادثة.

لما رأى القلق يساورها بشأنه، أوضح لها من غير مواربة، ملتفًا بجسده نحوها:

- هذا ما رأيته عبر نافذة غرفتي، لا أعرف كيف أفسر ذلك، رأيته يقتلك، شيء سيئ جدًا حدث معك، أو سيحدث.

- كيف تكون متأكدًا هكذا؟

- لأنني أعرف نفسي يا «ساري».

تلذذ بنطق اسمها، حتى إنه ترك بعده فسحة من الفراغ قبل أن يردف:

- أثق تمامًا بحواسي، حتى وإن كان ما رأيته مجرد جريمة متخيلة في رأسي، فحتما هناك سبب قوي لأراها بهذه الدقة وبهذا التكرار، أثق تمامًا أنك بحاجة إلى الإنقاذ، وكل ما أرجوه أن تمسكي بيدي التي أمدها نحوك.

هل اتسعت زاوية فمها مبتسمة؟ هذا ما خيل إليه لثانية، ملاحظًا تنفسها الذي بات أهدأ، وقبضتها التي تراخت فوق الحقيبة الصغيرة.

إلا أنها لا تزال ممزقة بين البوح والإخفاء، الصمت والإفشاء. لم يتركها تصارع التردد وحدها، إذ خاف انهزامها.

- أستطيع إنقاذك من زوجك، ثقي بي.

رمقته لثوان بتردد ثقيل، لزج لحوح متواطئ، تلفتت حولها تستوثق غياب الآذان الطافية فوق الموج، أو تلك المعلقة بين ذرات الهواء، تستوكد من انشغال العاشقين بأحاديثهما السرية، ثم تبوح للسيد هود بما استجلب دهشته وأثار زوابع حيرته:

- تلك هي المشكلة، «نسيم» ليس زوجي!

(10)

في حضرة الشر

لم يسألها أي نكهة مثلجات تُفضّل، ابتاع علبتين بالشوكولاتة وأعطاهما واحدة، لا يحب السيد هود الشوكولاتة، بيد أنه يعرف أن النساء يحببنها.

ثار الموج ونثر عليهما رذاذًا باردًا، ربما لفضول ألمَّ بالبحر لسماع حديثهما.

عندما أخبرته أن «نسيم» ليس زوجها، تتابعت على لسانه الأسئلة، كيف، ولِمَ، ومتى، وحتام؟

فأجابت بـ: «أنا بحاجة إلى التقاط أنفاسي».

فذهب ليبتاع المثلجات التي لطالما أحبها في الشتاء.

ترك لها دفة الحديث مرة أخرى، لم يثقل عليها لئلا يخيفها، فتهرب منه وتعود إلى قوقعة الصمت، مثل أي كائن رخو يسكن المحار ويحتمي به.

تحدثت دون دعوة، وبكلمات عجول تتسابق فوق شفتيها بعد أن تذوقت المثلجات بتوجُّس، ولم تروقّها النكهة.

غالبت عبراتها وهي تقول:

- عانيتُ منذ سنوات مراهقتي اضطرابات نفسية شديدة، بسبب خلل في كيمياء المخ بالإضافة للاستعداد الوراثي، لا يسهل عليَّ قول ذلك لكنني كنتُ جحيمًا لأهلي، رغم ذلك لم يتخلَّ والداي عني إلى أن توفيا، كانت فترة قاسية لم أستطع التعامل معها كما ينبغي، تزايدت وتيرة هجمات الاكتئاب وتعددت محاولاتي للانتحار.

انحدرت نظراته من وجهها المخضب بالألم، إلى رسغها الأيسر، انحسر كُم معطفها قليلًا، تمكن السيد هود بوضوح من رصد ندبات طولية مهزوزة في موضع الشريان الكعبري.

تستدير بوجهها إليه، مستطردة بابتسامة لها نكهة الحنظل:

- فشلتُ كل محاولاتي مع الأسف.

يستطيع السيد هود أن يتذكر عشرات المرات التي راودته فيها فكرة شيطانية لقتل نفسه، بشرب سم الفئران الذي كانت تضعه عاملة النظافة

بدار الأيتام وراء باب الحمام، أو عن طريق القفز من سطح الدار المكونة من طابقين، أو بإلقاء نفسه أمام سيارة مسرعة في أثناء رحلته الوحيدة إلى حديقة الحيوان. ظن أنه لو قتل نفسه لاجتمع بأمه سريعًا، ولما اضطر إلى تجرع مرارة الفراق وحده.

اعتاد أن يصرف تلك الأفكار الشيطانية عن رأسه، لم يجرب قط أن يضعها حيز التنفيذ، لأنه أجبن من أن يفعل، جبان محب للحياة، رغم أنها لا تستحق أن تُعاش. تطلع إلى «**ساري**» بنظرة تقدير لشجاعتها، ممزوجة بلوعة لما اضطرت إلى اختباره في حياتها.

لم يرم السيد هود بنظرة صوب عقارب ساعته، خشي إن فعل أن يصيب لقاءهما بعين الحسد فينتهي سريعًا، يحب له أن يستمر إلى أن تتسلل الشمس مختبئة في جيب الأفق.

تذوقت ملعقة أخرى من المثلجات، من غير رغبة، كأنها تأبى ابتلاعها.

- بعد موت والدَيّ، وبعد آخر مرة حاولتُ فيها الرحيل عن هذا العالم، حجزتُ نفسي في مصحة نفسية، خشيتُ أن أكررها، خشيتُ أن أنجح هذه المرة.

التفتت إليه بعينين مترقرقتين بعبوات دافئة، في تعارض صارخ مع برودة الطقس، كما لو أن بداخلها بركانًا غير مرئي، لو مس أحدهم فوهته لانفجر ثائرًا.

- أنا... لن تصدق ذلك. لا أحد يصدق. لكن أنا لا أرغب في الموت حقًا.

هز السيد هود رأسه بإيماءة متفهمة، فيما تردف بشرود:

- أرغب في الانتحار، لكن ليس الموت. لا أعرف كيف أشرح ذلك، كما لو أنك ترغب في العيش في تلك الأرض البديلة دون أن تعود يومًا إلى أرضك الحالية. أرغب في الرحيل عن هذا العالم. لكن ليس إلى عالم الأموات. ليس إلى عالم أحاسب فيه عن كل صغيرة وكبيرة. ليس إلى

صراط أسير عليه بخطى متعثرة، وأسفل مني جنة ونار مائلتان. أرغب في الرحيل، لا في الموت، هل تفهمني؟

أومأ برأسه مرة أخرى، وقد انتقل ماء عينيها إلى عينيه، عبر مسار طويل من الخبرات المشتركة، والمشاعر المتقاربة.

تخوض في شرح أحزانها، فيشعر أن كل الأحزان تُشبه بعضها، لها الصفات نفسها من قتامة، ولزوجة، واحتقان، ورائحة مثيرة للغثيان.

هل سبق لها أن تقيأت حزنها، مثله؟

اعتاد أن يتقيأ حزنه في محاولات حثيثة لطرده خارج جسده، كما لو كان متحوّرًا جديدًا لفيروس خبيث، باءت كل محاولاته بالفشل، لا يمكن التخلص من الأحزان بتقيئها، أثبت ذلك بالتجربة.

- كانت فترة إقامتي في المستشفى داعمة ومشجعة، لا بسبب الأدوية أو الجلسات العلاجية، بل لاختلاطي بمرضى يعانون أعراضًا مدمرة، لم تكن حالتي تستوجب المراقبة، وبخاصة بعدما أبديت تحسنًا ملحوظًا وعُرض عليّ المغادرة، إلا أنني تشبثت بالبقاء، استأنستُ بالمكان وأهله، كان مخولًا لي التجول بين أقسام معينة بسهولة ودون إذن سابق من طبيب أو ممرض، القسم المفضل لي كان ذاك الذي يرتاده الأطفال، بنات وأولاد في عمر الزهور تعرضوا لصدمات مبكرة كانوا بحاجة ماسة إلى التفهم والخضوع لبرامج تعديل السلوك وجلسات علاجية مكثفة، هؤلاء الأبرياء كانوا منبعًا للأمل، كلما أبدى أحدهم استجابة ملحوظة، شعرت أنني أتنفس من جديد.

- وما دور الأستاذ «نسيم» في تلك القصة؟

لم يستطع القبض على تلابيب فضوله لوقت أطول، أراد معرفة ما يعنيه هذا الرجل بالنسبة إليها، وموضعه في حياتها، وكيف لا يكون زوجها؟

تركت علبة المثلجات فوق السور بينهما، كأنها تتخلص من حمل ثقيل، ثم التفتت صوبه، تضم كفيها بقوة إلى بعضهما، تقول مؤكدة:

- أخبرتكُ للتو أنني أودعتُ نفسي المصحة، كانت رحلة تعافي طويلة مدفوعة الثمن، ولم يكن عندي مشكلة مادية قط، ترك لي والداي الكثير، لكن في اليوم الذي قررت فيه الخروج من المصحة وبناء حياة جديدة، جاء هذا الرجل وادّعى أنني زوجته.

- لماذا لم تخبري مدير المصحة والأطباء أنك لا تعرفين هذا الرجل؟

- أتظن أنني لم أفعل؟ جربتُ كل شيء، بدءًا من الإنكار صراخًا، إلى محاولة الإثبات العقلانية بالأوراق الرسمية أنني لستُ زوجته.

- ألم يصدقك أحد؟

- لم يصدقني أحد.

لفظتها بمرارة ثم أردفت بحرارة، تشي لغة جسدها ويداها المتحركتان في الهواء بعظم انفعالاتها:

- قدم لهم «نسيم» قسيمة زواج وصورًا تجمعنا في العرس المزعوم، أنا... أنا لا أعرف هذا الرجل ولم يسبق لي رؤيته، كيف أكون زوجته؟

- كم مضى على خروجك من المصحة معه؟

- ثلاثة أشهر.

- لماذا لم تهربي طوال هذه المدة؟

- أتظنني لم أحاول؟

بدا انزعاجها الصارخ جليًا، أردفت ترد على استنكاره بغضب:

- هربت مرتين وأقمت في فندق لعدم وجود أقارب أو صديق ألجأ إليه، وفي كل مرة كان يعرف مكاني، بالطبع من هويتي الشخصية التي أسجل بها الغرفة، له قريب يعمل في مديرية الأمن، يساعده كل مرة للوصول إلى موقعي، كما أنه يستطيع تتبع هاتفي والأرقام التي أتصل بها وتردني من خلال عمله في شركة الاتصالات، يزعم أنني مجنونة بحاجة إلى العلاج، ويرتدي أمام الجميع عباءة الزوج المثالي الذي يتحمل الجحيم التي تعيشه فيها زوجة فقدت عقلها.

لما انتهت غضبتها، كانت أنفاسها تلهج كأنها توشك على الغرق.

امتدت يدها فوق السور تقلص المسافة بينهما، تميل صوبه، وتناشده بكل ما تملك من رغبة في النجاة:

- هذا الرجل به مسحة من الشر لا تُخطئها عين.

- أفهمكِ، وأؤيدكِ.

- أصررتُ على أن نقيم في غرفتين منفصلتين، لا أعرف إلى متى سأتمكن من الحفاظ على الجدار الحائل بيننا، عندما فاز بتلك الجائزة وافقت على المجيء معه أملاً في العثور على أحد يصدقني، ويساعدني.

- لماذا لم تخبرينا بذلك تلك الليلة، عندما سألك «درويش» ما إن كنتِ زوجته؟

- خفتُ إن تحدثتُ أن يعاقبني، هددني إن أنكرتُ زواجنا أمام أحد أن يودعني المصحة مرة أخرى.

رفعت رأسها تدفن نظراتها في الغيوم المتناثرة فوق فستان السماء الباهت، تتنهد بحرارة قائلة بنبرة مختنقة:

- لماذا على هذا العالم أن يكون مخيفًا هكذا؟

- ليس كل شر يستحق أن نخشاه.

مررت نظراتها فوق وجهه متسائلة، فأردف:

- عندما تلوح كلمة «شر» في الأفق، نتذكر على الفور شخصيات مثل ريّا وسكينة أشهر قاتلتين متسلسلتين، أو جاك السفاح، أو محمود المليجي في أفلامه، أو سكار في الملك الأسد، أو فولدمورت في هاري بوتر، أو ربما تمر أمام أعيننا شخصيات مثل الجوكر ودراكيولا فلاد المخوزق. وإن كنا من زوار صفحات التاريخ سنقف على دلالات أعمق، فتمر بخاطرنا صورة هتلر أو جنكيز خان أو هولاكو أو أبي لهب أو النمرود، أو ربما نيرون الذي أحرق روما بسكانها إرضاءً لشهواته المريضة. هذا النوع من الشر الصافي الخالص الواضح النمطي في شكله وهدفه لا أخشاه، إن أكثر ما يخيفني هو الشر المدسوس تحت الجلد، المخبؤ في القلب، الشر الذي يصعب رصده وتتبعه، نشعر به ولا نقبض عليه، إلى أن يظهر بغتة من حيث كنا نأمن. الأشرار كأربيل شارون جزار صبرا وشاتيلا، أو الديكتاتور الأحمر جوزيف ستالين، أو راسبوتين الساحر الشيطاني واضحون في شرهم وفي عدائهم، لكن ما أخشاه حقًا هو أن أغتال من موضع طمأنينة، أن أستدير لأجد أن اليد التي كنتُ أتوكأ عليها هي التي تُمسك بالخنجر، أو أن العين التي كنتُ أسكن إليها، تشاهد عذاباتي مثل فيلم صامت دون أن تحرك ساكنًا.

رنت إليه بنظرات طويلة متأملة، تلوك كلماته في ذهنها وتستخلص منها عصارة المعنى.

قالت بشيء من التفكُّه:

- ألا تلاحظ أن أغلب الأشرار من الرجال؟ بإمكان هذا أن يخبرنا بالكثير عن الجنس كله.

لاحت ابتسامة خفيفة على شفتيه، قال متحديًا وقد ارتفع حاجبه الأيسر قليلاً:

- هل أعدد لكِ أسماء نساء ضليعات في الإجرام على مر التاريخ؟ خذي عندكِ مثلاً...

- حسنًا، توقف، كنت أمزح.

التباسط الذي سكن قسماتها، بهت سريعًا مثل شمس آفلة، أفصحت بعد تردد لم يدم:

- يخيفني شر من نوع مختلف. يخيفني أن أحمل في جسدي دكتور «جيكل» ومستر «هايد»(1)3 في الوقت نفسه دون أن أعرف.

- كلنا نحمل تناقضات «جيكل» و«هايد» في جسد واحد.

- بهذه الطريقة كلنا أشرار على نحو ما، ليس من ذكرتهم فحسب، ربما كانت تلك الأسماء الموصومة هم أرباب الشر، لكن أخبرني بربك، عندما مورست تلك المجازر والمحارق والإبادات، أين كان سكان العالم آنذاك؟ هل تعرف أن هذا السؤال لطالما وجهته لنفسي عندما كنت أقرأ عن الانتهاكات الجماعية والانحطاطات البشرية، كنت أتساءل عمن كانوا يعيشون في تلك الحقبة، أخيار العالم، المناهضين لهذه الفظائع، ما الذي أعجزهم عن صد مد الشر المرتفع؟ وربما في حديثك إجابة لهذا السؤال، كلنا أشرار على نحو ما.

- لا أؤمن بذلك تمامًا، ثمة عوامل متحكمة بقوة في المعادلة، مثل الإكراه، والخوف المشروع، والرغبة الفطرية في حماية الذات، والهشاشة والاستضعاف، وكُلفة التمرد والعصيان، لا يمكنك غض الطرف عن كل ذلك، لا يمكنك ببساطة تجاهله.

- وهل في ذلك مبرر كافٍ وذريعة متينة للتملص من المسؤولية؟ حسنًا، أتفهم الآن كونك شخصًا لا يحب توجيه أصابع الاتهام إلى صدره، وأستطيع أن أقول إنني في ذلك على النقيض منك.

- تميلين إلى جلد الذات؟

- أميل إلى محاسبة الذات.

- بوضع نفسك فوق مقعد الاتهام وتحمل مسؤولية الفظائع التي تحدث حول العالم؟ ألا ترين أنك بهذا ترفعين قدر نفسك أكثر مما ينبغي؟ من أنتِ؟ من أنا؟ ما قيمتنا في هذه المعادلة الكونية؟ نحن لا أحد.

- ولماذا لا يقف الأقوياء أمام الشر؟

- ربما لأنهم لا يرونه كذلك.

- لماذا على الحدود الأخلاقية أن تكون بهذا التعقيد، لماذا لا تكون الأمور واضحة وقاطعة؟ الخير خير، والشر شر، وكل ينال الجزاء الذي يستحق.

- لأن القواعد التي تؤسس للقيم ليست بسيطة كما تظنين، هل فكرت يومًا أن جوهر المشكلة يكمن في أن الشر لا يمكن رصده بسهولة؟ أقصد أن الفعل الذي تعدينه من قبيل الشر، قد يكون في قناعة إنسان آخر مجرد زلة

أخلاقية أو خطأ غير متعمد أو حتى شيئًا مستحسنًا، الفعل الواحد لا يثير فينا جميعًا الشعور نفسه، ما أراه مبررًا قد ترينه مضللاً، هذا هو جوهر المعضلة.

- ما تقوله معناه أن «نسيم» الذي يرغمني على حياة لا أريدها بتزييف الصلة التي تربطنا، قد يكون محقًا فيما يفعل ويملك من التبرير ما يزيح فعلته من دائرة الأفعال الشريرة؟

- لا، لأن ما فعله بك يدخل في دائرة الشر الخالص لا جدال في ذلك، أراد بك سوءًا بسلب هويتك وحريتك ولا شيء يمكنه أن يسوغ فعلته غير المفهومة تلك، يقول بعض الفلاسفة إن الشر نعرفه بكونه محيرًا ومربكًا وعصيًا على التفسير.

- إذن تقول إن على الفعل أن يكون غير مفهوم ومحيّرًا كي نعده شرًا خالصًا، فماذا بشأن الجرائم الثأرية، إنها أفعال يمكن فهم أسبابها ودوافعها بسهولة، فهل يخرجها هذا من دائرة الشر في رأيك؟

- يمكن عدها من باب القصاص، حسب المعسكر الذي تقفين فيه وتحكمين من خلاله على الصورة.

إذن ما تقوله هو أن لا قواعد أخلاقية ثابتة تحكم العالم، وأن لكل منا الحق في إرساء الحد الفاصل بين الخير والشر حسب زاوية رؤيته ومناط فهمه. هذا جنون!

- لا أقول ذلك، في الحقيقة لا أعرف ماذا أقول، أحيانًا تصبح الأمور مشوشة إذا ما نظرنا إليها من مقربة.

- ربما لأننا نحاول إيجاد مساحة مشتركة تسع الجميع، لكن في الحقيقة لا وجود لقاعدة واحدة تحتملنا معًا.

- ربما يحدث ذلك إن تمكن الخيّرون والحكماء من أن يتسوّدوا العالم.

- ومن المخوّل له بالحكم على الآخرين بالخير والحكمة؟ عدنا إلى نقطة البداية، التي يحتكم فيها كل إنسان إلى إنصافه الخاص.

ثار الموج وألقى رذاذه فوق ظهريهما، كان العاشقان قد انصرفا منذ ما يربو على نصف الساعة، وساحت الشمس في أحشاء الموج إلا طرفها، تُلّطخ به السماء بصبغة خفيفة هنا وهناك.

- ستساعدني؟

سألته بيأس الغريق الذي يتمسك بقشة تطفو وسط المحيط، ترجو أن يقع سؤالها في قلب «جيكل» الطيب، لا في عقل «هايد» الشرير.

- منذ أن رأيتُ جريمة قتلك داخل رأسي قررت إنقاذك، سأساعدك يا «ساري»، لن أدير وجهي، لن أغض الطرف.

شهدت السماء الباهتة والشمس الآفلة على الاتفاق المنعقد بينهما. صادقًا في وعده كان، السيد هود لا يحب العهود، لكن إن قطع عهدًا لا ينكثه.

الجريمة التي شهدها تقع في محيط رأسه، بقدرة استبصاررية فريدة مكنته من استشراف المستقبل، صارت حافزًا جبارًا.

إن لم ينقذ تلك المرأة، ستنال المصير الذي عُرض أمام عينيه كفيلم سينمائي هو مشاهده الوحيد.

إن لم ينقذها ستموت طعنًا ثلاث مرات في صدرها بخنجر الرجل الذي يزعم أنه زوجها، هكذا يؤمن.

قال السيد هود بغتة كمَن تذكر شيئًا:

- قلت إنك اعتدت متابعة حالات الأطفال الذين يعانون اضطراب ما بعد الصدمة؟ أنا بحاجة إليك يا «ساري»، أحتاج إلى مساعدتك حقًا.

(11)

أمنا الغولة

- أعرف جيدًا كيف أنتزع منك الاعتراف يا بن الملاعين.

خلع «درويش» الصغير عن نفسه رداء الحصافة وتلحّف بالتصميم، هذا الزوج الأثيم سيعترف بجُرمه وتنتهي القضية ويفوز بالترقية الاستثنائية.

دفع الزوج المتهم «محسن سرحان» دفعة قوية، كانت الثالثة منذ أن استدعاه من المحبس إلى مكتبه، لم يكن بحاجة إلى استخدام قوة مفرطة كي يؤلمه، فالرجل رغم اهتمامه بصحته ولياقته فإنه تجاوز السبعين.

سُمِع خلال اللطمة الأخيرة صوت مكتوم لرضة أصابت فكه انفجرت على إثرها الدماء من فمه.

- سأمزقك إن لم تعترف، قتلت زوجتك وأفرغت جثتها من الدماء، أين ذهبت تلك الدماء؟ هل سكبتها في الحوض؟ في البالوعة؟ في ماء الصرف؟ وإلى من تعود الدماء التي كانت حولها؟ من هي الضحية الثانية التي سحبت منها كل هذا القدر من الدماء؟ انطق، اعترف.

- لو قطعت جسدي ألف قطعة لن أعترف بشيء لم أفعله، أنا لم أقتل زوجتي.

- لا يوجد آثار اقتحام على باب العشة، زوجتك تعرف قاتلها جيدًا وسمحت له بدخول بيتها طواعية، لا بصمات غريبة سوى بصمات جارك «صالح مدكور» على الباب من الخارج، التي طُبِعت عليه عندما دفعه ودخل لاكتشاف الجثة، أما بصماتك فهي في كل مكان.

- بالطبع بصماتي في كل مكان؛ إنه بيتي!

- شهد جيرانك على نزاعات مستمرة بينكما وشجارات متكررة على ملكية المطعم.

- الأزواج يتشاجرون طوال الوقت.

- أفاد أحد عمال مطعمك أنه سمعك تصيح في زوجتك عبر الهاتف قبل يومين من الجريمة قائلًا: «مثلك يستحق الموت».

- جميع الأزواج يتفوهون بسخافات وقت الشجار.

- أثبت فحص الطب الشرعي أن القاتل أعسر، وأنت تستخدم يدك اليسرى.

- لستُ الأعسر الوحيد في العالم.

- لا تظهر جروح دفاعية على جسد الضحية، زوجتك كانت تعرف قاتلها وتثق به لدرجة أن تسمح له بدخول بيتها والاقتراب منها، لذلك لم تحاول حماية نفسها.

كانت نظرات الزوج قوية، بعكس جسده الواهن المتساقط بين يدي «درويش» كدمية، وهو يقول:

- أنا لم أقتل زوجتي.

عندما قرأ تقرير المعمل الجنائي والتقرير التفصيلي للطبيب الشرعي، تأكد أن الدماء المجهولة لا تخص الزوجة المغدورة «سنية محفوظ»، وأن كمية الدماء التي كانت مسكوبة حولها أكثر مما يمكن سحبه من إنسان حيّ.

الشخص الذي أُفرغ جسده من كل هذا القدر من الدماء، ميت الآن لا محالة، أي تنتظره جثة ثانية مجهولة.

يفيد التقرير كذلك أن الدم يعود إلى أنثى، ولا يحمل تحليل الحمض النووي الخاص بها أي تطابق مع قاعدة بيانات الحمض النووي التي تملكها الأجهزة الأمنية.

لا يستطيع غلق ملف القضية بعد ظهور ضحية جديدة غير معلوم هويتها أو مكانها، ضحية لم يعثر منها إلا على دمائها.

ثم... أين ذهبت دماء «سنية»؟

- الجار الذي... عثر على زوجتي... «صالح مدكور»... قد يكون هو... المجرم.

يقول المتهم ذلك من بين أنفاسه اللاهثة وآلامه المتلاحقة، يندفع «درويش» ليقطع عليه أملاً واهنًا تعلق به:

- كان جارك وزوجته في بث مباشر من عشتهما على أحد تطبيقات مواقع التواصل الاجتماعي، في الوقت نفسه الذي وقعت فيه الجريمة، تم التأكد من ذلك بمطابقة ميعاد البث مع الموعد الذي قدره الطبيب الشرعي لموت

زوجتك، أي الساعة الثانية والنصف صباحًا، كما ترى لا يوجد مشتبه به آخر تلقي عليه جريمتك كي تتنصل من إثمك أيها الحقير، اعترف أنك قتلتها.

أطبق الرجل شفتيه بقوة معاندًا، بنظرات يملؤها التصميم، شعر «درويش» أنه في ورطة، وعندما يشعر «درويش» أنه في ورطة، يتحول إلى وحش كاسر.

انقض على الزوج يدفعه في صدره صوب الجدار إلى أن أنَّ هذا الأخير ألمًا، كاد أن يعيد الكرة إلى أن ينتزع منه الاعتراف اللعين، لولا أن قاطعته رنة هاتفه.

أجاب المتصل بعصبية، استشرافًا لما سيُقال.

أصاب ما بين عيني حدسه، إذ أخبره الطرف الآخر تمامًا بما كان يتوقعه:

- «درويش» بك، وردنا للتو بلاغ بالعثور على جثة امرأة في عشة بالطابق الثاني بشارع 59.

- هل أفاد البلاغ بحال الجثة؟

- نعم يا فندم، تقول مُقدمة البلاغ وهي مستأجرة عند الضحية مالكة العقار، أنها عثرت عليها قبل عشر دقائق مطعونة بصدرها، وثمة شيء مدسوس في فمها، لم تتضح لها معالمه.

- هل جسد الضحية مفرغ من الدماء؟

- لم يفد البلاغ بذلك، لكن المستأجرة مقدمة البلاغ قالت إنها رأت حول الجثة الكثير من الدماء.

تهالك «درويش» مستندًا بظهره إلى حافة المكتب، يطلق زفرة طويلة عميقة، ويصارع الغم الذي أطبق بمخالب حادة يسحق أمله.

ها هي الجثة الثانية المجهولة تظهر كما توقع، وعليه الآن إيجاد رابط مشترك يجمعها بالمتهم الوحيد في القضية، وأيضًا العثور على الطريقة التي مكنته من استدراجها وسحب دمائها وسكبها حول جثة زوجته لسبب لا يعلمه إلا الله.

مضطرب الأنفاس، مشوش الفكر التقط معطفه بعنف من فوق المشجب، وفارق مكتبه متوجهًا إلى مسرح الجريمة الجديدة.

هذه القضية اللعينة لا تريد أن تنتهي.

***

في دار الرعاية المؤقتة، وعلى أعتاب الغرفة الموجود بها الطفل المكلوم، استوقف السيد هود رفيقته قائلاً:

- أنا ممتن لكِ يا «ساري» على موافقتك.

- أرجو أن أستطيع مساعدتك، ومساعدته.

- يكفي أنكِ تحاولين، لن أنسى لكِ هذا المعروف.

- لم تخبرني عن اسمه.

- «تميم»، عمره سبع سنوات، يتيم الأبوين كما أخبرتكِ، والآن فقد جدته موتًا، وجده حبسًا.

- أريد أن أنبهك يا «هود»، لسنا متشابهين في طريقة استجابتنا للضغوطات، وبخاصة الأطفال، بعضهم يُبدي حساسية مفرطة بعد المرور بتجربة عصيبة، يغضبون لأتفه الأسباب، يستجيبون بذعر لنبرة صوت غير متوقعة، يعانون فرط يقظة، وغضبًا متناميًا بداخلهم، تخيفهم أشياء عادية لكنها بالنسبة إليهم مرتبطة ارتباطًا شرطيًا بالتجربة التي مروا بها، ويميلون إلى تكرار التجربة بتمثيلها أو حتى برسمها وتلوينها على الورق أو من خلال اللعب، وبخاصة إن كانوا في عمر صغير، كي تصبح التجربة مألوفة أكثر وخاضعة لسيطرتهم التي فقدوها سابقًا، والبعض الآخر تصبح استجابتهم «انفصالية»، كما سمعت الأطباء يتحدثون عن ذلك، وهؤلاء الذين يفضلون الانفصال ذهنيًا عن الواقع يغرقون في نوبات غياب الوعي، شيء مثل الهرب من مواجهة تبعات التجربة الأليمة التي مروا بها، يشعرون أن الزمن يمر بطيئًا جدًا، كما لو أن ما يحدث حولهم ليس حقيقيًا، يعيشون

في عالم خيالي منفصل كأنهم يشاهدون فيلمًا سينمائيًا يدور حولهم، ويتفوهون بأشياء غير مفهومة.

التقطت أنفاسها ثم أردفت:

- لا أعرف بعدُ كيف هي استجابة «تميم» للحادثة، لكن أنا على يقين من كونه بحاجة إلى الرعاية والاهتمام بشدة، لذلك أرجوك لا تحاول الضغط عليه، اترك له الوقت الذي يحتاج إليه.

- أظنه يعاني نوبات غضب غير مبررة.

لوهلة، اختلط على السيد هود الأمر، هل يتحدث عن الطفل أم عن نفسه من بعد الليلة التي فقد فيها أمه.

قرأ ذات مرة ما كتبه الفيلسوف سينيكا: «الغضب هو جنون مؤقت، وكل جنون سببه فقدان السيطرة على الأفكار».

وهو لم يفقد السيطرة على أفكاره فحسب، بل على ذكرياته كذلك.

جلس «تميم» يفترش الأرض فوق سجادة كبيرة مهترئة، وأمامه أوراق وأقلام شمع ملونة، منبطحًا على بطنه، ومندمجًا في تلوين رسمة مطبوعة لحيوان باندا مبتسم.

طلب السيد هود من الإدارة إفراغ الغرفة من باقي الأطفال ليحظى مع «تميم» بالخصوصية. ما إن رآهما الطفل حتى توقف عن التلوين، واتشحت عيناه بنظرة قلق متزايدة.

- مرحبًا يا «تميم»، أنا «ساري» وهذا «هود»، هل تسمح لنا بالبقاء معك قليلاً.

لم يبدر عن الصبي استجابة تُذكر، رغم ذلك تقدّمت خطوة صغيرة، ثم نزلت ببطء تستند بركبتيها إلى الأرض، مقلصة المسافة التي بينهما طولاً.

التزم السيد هود موضعه عند الباب المغلق، لا يشارك في الحوار سوى ببسمات صغيرة مطمئنة، يوزعها على وجه الصغير كلما التقت أعينهما.

- أريني ماذا تلون، آه إنها باندا، حيوان كبير لطيف، لكن لماذا الأحمر، هل يوجد باندا لونه أحمر؟

استمر «تميم» في التلوين غير عابئ بما تلقيه عليه «ساري» من أسئلة.

أشارت إلى قلم شمعي أزرق واستأذنته أن تلون بدورها، هز كتفيه بلا مبالاة، فالتقطت ورقة بها رسمة لدب كبير يدس يده في جرة عسل، وشرعت تلون بوتيرة بطيئة توازي وتيرة «تميم» كأنها انعكاس له.

- أنا أحب الحيوانات كثيرًا؛ إنها مخلوقات لطيفة، وأنا في مثل عمرك أردتُ اقتناء جرو صغير إلا أن والدي لم يسمحا بذلك، وأنت يا «تميم» هل تحب الحيوانات مثلي؟

هز رأسه إيجابًا هزة خفيفة، سعدت بها «ساري» إذ كان أول تواصل حقيقي بينهما. التفتت تلقي نظرة مستبشرة على السيد هود الذي هزَّ رأسه في حبور.

- «أمنا الغولة طقطقي الفولة بتعملي إيه؟ بحمّي بنتي!».

دندن الصغير بصوت خافت، ويده لا تتوقف عن تحريك قلم الشمع الأحمر مجيئًا وذهابًا، مخترقًا لحدود الرسمة.

- هل كانت جدتك تدندن لك تلك الأغنية القديمة؟ أمي أيضًا كانت تحب أن تغني لي وبخاصة وقت النوم، ثمة أغنية أحبها كثيرًا تبدأ بـ «كان في واحدة ست، عندها اتناشر بنت، في يوم قالوا لها يا ماما عايزين ناكل توت».

تطلع لها «تميم» ببشاشة أثارت عواطفها، فمدت يدًا تمسح بأمومة على شعره الطويل الأشقر، إلا أنه أبعد رأسه من غير عنف، فسحبت كفها على الفور، غير راغبة في تجاوز الهالة الخاصة التي رسمها حوله.

- «أمنا الغولة طقطقي الفولة بتعملي إيه؟ بلبّس بنتي!».

- عندما يرزقني الله بولد أحب له أن يكون جميلًا مثلك، سأسميه «آدم».. ما رأيك في هذا الاسم؟

رآها تتلطف مع «تميم» وتحنو عليه بشكل أثار عواطفه، إنها رائعة مع الأطفال، ستكون أمًا مثالية ذات يوم، هذا ما مر بخاطر السيد هود بينما يتابعهما بنظراته.

استمر الصغير في التلوين والدندنة، واستمرت «ساري» في المحاولة:

- يبدو أن جدتك تحبك كثيرًا، وأنت يا «تميم» هل تحبها؟

- «أمنا الغولة طقطقي الفولة بتعملي إيه؟ بسرّح بنتي!».

- جدك أيضًا سمعتُ أنه رجل لطيف للغاية، هل كان طيبًا معك ومع جدتك؟

- «أمنا الغولة طقطقي الفولة بتعملي إيه؟ بآكّل بنتي!».

تبادلت «ساري» مع السيد هود نظرة محبطة، بيد أنها لم تسمح لهذا اليأس أن ينطبع فوق نبرة صوتها وهي تردف:

- هل تحب هذا المكان؟ إنه ممتلئ بالصغار الذين يلعبون معك، أليس كذلك؟

- «أمنا الغولة طقطقي الفولة بتعملي إيه؟ بغنّي لبنتي!».

- ثمة ألوان أخرى لماذا لا تجربها؟ انظر، هذا الأخضر جميل، والأسود إنه مناسب لجسد الباندا، لا تريد؟ لماذا تصر على استخدام اللون الأحمر يا «تميم»؟ بماذا يُذكّرك يا صغيري؟

- «أمنا الغولة طقطقي الفولة بتعملي إيه؟ بحمّي السكينة عشان أدبح بنتي!».

تجمد كلّ من «ساري» والسيد هود في موضعيهما، يتطلعان إلى الصغير بنظرات مستريبة.

- هل رأيت من قبل شخصًا يُذبح يا «تميم»؟ هل رأيت جدتك وهي تتعرض للأذى؟

سدد في وجهيهما نظرات تحمل مزيجًا متناقضًا من الحزن والغضب، اندفع يلون الرسمة بخشونة تمزقت على إثرها الورقة.

أمسكت «ساري» بكفه بحنان وأردفت:

- لا بأس يا صغيري، يمكنك إخباري بما حدث، لا أحد يستطيع أن يؤذيك؛ أنت بأمان هنا.

حينئذ قرر السيد هود الاقتراب، جثا على ركبتيه بجوار «ساري» يسأل الصغير متلطفًا:

- «ساري» تقول الحقيقة يا «تميم»، إننا من طرف الشرطة؛ لا أحد يستطيع أن يؤذيك في وجودنا. أخبرنا بما حدث تلك الليلة، رأيت جدتك وما حدث لها، أليس كذلك؟

هز رأسه ببطء ولا تزال عيناه تحملان مزيج الحزن والغضب، تغلفهما عبرات رقراقة، بدا كأن عقله يسافر بعيدًا عن هذه اللحظة، ويتعلق بذكرى أليمة جعلت جسده الهزيل ينتفض.

- إذا أرشدتنا إلى من فعل بها ذلك، ستقبض عليه الشرطة وتدخله السجن وسيبقى هناك إلى الأبد، هذا الشرير الذي فعل هذا بجدتك، تعرفه يا «تميم»، أليس كذلك؟

هز رأسه إيجابًا بخفة، فتحمس السيد هود واندفع يسأله:

- من هو يا «تميم»؟ لا تَخَف يا صغيري، قل اسمه، هيا، لا تخف.

رفع الصغير رأسه ينقل بصره بين وجهيهما، بدا وكأنه يتصارع مع ما بداخله، يقرض ظفر سبابته، يمزقه، ثم يبصقه.

يفلت القلم الشمعي الأحمر، يقترب من «ساري» فتمد يدًا تعانقه، يتعلق بها، يلف ذراعيه حول رقبتها، بدا وكأنه يود أن يلتصق بحضنها ولا يفارقه.

- من هو يا «تميم»؟ من الذي فعل هذا بجدتك؟

يرفع رأسه الصغير، ينقل بصره بين وجهيهما في قلق، تحفزه نظراتهما المتحمسة، فيتمتم بنبرة راجفة:

- أُمنا الغولة!

(12)

عين جمل وأفوكادو وحليب

مضى شهر تقريبًا منذ واقعة انهياره في آخر جريمة كان يعمل على تصويرها مع زملائه في فريق البحث الجنائي.

كانت الجريمة التي تسبقها مروعة كذلك، قتل فيها رجل كل أفراد أسرته ثم انتحر قفزًا من النافذة.

شق على السيد هود أن يتفهم دوافع الرجل المتعلقة بدين كبير لأحد شركائه بعد أن خسر تجارته، أجبر في النهاية على التخلص من أسرته المكونة من زوجة وثلاثة أبناء ثم الإجهاز على نفسه.

تفهمُ دوافع المجرمين لم يكن يومًا من متطلبات وظيفة السيد هود كمصور جنائي محترف، يجيد التعامل مع العدسات والزوايا والأضواء، بيد أنه كثيرًا ما عجز عن وضع حد فاصل بين عمله ومشاعره كإنسان يشهد بشاعة وإجرام أخ له في الإنسانية.

كثيرًا ما تساءل السيد هود في نفسه: لماذا لم يخلق الله الجنس البشري بلا نوازع إجرامية؟

لماذا لم يشكل أحماضنا النووية خالية من العنف، والتعصب، والغضب، والجنون؟

لماذا لم يخلق الله جنسًا بشريًا بلا خلل في الشعور أو قصور في الإدراك؟

ذات مرة، توجه بهذه الأسئلة إلى اللواء «لطفي درويش»، وقتئذ كان شاربه قد بدأ في الإنبات، فأوجز الرجل في الرد قائلًا: لو شاء لفَعَلَ.

وإلى اليوم لم يقنع السيد هود بهذا الجواب، لو شاء الله لفَعَلَ، فما دفعه لئلا يشاء؟

هل يتعلق الأمر بالمشيئة وحدها؟ هذا ما أخذ يدور في رأسه، بينما يحث الخطى صوب مسرح جريمة داخل عشة بالطابق الثاني بشارع 59.

أشهر هويته أمام فرد الأمن الواقف على البوابة، ثم اندفع مندسًا بين أفراد الفرقة التي استجابت لبلاغ العثور على الجثة.

ما زالت الدهشة تتسور قسماته، بعد الاتصال الذي تلقاه قبل قليل في أثناء خروجه مع «ساري» من دار الرعاية، الذي أجابه على عجالة باسمًا:

- سيادة اللواء «لطفي درويش»، أي ريح طيبة ذكرتك بي؟

- «هود»، أريدك في مسألة مهمة.

- كُلي آذان مصغية يا فندم.

طلب منه اللواء «لطفي درويش» قطع إجازته، والانضمام بشكل استثنائي إلى فريق البحث الجنائي الخاص بمدينة رأس البر، في أثناء العمل على القضية الجديدة التي تؤرق الجميع وتخدش راحة المدينة الهادئة، وحرص بنفسه على استصدار قرار رسمي بذلك.

لم يشأ السيد هود قطع إجازته، وبخاصة وهو في خضم انشغاله بـ «ساري» ومحنتها.

لكنه في الوقت نفسه، يحمل في قلبه الكثير من التقدير والمحبة للرجل الذي أسبغ عليه من صنوف الفضل والكرم، عجز عن رفض أمره المباشر بالتوجه إلى مسرح الجريمة في الحال.

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد، حفزه الفضول على معاينة مسرح الجريمة، بعدما أخبره اللواء «لطفي درويش» أنها ربما تكون مرتبطة بجريمة شارع 61.

شعر السيد هود في قرارة نفسه أنه مدين بذلك لـ «تميم»، الذي اختار الانفصال عن الواقع والعيش في عالمه الخاص، بدت فيه كلماته غير مترابطة، وخيالاته غير مروضة في ساحات المنطق، عالم يختلط فيه الواقع بالحواديت.

عله يجد في القبض على قاتل جدته شيئًا من السلوى، سلوى لم يشعر بها هو نفسه عندما قُبض على قاتل أمه.

بخطوات صغيرة تقدم السيد هود داخل العشة، فاحصًا بعينين مدققتين كل ما يطالعه، استقبلته رائحة نتانة خفيفة، كتم على إثرها أنفاسه بعضه

كان خبراء الأدلة الجنائية والمباحث والمحققون قد انتهوا بالفعل من مناظرة الجثمان، ويستعدون لنقله إلى طاولة الطبيب الشرعي ليقوم بعمله التشريحي.

انتهى من معاينة مسرح الجريمة وانفض الجمع إلا قليلاً، وجوده هنا ما هو إلا تحصيل حاصل، نغزه هذا الشعور وأزعجه.

أدرك السيد هود أن عليه أن يسرع في التقاط الصور، فمسرح الجريمة هو المفتاح الرئيسي الذي يحل ألغاز أي قضية، فيلم صامت يُعرض للمشاهدين مرة واحدة، يختفي بعدها للأبد، بقع الدماء، البصمات، موضع الجثة، الروائح، الرواسب العالقة، الحمض النووي، أماكن الأثاث، وحتى طية السجادة قد تخفي بداخلها لغزًا ومعنى.

أول ما أثار استهجانه ودفع حاجبيه لينعقدا في حيرة، هو رؤيته لحزام أصفر اللون يشد خصر الضحية السمين بقوة، كانت المرأة ذات الوزن الثقيل ممددة فوق بركة من الدماء وسط الصالة.

ضاقت أنفاسه، تشوش إدراكه، وغامت الصور أمام عينيه، تجلى خوفه المرضي من اللون الأصفر في سخونة تصاعدت أبخرتها من مؤخرة رأسه، وعرق تفصد عنه جبينه، ورعشة مباغتة ألمت بأطرافه.

لا يستطع أن يطلب ممن حوله أن يلقوا فوق الحزام الأصفر بشيء يحجبه، إذ سيعجز عن البوح بالسبب: أنا أخاف اللون الأصفر! ما أسخف ذلك.

لو كان «درويش الصغير» هو من استدعاه للعمل على هذه القضية، لأجزم أنها مزحة سخيفة من مزاحاته، دس الحزام عمدًا في محاولة وصاية سمجة ليعالجه بالصدمة.

لكن «درويش الكبير» هو الذي زج به نحو تلك القضية، لكن لماذا؟

برز السؤال في رأسه تزامنًا مع محاولات غض البصر عن الحزام ولونه، وكم كان هذا عصيًا.

التف حول الضحية إلى أن وقف بمحاذاة رأسها، محاولاً تجاهل نبضات قلبه المتسارعة، يتأمل بدهشة مقبض الخنجر الخشبي المنتصب من فمها.

التقط عدة صور وقد استغرقته التفاصيل التي ترصدها عينه للسيد هود عين ثاقبة ومدرَّبة تستطيع التقاط التفاصيل المهمة، يعرف جيدًا المواضع التي تحتاج إلى تأطير، بكاميرته الحديثة ذات الإمكانات العالية.

جثا في موضع يخلو من الدماء عند رأس الضحية، وسلط عدسة الكاميرا على جروح غير منتظمة في منتصف جبينها، التقط صورًا من زوايا مختلفة.

وبغتة، رأى «درويش» مقبلًا عليه بعصبية.

- ماذا تفعل هنا يا «هود»؟ كم مرة سأحذرك من دس أنفك في القضايا التي أعمل عليها؟ صداقتنا شيء، والعمل شيء آخر، تفضل وغادر مسرح الجريمة حالًا وإلا أمرت بإخراجك بالقوة.

صرخ مناديًا معاونه، ينهره على السماح للسيد هود بالاقتراب من الضحية، وقبل أن يجيب الضابط بشيء، استقام السيد هود قائلًا بنبرة قاطعة:

- أنا هنا بأمر مباشر من اللواء «لطفي درويش».

تجمد «درويش» الصغير لوهلة، ثم شعر بتدفق الغضب في عروقه كأمواج متلاحقة، تلطم صدره بقوة وإصرار.

لماذا يُقدِم أبوه على شيء كهذا؟ هل يتحداه؟ يُحقر منه؟ يستهين بمهارته؟ يحاول تقزيمه أمام فريقه؟

لماذا يصر هذا المتعنت على أن الجرائم الحالية متصلة بتلك القضية القديمة اللعينة التي -لسبب لا يفهمه- لم يستطع نسيانها؟

هل أحضر السيد هود إلى هنا عمدًا في محاولة لحصر مشاعره في الزاوية، ودفعه ليتذكر الليلة التي قُتلت فيها أمه؟

ما الدافع لذلك ما دام المجرم «مبسوط القرداتي» يقضي عقوبته منذ ما يقرب من عشرين عامًا خلف القضبان، ولا يزال؟

لم يستطع أن يفهم أباه يومًا، ولن يستطيع الآن، هذا ما دار بخلده بينما يدور على عقبيه استجابة لنداء أحد أفراد النيابة.

تغلب السيد هود على الغضب المتنامي بداخله، عاد إلى الجثة متفحصًا، لا بعين مصور جنائي هذه المرة، بل بعين إنسان يشفق على نفسه من انتمائه إلى الجنس البشري، بنواقصه ونوازعه.

انتابت جسده رعدة مفاجئة، وتدفق إلى صدره شعور عجيب، كأن رابطًا خفيًّا يجمعه بتلك الجثة التي ترقد أمامه شاحبة.

أصاخ أسماع قلبه في محاولة لالتقاط صرخاتها الأخيرة المعلَّقة في هواء العشة، الكلمات التي نطقت بها قبل أن تسلم روحها إلى بارئها، أغمض عينيه يحاول اختراق الحجب، وينصت إلى ما تريد أن تخبره إياه.

ما من شيء، لم تلتقط أذنه الحساسة أي أصوات عالقة في الهواء، كأن الضحية ماتت قبل أن يُفْسح لها المجال للصراخ، كأن الموت جثم بغتة على أنفاسها ولم يمهلها الوقت لتفهم.

امرأة خمسينية كانت، اسمها «جواهر»، تصبغ شعرها الأبيض بالحناء، وتعتني بنظافتها ونظافة عشتها جيدًا.

مالكة العقار كما عرف، قدمت المستأجرة في الشقة المجاورة البلاغ بعد عثورها عليها في هذا الموضع.

تأمل السيد هود ثلاث طعنات بالصدر، غير غائرة، غالبًا من الخنجر الخشبي المدسوس في فمها، بذل وسعه كي لا يطئ فوق بركة الدماء ويفسد الأدلة.

هذه الدماء في غاية الأهمية، أفرغ القاتل جسد الضحية الأولى من الدماء ووضع حولها دماء مجهولة. يستطيع السيد هود أن يجزم أن القاتل فعل المثل مع الضحية الثانية، سكب دماء كلٍّ منهما حول جثة الأخرى.

لكن لماذا؟

ما لاحظه منذ الوهلة الأولى أن جسدها شاحب أكثر مما يبدو عليه جسد الأموات عادة، يستطيع من خلال مراحل التيبس والارتخاء تخمين الوقت المقدَّر لموت الضحية.

تبدأ مرحلة التيبُّس الرمّي خلال 2-6 ساعات بعد الوفاة، وتصل إلى ذروتها خلال 12-24 ساعة، ثم تبدأ مرحلة الارتخاء تدريجيًّا بعد 36-48 ساعة.

ومن حالة الجثة التي بدأت في مرحلة التحلل الذاتي، بظهور لون الجلد أخضر مائلًا إلى الزرقة، وانتفاخ طفيف في البطن بسبب الغازات المحتبسة، وانبعاث رائحة بكتيرية خفيفة، يمكنه من خلال هذه المعطيات تقدير زمن الوفاة، قبل يومين على الأقل.

أي في الليلة نفسها التي ماتت فيها الضحية الأولى «سنية محفوظ».

وبينما يجهز كاميرته لالتقاط فيديو لوضعية الجثة والدماء من حولها، ومن عدسة الكاميرا المقربة انتبه لشيء ما عالق داخل بركة الدماء.

قرَّب الصورة أكثر فانتبه لكنَّه كُنْه هذا الشيء. إنه خنفساء!

أبعد الكاميرا وطلب من أحد الفنيين ملقاطًا وعلبة بلاستيكية لحفظ الأدلة، التقط الخنفساء الصغيرة الميتة، وتأملها قليلًا قبل أن يحفظها داخل العلبة.

من أين أتت تلك الخنفساء؟

هذا ما فتئ يتساءل بشأنه وهو يتتبع المسارات المحتملة داخل بركة الدماء، لم يعثر على آثار مطبوعة لأقدام الخنفساء، لم تبلغ تلك البقعة سيرًا، وإنما

سقوطًا من علٍ، هل سقطت من الجاني؟ أم من السقف؟

وقف يتطلع إلى السقف متأملاً، إلى أن بلغ سمعه صوت «درويش» يتحدث إلى الجارة التي قدمت البلاغ، فتبعهما إلى شقتها الكائنة أمام شقة المجني عليها.

نظر إليه «درويش» شزرًا، ثم أكمل أسئلته المنهمرة:

- كيف لم تسمعي أو تري شيئًا؟ المرأة مقتولة قبل ليلتين على الأقل؟ ألم تسمعي ضجة؟ صراعًا بينها وبين الجاني؟

شعر السيد هود بسخافة السؤال، إذ إن شقة الضحية في غاية الترتيب والنظافة، لا شيء في غير موضعه، فبالتالي لا أثر لصراع أو شجار.

الضحية كانت تعرف قاتلها، أو على الأقل سمحت له بدخول بيتها طواعية. لا أثر للنزاع وكذلك لا أثر للاقتحام على الباب والنوافذ، تمامًا كما حدث مع الضحية الأولى.

ألقى السيد هود نظرة سريعة حوله داخل شقة المبلِّغة، أغراض متناثرة، وسادة ملقاة أرضًا، دب محشو مقلوب رأساً على عقب، قطع من ملابس علوية سوداء، تنورة قصيرة، عين زرقاء معلقة على باب الشقة بزاوية مائلة، وأطباق بها بقايا طعام وُضعت حيثما اتفق، وسلسلة بحبل أسود يتدلى منها ناب ضخم ملقاة أرضًا.

المستأجرة والمالكة على النقيض من بعضهما، إحداهما عاشقة للنظام والأخرى من ربات الإهمال.

تقول الجارة المُبلّغة، التي بدت في أوائل الثلاثينات:

- صدقني يا حضرة الضابط لم أسمع شيئاً، لقد فجعتُ بما رأيتُ لحظة دخولي شقة السيدة «جواهر».

- ولماذا دخلتِ شقتها؟

- كان من المفترض أن تتسلم مني الإيجار الشهري قبل يومين، لا أريد أن أتحدث عن امرأة ميتة بسوء لكن السيدة «جواهر» رحمها الله كانت امرأة صعبة المراس وبخيلة للغاية، لا تقبل التأخير في موعد الإيجار، ساورني القلق لما تأخرت في طلب مالها، وبخاصة وقد بدأت أشم رائحة غريبة كلما مررت ببابها في أثناء طلوعي ونزولي، رغم علمي أنها مهووسة بالنظافة والتبخير طوال الوقت، فطرقت بابها، لكنني فوجئت به مفتوحاً، يبدو من

الخارج مغلقاً لكن ما إن دفعته بطرقاتي حتى انفتح، شعرت بالقلق أكثر، ناديتها فلم تُجِب، دخلت ببطء وفوجئتُ بـ... أنتَ رأيت. لا أصدق. من يستطيع فعل ذلك؟ امرأة مسكينة.

انتهى حديثها بشكل غير مترابط يتخلله بكاء ورجفات متتابعة، لم يمهلها «درويش» الفرصة لتلتقط أنفاسها، أمطرها بالمزيد من الأسئلة:

- ألم يكن لها خصوم، أعداء، أشخاص لا يحبونها؟

- كما قلت، إنها امرأة صعبة المراس فيما يتعلق بالمال والنظام ونظافة السلم، لا تحب لعبَ الأطفال تحت نوافذها، أو مرور غرباء بحديقتها، وتلك أمور لا تستوجب العداء.

- ألا يوجد في البيت مستأجر غيرك؟

- الشقتان في الطابق الأرضي خاليتان من السكان، عادة ما تعرضهما السيدة «جواهر» للإيجار مع بداية موسم الصيف، هكذا أخبرتني.

- ولماذا تقيمين هنا بالمدينة في الشتاء؟

- زوجي مهندس ديكور، حصل على عمل في فندق حديث الإنشاء للقيام بالتصميمات الداخلية قبل أن يبدأ الموسم الصيفي، إنه في العمل الآن، هاتفته وسيكون هنا بعد انتهاء الوردية.

- ألا يمكنه الحضور حالاً؟

- نحن زوجان منذ ثلاثة عشر عاماً، لم نستطع طوال هذا الوقت الادخار، بل ولدينا ديون صغيرة، ليس باستطاعتنا خسارة المال، عليه أن ينهي الوردية قبل الانصراف.

اقترب شرطي وهمس بشيء لـ «درويش»، استطاعت أذن السيد هود المرهفة التقاطه: «صندوق المجوهرات الخاص بالسيدة «جواهر»، عثروا عليه كما هو لم يُمسّ، مدسوس بين ملابسها في الرف السفلي من الخزانة».

لم تكن جريمة بدافع السرقة إذن!

- متى آخر مرة رأيتِ فيها السيدة «جواهر»؟

- قبل يومين، كانت تتوجه إلى سوق 101 الثلاثاء من كل أسبوع، ساعدتها في حمل الأكياس حتى الباب.

- متى كان هذا بالتحديد؟

- في الثانية ظهراً تقريباً.

- ولم تريها بعدها؟

- لم أرها بعدها، لكن كانت السيدة جواهر -رحمها الله- معتادة على إعداد مشروبها المفضل كل ليلة قبل أن تأوي إلى فراشها، مشروب مكون من عين جمل وأفوكادو وحليب كامل الدسم، سمعتُ صوت الخلاط يومها بعد العشاء، هذا يُذكرني الآن بأنني لم أسمع صوت الخلاط الليلة الماضية، يا إلهي، كانت ميتة طوال هذا الوقت ولم أنتبه لذلك!

أجهشت في البكاء، انتبه السيد هود إلى ارتعاشة يد المرأة بشكل ملحوظ، وإلى لصاقة طبية موضوعة خلف أذنها، سألها عنها، فأجابته بخجل شديد وهي تخفي يدها في حجرها:

- إنه نوع من الدواء، يخفف الرعشة.

فكر السيد هود: لا يمكن لهذه المرأة أن تقتل أحداً بيدين مرتعدتين كهاتين.

انزعج «درويش» لإقحام السيد هود أنفه في الاستجواب بأسئلة لا نفع منها، توجه بسؤال آخر صوب المرأة، محتداً من غير قصد:

- متى سمعتِ صوت الخلاط بالتحديد؟

- تقريباً الساعة الثانية عشرة ونصف، هذا هو الموعد المعتاد لإعداد مشروبها، ثم تأوي بعده إلى الفراش، كانت السيدة «جواهر» -رحمها الله- شديدة التنظيم بما يتعلق بمواعيد النوم والاستيقاظ.

- هل للضحية أقارب؟

- زوجها توفي قبل عشر سنوات تقريباً، لها ابن وحيد يعمل صيدلياً في الخارج، متزوج ولديه ولدان صغيران، لطالما كانت تشكو من كونه لم يزرها ولا مرة طوال سنوات سفره الخمس، كانت امرأة مسكينة وحيدة، رحمها الله.

تبادل السيد هود و«درويش» نظرة فحواها: لا سرقة، ولا عداوات، لماذا قُتِلَت تلك العجوز إذن؟

ما من جريمة إلا ولها أسباب، وما من مجرم إلا وله دافع، كيف تخلو تلك الجرائم من الأسباب والدوافع؟

كيف؟

(13)

وحدها العجوز تعرف

أي جريمة تتكون من عناصر أربعة، الجاني، والضحية، ومكان الواقعة، **وأداة الجريمة.**

شعر السيد هود أن أغرب ما في هذه القضية هو عنصرها الأخير، لماذا يختار المجرم أن يُفرغ جسد ضحيته من الدماء وهما على قيد الحياة؟

لماذا يعذبهما بتلك الطريقة الرهيبة، بينما كان من الأسهل قتلهما بطريقة سريعة وحاسمة، توفر الوقت والجهد، كطلقة رصاصة أو طعنة نافذة في القلب؟

«سنية»، امرأة محبة ترعى حفيدها اليتيم، لا خلافات لها سوى مع زوجها على ملكية المطعم.

و«جواهر»، امرأة وحيدة لا أنيس لها، تحصي الأيام في رتابة، لا تغادر بيتها إلا مرة أسبوعيًّا لجلب أغراضها، ويمكن توقع خطوتها القادمة بسهولة.

ما الدافع لقتلهما إذن؟

- هل نواجه قاتلًا متسلسلاً؟

السؤال الذي ألقاه «درويش» وهو يشعل سيجارته بعصبية بينما يقف أمام المبنى، في انتظار تجهيز الجثّة وإنزالها، تلقاه السيد هود بهدوء.

كانت الجثّة في هذه اللحظات تُعَد لتوضع بعناية داخل حافظة جثث محكمة الغلق، من البلاستيك السميك المقاوم للسوائل، تُعرَف بين رجال الأمن باسم «الكيس الأسود».

قال السيد هود وقد أزعجه دخان السيجارة الذي ألقاه الريح على وجهه:

- كي نطلق مسمى «جرائم متسلسلة»، لا بدَّ أن يكون لدينا ثلاث ضحايا على الأقل.

- إذن ننتظر إلى أن يضرب المجرم من جديد؟ يا لها من خطة عظيمة.

ينفث «درويش» دخان سيجارته بعصبية مفرطة، ساخرًا ومعنفًا، ثم يردف:

- أكره أن أكون في موضع العاجز.

- أظن أن هذا يبرئ الزوج الذي تتحفظ عليه في الحجز.

- من قال ذلك؟ ما زال «**محسن سرحان**» هو المتهم الأول بالتأكيد.

السيدة «جواهر» قُتلت قبل يومين، لقد ارتكب الجريمتين في الليلة نفسها، ينقصني فقط دليل مادي يربطه بالجريمة الثانية، ثم أسلم ملفه للنيابة العامة.

- لكن لا شيء يربط بين الضحيتين من الأساس يا «درويش»!

- وهل يحتاج القتلة المهبولون إلى روابط؟ ثم لا تنسَ أن كلتيهما في عمر متقارب، ويسكنان بالقرب من بعضهما بفارق شارع واحد، ربما لديه مشكلة مع تلك المنطقة بالتحديد، أو يحقد على النساء ما فوق الخمسين لأي سبب لعين.

صرخ مناديًا في معاون المباحث الملازم أول «عمرو»، يأمره بأخذ قوة لتطويق الشارع، واستجواب كل من يقع داخل دائرة قطرها خمسمائة متر.

- أوامرك يا «درويش» بك.

يدرك السيد هود كونها خطوة متأخرة كثيرًا، لن يعثروا على المجرم في مكان قريب، ولن يجدوا كذلك شاهدًا واحدًا رأى أو سمع ما يفيد، في حين أن جارتها التي تسكن على بعد خطوات منها لم ترَ ولم تسمع شيئًا.

هذه الجريمة تمت بحرفية شديدة، وبخطة غاية في الإحكام، مع سبق إصرار وتخطيط.

لكن تُرى أيهما قُتلت أولًا: «سنية» أم «جواهر»؟

- أنت بحاجة إلى التفكير خارج الصندوق يا «درويش».

- اللعنة عليك، ماذا تفعل هنا من الأساس؟

- لماذا تتغابى؟ أخبرتك أن أباك أمرني بالمشاركة مع فريق البحث الجنائي المشتغل بهذه القضية، دون أن يخبرني بسبب رغبته تلك.

- أنت الذي تتغابى، أتحسب أنني سأصدق أن سيادة اللواء لم يخبرك بسبب دفعه لك أنت بالذات تجاه هذه القضية؟

- ما يهمني أكثر هو لماذا تريد أنت إبعادي عنها؟

- حمايةً لك، ألم تفكر في ذلك؟

- لست طفلًا يحتاج إلى الرعاية، إذا قلتُ إنني قادر على العمل فأنا قادر عليه.

- هراء، أنت تعاند فحسب، ولا أعرف لماذا تثير هذه القضية فضولك إلى هذا الحد، لماذا لا تنشغل بتلك المرأة زوجة عجل البحر، ألم تدعُك لمغازلتها؟ أقصد مساعدتها.

كان الغضب قد تملك من السيد هود، إلى الحد الذي ما عاد بإمكانه احتواؤه داخل حدود الحصافة، رفع كفه يدفع كتف «درويش» بقوة.

لم يتمالك الأخير أعصابه كذلك، ألقى سيجارته أرضًا وصاح بهود موبخًا:

- تجاوزت حدودك يا «هود».

- بل أنت من تجاوز الحدود.

- لا مكان لك هنا.

- سيادة اللواء هو من يقرر ذلك، لطالما كنتَ طفلًا مدللًا يغار من اهتمام والده بي.

- سيادة اللواء لا يعبأ بأمرك يا أحمق.

- بل أنت الذي لا يعبأ بأمري، تمنعني من التعامل مع قضية مهمة المديرية كلها تتحدث عنها وتزعم أن هذا لصالحي.

- أبي يظن أن لتلك الجرائم علاقة بحادثة قتل أمك، لذلك يقحمك في الأحداث كي يحفز عقلك ويجبره على التذكر، إنه يستغلك، افهم.

نزل هذا الكشف على رأسه كصاعقة، استنفرت كل خلية في جسده، تسارعت نبضات قلبه، وتفصد جبينه عن عرق الإثارة.

- ولماذا يظن ذلك؟ قاتل أمي يقضي عقوبته في السجن.

اعترى «درويش» الندم، وبخاصة بعدما رأى عبرات رقراقة تغشي بصر السيد هود، وهو يستعيد تلك الذكرى الأليمة، لكن السهم كان قد انطلق من القوس، ولم يعد له من رجعة.

- يظن أبي أن تلك الجرائم مقلدة، المجرم في هذه القضية يقلد قاتل أمك، لكنه افتراض سخيف غير قائم على أسس راسخة.

- وما وجه التشابه بين القضيتين؟ من وجهة نظر والدك أقصد، هيا، أخبرني، لستُ طفلًا، أستطيع أن أتحمل سماع التفاصيل.

- لا دلائل قوية صدقني، لا أكثر من الحزام الأصفر الفاقع الذي يطوق خصر الضحيتين بشدة فوق ردائهما المنزلي، كان حول خصر أمك واحد باللون نفسه.

استوقفه هذا الكشف الجديد، لطالما تساءل طوال عمره عن سر خوفه من اللون الأصفر، لم تسعفه ذاكرته المشوشة لتذكر لون الحزام الذي كانت ترتديه أمه وهي ممددة فوق الأرض بلا حراك.

بل لا يتذكر أن أمه تملك واحدًا، لم يَرَها من قبل ترتدي الأحزمة، لا داخل البيت ولا خارجه.

لم يدرك من قبل أن سبب خوفه المرضي متعلق بالحادثة بشكل مباشر.

والآن عرف.

- أهذا فحسب؟

- أيضًا الطعنات الثلاث في صدر الضحيتين، كما رأيت، إنها مجرد طعنات سطحية غير عميقة من الخنجر الخشبي المدسوس في فم كل منهما، أما أمك فكانت طعناتها الثلاث حقيقية، من خنجر حقيقي وُجد ملقى بجوارها.

معلومة أخرى غابت عن إدراكه عمرًا بأكمله، عندما رأى دماء أمه خارج جسدها لم يتوقف لمعرفة كيف تركت الجسد الدافئ وفضلت الرقاد فوق الأرض الباردة.

ولم يحاول يومًا أن يعرف، كل ما كان يعرفه أنها قُتلت طعنًا، الأداة المستخدمة لم تشكل له فارقًا، لم يحاول يومًا السؤال عنها.

أو لعله كان يعرف، وبقيت تلك الذكرى حبيسه عقله الباطن، مختفيه بين تلافيفه.

قفزت صورة «ساري» إلى ذهنه مثل طلقة من مسدس كاتم للصوت، قادرة على إحداث كارثة دون أن يسمع أحد. «ساري» أيضًا رآها في جريمة متخيَّلة داخل رأسه تُقتل بالخنجر.

أكان كل ذلك تحفيزًا من علقه اللاواعي كي يتذكر ما حدث مع أمه؟ هل أسقط عقله الباطن جريمة أمه على «ساري» ونسج فيلمًا يدور في رأسه ليدفعه للتنقيب عن ذكرياته المنسية؟

كان «درويش» محقًا، المخ عضو مخادع لئيم، ينسج القصص كما لو كانت وقائع حقيقية!

- هذا سخيف، أبوك مخطئ بالتأكيد، لماذا تُقلَّد تلك الجريمة بالذات، وبعد مرور عشرين عامًا عليها؟

- هذا ما أقوله أنا أيضًا، لكنك تعرف سيادة اللواء، رجل متزمت لا يتخلى عن قناعاته بسهولة.

صار الجثمان في هذه اللحظة جاهزًا، بعد أن أتم فريق النيابة المعاينة، وعُلِّقت بطاقة تعريفية مؤقتة على «الكيس الأسود» باسم الضحية وتاريخ وساعة النقل، استعدادًا لنقلها إلى دائرة الطب الشرعي.

تحرك فردان من أمناء الشرطة بـ «الكيس الأسود» في اتجاه سيارة الإسعاف المتوقفة أمام البناية، وذلك عندما كان «درويش» يحرك علبة السجائر بين أنامله بعصبية، مُقلّبًا إياها رأسًا على عقب.

مستجلبًا بذلك اهتمام السيد هود، الذي انعقد جبينه مفكرًا.

مر برأس السيد هود هاجس مباغت، دفعه لمطالعة الصور التي التقطها بعدسته، والمخزنة بكاميرته، إلى أن توقف عند واحدة بعينها.

قرب شاشة الكاميرا من «درويش»، وكبّر إحدى الصور متسائلًا بلهفة شديدة:

- هل كان جبين الضحية الأولى به هذه الجروح الدقيقة المتجمعة في شكل مربع؟

- نعم، قال الطبيب الشرعي إنها حدثت بعد الوفاة باستخدام أداة معدنية، لكنها بلا معنى، مجرد جروح عشوائية.

- ليست عشوائية!

طلب السيد هود من حَمَلة الجثة أن يتوقفوا، فتح السحاب، ثم أخذ يتأمل جبين الضحية بعناية فائقة، وأخيرًا أشار إلى الجروح القطعية قائلًا بانفعال:

- انظر جيدًا يا «درويش»، بماذا تُذكرك؟

- لست في بال رائق للعبة التخمين، قل ما عندك مباشرة.

- أعطني علبة سجائرك.

- لماذا؟ ما علاقة ذلك بـ...

- أعطني علبة سجائرك!

ما إن التقطها السيد هود حتى أدارها، ووضعها أمام عيني صديقه الذي قال بحنق واندفاع:

- لا أفهم لماذا تجعلني أنظر إلى علبة سجائري، قلتُ لك من البداية إنك لست مستعدًا للعودة إلى العمل الميداني، إن الانهيار العصبي الأخير..

- انظر إلى الباركود.

- ما به الباركود؟

- ألا تشبه الجروح في جبين الضحية رمز الاستجابة السريعة ثنائية الأبعاد (**QR Code**) المطبوع فوق المنتجات لتخزين البيانات؟

دقق «درويش» النظر إلى جبين الضحية وقد أذهلته المفاجأة، وقبل أن يسترد سرعة البديهة المطلوبة، كان السيد هود قد أخرج هاتفه، واستخدم تطبيقًا متطورًا لقراءة رموز الاستجابة السريعة.

شدَّ بإصبعيه جبين الجثة، كي تظهر الجروح بوضوح أكبر، بينما التقط بشاشة هاتفه صورة لها أردف بحماس:

- هذه الرموز بداخلها الكثير من البيانات أكثر مما يحتمله الباركود التقليدي، كما أن لها مزية مهمة وهي أن بها منطقة لتصحيح الخطأ، أي يمكن قراءتها حتى لو تلفت بعض أجزائها، يمكنها أن تُخزّن أي شيء بداخلها بدءًا من النصوص والمواقع والأرقام وعناوين البريد الإلكتروني وأكواد الدفع وخصم المنتجات.

تجتاحه إثارة بالغة، وعندما يشعر السيد هود بالإثارة فإنه يثرثر.

ما إن حوَّل التطبيق الرمز إلى رابط، حتى اشتعلت حماسة الجميع، يتطلعون إلى محتويات الموقع الذي ظهر أمامهم بتوجس رهيب.

لكن الرابط أفضى بهم إلى صفحة بيضاء، لا شيء فيها سوى شريط حداد **أسود على الجانب العلوي الأيمن.**

لا شيء بداخلها، لا شيء على الإطلاق!

يا لها من خيبة أمل.

تمتم السيد هود ذاهلًا:

- لا بيانات مخزنة! الموقع خالٍ تمامًا من المعلومات، لماذا أنشأه المجرم إذن وصنع له رمزًا محفورًا على جبين الضحية؟

تأمل السيد هود وجه العجوز، محاولًا استنطاقها، وحدها تعرف الجاني، وحدها تعرف لماذا قُتلت.

هتف «درويش» بحنق:

- هل يمزح معنا هذا اللعين؟

لا يظن السيد هود أنها مزحة، بل خطوة في مرحلة، الشخص الذي يحرك الخيوط من وراء المسرح، لا بُد أنه يلعب.

لعبة صممها بعناية فائقة، ولا تشبه أي لعبة غيرها.

لكن مع من يلعبها بالضبط؟

الشرطة؟ أم الضحايا؟ أم طرف ثالث؟

(14)

حدوتة تبحث عن معنى

في مكتب «**درويش**» بمركز رأس البر، تناثرت أطباق الفوم فوق الطاولة الخشبية الموضوعة بين مقعدين متقابلين، يجلس «**هود**» فوق أحدهما، **ويتكئ** صديقه على حافة الآخر.

- نصحتك بأن نطلب الفطير من «الدمياطي»، لكنك أصررت على «دعدور»، ها أنا أشعر بالحموضة من الآن.

- لديك معدة متقرحة في جميع الأحوال يا «درويش». نصحتك كثيرًا بالزواج كي ترحم نفسك من مضار الطعام السريع.

- أنا متزوج بعملي، ولم ألتق بعد المرأة التي تقبل أن تكون زوجة ثانية، ثم الزواج لأجل هذا السبب يُشبه أن يقرر أحدهم إطلاق الرصاص على رأسه كي يهرب من عُسر بسيط في الهضم.

- الزواج ليس بغيضًا إلى هذا الحد.

- تجربتك أنت وأبي كانت أمثلة سيئة بما يكفي لأصرف نظر عن الفكرة.

- ألم تتواصل مع أمك مؤخرًا؟ كم مضى على آخر لقاء بينكما، ستة أشهر؟

- بل عشرة، أمي خلعتني وأبي في جلسة واحدة، وبَنَت لنفسها حياة جديدة وزوجًا وأولادًا، لا تفتقد لقاءاتي كما تتصور.

- أظنك تظلمها كثيرًا.

- ربما، لكن هذا ما أشعر به.

طرق العسكري الباب، ومضى يجمع ما تبعثر، وينظف ما تلطخ، وما إن انصرف حتى مال «**درويش**» بجسده، متكئًا بساعديه فوق ظهر المقعد، عاقدًا حاجبيه، ومفصحًا بحنق بادٍ على مُحياه:

- الكيفية التي يسير بها التحقيق تزعج النيابة، كدت أتشاجر على الهاتف مع الضابط المشرف على التحقيق بعدما لمح بالتشكيك في كفاءتي وأسلوبي في إدارة ملف القضية.

ضرب بقبضته فوق المكتب بعصبية ثم أردف:

- لا يرى أحد الجهود التي أبذلها هنا، حتى والدي لديه شكوك لا يخفيها بشأن كفاءتي، يتهمني بالتسرع والاندفاع، ويرسلك كي تشوش تفكيري.

- لستُ بصدد عرقلة أسلوبك في تسيير التحقيق، واطمئن، أنا لا أرى ما يراه أبوك من ربط هذه القضية بجريمة قتل أمي، لا شيء منطقي يجمعهما، ما يستند إليه سيادة اللواء في بناء رأيه مجرد أدلة ظرفية، الأحزمة الصفراء تتشابه.

- لكنه الوحيد الذي يرى العكس، أحيانًا أظن أن حادثة أمك كانت لعنة نزلت فوق رأسه، لا تسئ الفهم أرجوك، أنا مدرك كونها حادثة شاقة عليك، كانت ولا تزال كذلك، لكن أبي انغمس فيها بشكل مرضي يتنافى مع ما يمتاز به ضابط الشرطة عادة من احترافية، وقدرة على تحييد مشاعره الشخصية. أحبَّك مثل ابن له، أعرف ذلك، أحترمه وأقدره، أنا لا أشعر بالغيرة منك كما اتهمتني، لكن تلك القضية القديمة لم تغادر تفكيره طوال سنوات، واليوم يعيد وضعها فوق الطاولة، هذا ما يثير حنقي بشدة.

- أنا أيضًا فكرت في ذلك، واستغربته، رغم أنه قبض على المجرم وقتها، ونال وسامًا وترقية، أحيانًا يخيل إليَّ أنه لم يشعر بالفرحة بذلك، لم يفخر به كما يليق ببطل.

- وهذا ما لا أفهمه بدوري، عامة أنا لم أفهم أبي يومًا، لم يقربني منه كفاية لأفهمه.

- اترك هذا الآن ولنصب تركيزنا على ما نملكه بين أيدينا من معلومات، فربما نتمكن من الوصول إلى الضحية التالية.

- من قال إن هناك ضحية تالية؟

- ما الذي يدفع المجرم للتوقف عند اثنتين؟ هل يبدو لك أنه اكتفى؟ لو اكتفى ما كان ليحفر فوق جبين الضحية الأولى رمزًا يفضي بنا إلى الموقع الفارغ نفسه، الصفحة البيضاء نفسها التي يعلوها شريط أسود التي قادنا لها الرمز المحفور فوق جبين الضحية الثانية، اشتراكهما في الموقع يعني اشتراكهما في دافع القتل، كلتاهما ماتت للسبب نفسه، الذي لا يزال مجهولًا بالنسبة إلينا. ثم إن الحدوتة لم تكتمل بعد.

التقط السيد هود من فوق مكتب «درويش» كيس أدلة بلاستيكيًا، يحوي الخنجر الخشبي الذي كان مدسوسًا في فم الضحية الثانية «جواهر».

أعاد قراءة العبارة المحفورة فوقه بصوت جهوري:

- «في زمنٍ سُمّيَ بالعتيق، كانت عيون الليل تطيل التحديق».

- لماذا تظن أنها حدوتة؟

التقط السيد هود الخنجر الأول، ثم قرأهما معًا:

- «كان يا ما كان، حولنا في كل مكان، ظلال تُرَاقب وعيون لا تنام». «في زمنٍ سُمّيَ بالعتيق، كانت عيون الليل تطيل التحديق». إنها حدوتة، أليس هذا واضحًا؟

- لا معنى لها.

- لأنها لم تكتمل بعد.

- هل تقول لي إن لدينا قاتلًا متسلسلًا في رأس البر يقتل كي يحكي لنا حدوتة؟ إنها أغرب طريقة لروي الحواديت في التاريخ.

- كما تعلم، تنقصنا ضحية ثالثة لنجزم بوجود قاتل متسلسل.

- الموقع الإلكتروني اللعين لا يحوي أي بيانات مخزنة، طلبت من خبراء الأدلة الجنائية عرضه على الخبير السيبراني لفحصه والتوصل إلى العنوان الرقمي (IP) الخاص بالجهاز الذي استخدمه القاتل لإنشاء الموقع.

- إلى أن يصل التقرير، دعنا نقوم معًا بعصف ذهني كما اعتدنا في القضايا الصعبة.

خلع «درويش» معطفه، علقه على مشجب بجوار النافذة، ثم اتخذ مجلسه أمام السيد هود، الذي أمسك بورقة بيضاء وضعها فوق الطاولة بينهما، ثم أخذ يرسم خريطة ذهنية لكل ما حدث.

- لنحدد أولًا السمات المشتركة بين «سنية» و«جواهر»، كي نتمكن من العثور على نمط متكرر في الجريمتين، ومن خلال النمط سنتمكن من رسم السمات الشخصية والنفسية للقاتل.

- كلتاهما فوق الخمسين، وُلِدتا في رأس البر ولم تغادراها قط، تعيشان في المربع السكني نفسه، كلتاهما مالكتان للعشة التي تقيمان بها.

دَوَّنَ السيد هود كل ذلك في خارطته ثم أضاف إليها:

- حسب مناظرة الجثَّة في مسرح الجريمة، أفادت الملاحظات الأولية للطبيب الشرعي أن كلتيهما قُتلتا في الليلة نفسها، وبالطريقة نفسها، بتفريغ الدماء عن طريق العنق. لكننا لا نعرف أيهما قُتلت قبل الأخرى.

- والقاتل أعسر في الحالتين، تشير إلى ذلك الزاوية التي سُددت بها الطعنات.

- كِلتا الجثتين خاليتان من الجروح الدفاعية، مما يشير إلى معرفة الضحية بقاتلها لذلك لم تحمِ نفسها منه، وما يعزز هذه الفرضية أن باب العشة في الحالتين كان مفتوحًا دون أي أثر للاقتحام، النوافذ جميعها مغلقة، وتخلو العشتان من أي منفذ يستطيع القاتل من خلاله التسلل إلى الداخل.

- ثمة شيء مهم، عُثر على جثة «سنية» بسرعة لأن حفيدها كان معها داخل العشة، أما «جواهر» فقد كانت تعيش بمفردها لذلك لم نعرف بحدوث الجريمة إلا بعد مضي يومين.

- وهذا يشير إلى أن القاتل ليس على عجلة من أمره في إظهار جرائمه، يملك ما يكفي من الوقت والصبر، وحتمًا لديه ما يريد قوله.

- أتفق معك في كل ذلك يا «هود»، وبخاصة النقطة الأخيرة. الحدوتة التي يكتب كل مرة جزءًا منها على الخنجر الخشبي تشير إلى كونه شخصًا لديه ما يريد قوله، ويبحث باستماتة عمن يسمعه.

- ألم يُظهر فحص الخنجر الأول ما يفيد؟

تنهد «درويش» بأسى مجيبًا بحنق:

- لا بصمات، لا حمض نووي، كأن القاتل شبح لا جسد مادي له، سأرسل الخنجر الثاني للفحص لكنني واثق أننا لن نخرج بنتيجة مختلفة.

- هذا الرجل ماهر بحق، لديه ما يكفي من الذكاء للتخطيط، وما يكفي من الجرأة للتنفيذ

كتب السيد هود في منتصف الورقة سؤالًا، رسم حوله دائرة بالقلم وهو يقرؤه:

- ماذا يريد هذا المجرم؟ إن فهمنا دوافعه، سنتمكن بسهولة من التربص به. خلصنا حتى الآن إلى كونه رجلًا ذكيًا، مغامرًا، يعرف هدفه، ويعرف كيف يبلغه، يجيد التخطيط. يعرف رأس البر وسكانها جيدًا. لكن السؤال الأهم: من ستكون الضحية الثالثة؟

- لا يمكننا أن نجزم بكونه لم يكتفِ، ربما لديه مشكلة مع «سنية» و«جواهر» بالتحديد، وها هو قد حسمها بالشكل الذي يريده، ثم لعله مضطرًا إلى الاكتفاء لكونه محجوزًا في التخشيبة.

- «درويش» لا تقل لي إنك ما زلت تظن أن «محسن سرحان» هو القاتل، الرجل سبعيني وتبدو عليه سمات الطيبة والوقار، لا على سبيل الإهانة لكن الرجل لا يملك الذكاء الكافي للتخطيط، رجل بيتوتي أصيل.

- ألا تعرف كم تغيرت سمات المجرمين هذه الأيام؟ أصبحوا يشبهوننا كثيرًا يا صديقي، حتى إذا ما التقيت واحدًا منهم ظننت أنك تنظر إلى نفسك في المرآة.

- «محسن سرحان» لا يجيد اللعب، بينما المجرم الذي نبحث عنه مغرم ببناء لعبة محكمة التفاصيل، ولعبته تلك لم تنتهِ بعد يا «درويش»، ما زلنا في مراحلها الأولى.

- اللعنة عليه وعلى لعبته، لن تكون هناك ضحية ثالثة. رغم أنني موقن من كون «محسن سرحان» هو القاتل، فإنني أمرت بتطويق المربع السكني لمسكن الضحيتين، ودسست مخبرين بملابس مدنية في المحال المجاورة.

- وهل أَمَّنْتَ مسرحَي الجريمة؟

- بالطبع، وكُلِّفت دورية أمنية بالمراقبة، بعض المجرمين لا يستطيعون مقاومة إغراء العودة إلى مسرح الجريمة مرة أخرى، إذا فعل ذلك فسنكون بانتظاره، وعامة مهما كانت هوية المجرم فلن يفلت من يدي.

- تبدو واثقًا.

أمال رأسه وابتسم هازئًا:

- إن حاول قتل الثالثة سيجدنا في انتظاره، أما إذا لم تحدث أي جريمة أخرى، فهذا معناه أن «محسن سرحان» هو المجرم كما أقول منذ البداية، تخلص من زوجته ثم قتل الأخرى ليوهمنا أن ثمة قاتلًا يجوب رأس البر يقتل النساء بعشوائية. عندها سأتم إجراءات الملف وسأحوله إلى النيابة وأكسر خلف هذه القضية ألف زير.

نهض السيد هود الذي شعر بأرق الليالي السابقة يعمل كمطرقة تضرب كل موضع من جسده، يلقي على صديقه نظرة جادة قائلًا:

- لا تنسَ ما اتفقنا عليه. «ساري» ومشكلتها، لا أريدها أن تبيت ليلة أخرى مع هذا الحقير في عشة واحدة.

أومأ «درويش» برأسه وهو يمسح وجهه بكفيه عله يزيل ما به من آثار إرهاق عالقة:

- لا تقلق، كلفت أحد عناصر الأمن بالتحري عن «نسيم» مستخدمًا تفاصيل هويته الشخصية التي دونت في بيانات المحضر، إذا كان الرجل بالفعل يختطف الفتاة وينتحل صفة زوجها، فسأستمتع كثيرًا بإلقائه في التخشيبة بنفسي.

ثم رفع إصبعه محذرًا:

- ستنتظر ما تفضي إليه التحريات، غدًا صباحًا سأكون قد عرفت كل شيء عنه منذ أن ولدته أمه، لن تقترب من الرجل حتى يصبح في حوزتنا مستند رسمي يدينه، إياك أن تتهور.

أومأ السيد هود برأسه مستسلمًا رغمًا عنه، هذا يعني ليلة أخرى ستبيتها «ساري» برفقة هذا الحقير، يبدو أنها ستكون ليلة طويلة يجالسه فيها الغضب.

ما إن دار على عقبيه لمغادرة المكتب حتى فوجئ بالباب ينفتح، ومن خلفه يندفع اللواء «لطفي درويش» مثل طلقة نافذة.

- أبي؟ أقصد سيادة اللواء، خيرًا، ماذا حدث لتأتي من دمياط إلى هنا؟

تنطلق شرارات الغضب من عينيه لتزيد من درجة حرارة الغرفة، يقول ساخطًا ومحتدًا:

- لماذا لم تربط في تحقيقاتك بين القضية الجديدة والقديمة كما أمرتك أن تفعل؟

- لأنني غير مقتنع بوجود صلة بين القضيتين يا سيادة اللواء، وقبل أن تقول شيئًا أريدك أن تعرف أن «هود» يوافقني الرأي.

التفت اللواء إلى السيد هود بعاطفة خففت الكثير من حدته، إلا أنه قال بقوة:

- لم أرد إعلامك يا «هود» بسبب اختياري لك للانضمام إلى الفريق الجنائي في هذه القضية، أردت لمشاعرك أن تتدفق دون أي مؤثر خارجي.

- أعتذر منك يا سيادة اللواء إن خيبت أملك، لكنني لم أتذكر أي شيء على الإطلاق.

- لم أرسلك لتتذكر يا «هود»، بل لتشعر.

- لم أشعر بشيء يستحق الذكر.

تبدت خيبة الأمل فوق قسمات «درويش الكبير»، بيد أن هذا لم يوقفه عن تقريع «درويش الصغير» لمخالفته أمرًا مباشرًا.

- يا سيادة اللواء أنت تعيق التحقيق الجاري لأجل أوهام لا دليل عليها، لماذا يقلد أحدهم جريمة وقعت في أواخر التسعينيات؟ هل كان مجرمك هذا قدوة أو أسطورة أو ما شابه كي يأتي مجرم آخر ويقلده؟ هل تحسبه «جاك السفاح» أو «زودياك»؟ إنه مجرد قرداتي حقير، من فضلك اتركني أبحث عن القاتل دون مشتتات تعيق مسار التحقيق.

انتبه كلاهما إلى الورقة التي يحملها اللواء منذ دخوله، وذلك عندما ألقاها فوق المكتب أمام «درويش»، الذي تساءل بفتور دون أن يفكر في لمسها:

- ما هذا؟ دليل ظرفي آخر.

- بل احتمال لا تستطيع إغفاله.

استُنفرت أعصاب الصديقين وتبادلا نظرات حيرة، ما لبثت أن تضاعفت عندما أردف اللواء بقوة وثقة متناهية:

- ربما «مبسوط القرداتي» ليس «جاك السفاح» أو «زودياك» ليكون له مُقلّدون وأتباع، لكنه قد يعرف شيئًا عن هذه القضية.

- لا أصدق يا أبي أنك ما زلت مهووسًا برجل يمضي عقوبته داخل السجن معزولًا عن العالم، أتعرف؟ أحيانًا أظن أنك المحبوس في تلك القضية وليس ذاك «القرداتي».

أشار اللواء بسبابة يمناه صوب الورقة الملقاة فوق المكتب مع نظرات زاجرة آمرة، على إثرها التقط «درويش» الورقة بحنق، ثم تمتم ساخرًا:

- لنرَ ما المكتوب في هذه الورقة، وكيف أنها وثيقة خطيرة لدرجة أن تأتي بسيادة اللواء إلينا، وتجعله يـ...

توقفت الكلمات في حلق «درويش» لا تجد لنفسها مخرجًا، إذ كان فمه مطبقًا بينما يقرأ ما بداخل الورقة سطرًا سطرًا.

انتهى، فرفع إلى اللواء نظرات حيرة، أثارت فضول السيد هود فسأله:

- ما بها يا «درويش»؟

نزع الورقة من بين أنامل صديقه المتراخية، طالعها بدوره، ازداد وجهه احتقانًا، وأطبق على شفتيه بدوره.

شعر بلسعة الدموع في عينيه، انفرجت شفتاه أخيرًا تعيدان ترديد ما قرأ:

-... وصدر قرارنا هذا بالإفراج عن المتهم «مبسوط رشدي الدرملي» المشهور بـ «مبسوط القرداتي»، حُسن سير وسلوك.

نظر إلى تاريخ القرار فوجده قد صدر قبل ستة أشهر كاملة!

توقف به الزمن، ثم دار، ملقيًا إياه عند اللحظة التي أخبره فيها «درويش الكبير» أنه قبض على قاتل أمه، وأنه سيمضي حياته كلها حبيس القضبان إلى أن يتعفن جسده، ها هو أصبح حُرًّا، بينما أمه حبيسة قبرها.

- أعرف كم أن هذا صعب عليك يا بني.

ربت «درويش الكبير» كتف السيد هود محاولًا تخفيف وقع المفاجأة، ثم دس كفيه في جيبيه، وألقى أوامر بنبرة حاسمة:

- مضى على الإفراج عنه ستة أشهر، قد يكون تحدث إلى أحد عن جريمته، أو ثرثر هنا وهناك عن تفاصيلها غير المعلنة وبخاصة تفصيلة الحزام الأصفر، فوصلت تلك المعلومة إلى القاتل وقرر استغلالها في جرائمه. استصدر أمرًا من النيابة باستجواب «مبسوط القرداتي»، عرفتُ أنه لا يزال يسكن عشته القديمة بطريق رأس البر القديم.

فأومأ «درويش الصغير» برأسه صاغرًا.

(15)

الموعد الذي قتل شيئًا

قاتل أمه أصبح حرًا، بينما هو لا يزال أسير الذكرى، أي عدالة تلك؟

«سيدة العدالة» معصوبة العينين، تمثال يوضع في ساحات المحاكم، تحمل بيدها ميزان العدل، وبالأخرى سيف الردع.

يُقال إن أصل «سيدة العدالة» يرجع إلى «ماعت» آلهة العدل في مصر القديمة، وما كان يثير حفيظة السيد هود هو عيناها المعصوبتان.

يجعلونها عمياء كي لا تميز بين غني وفقير، أبيض وأسود، وضيع وأهل حسب ونسب، تحكم استنادًا إلى الحقائق لا الأهواء، فهل العدالة حقًا محايدة؟

الجرائم التي عمل عليها كمصور جنائي وفلت منها المجرم من العقاب، إما لثغرة في التحقيق، وإما لعدم كفاية الأدلة، وإما لتذبذب البراهين، جعلته يرى سيدة العدالة كامرأة لا عمياء فحسب، بل لا ضمير لها، مفرغة من الداخل.

امرأة عاجزة، مقيدة بسلاسل العادات، والبيروقراطية، وبطء الإجراءات، والقيود الإجرائية، وفهم الأدلة، وتفسير القوانين، والخطأ البشري، والفساد، والتزييف، والإخفاء، والتلاعب، والتحيزات.

بينما العدالة في أصلها مبدأ وتكليف إلهي، وصفة من صفات الله المطلقة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.(1)4

عندما أخبره اللواء «لطفي درويش» أنه قبض على قاتل أمه، وأنه سيقضي عمره كله أسيرًا ذليلاً، لم يحزن لذلك، ولم يفرح، كانت العدالة في نظره تقتضي القصاص قتلاً.

قتَل أمه، فوجب قتله، هكذا ببساطة.

وعجز اللواء يومها عن أن يشرح لطفل صغير التعقيدات القانونية التي جعلت القاتل يتنفس فوق الأرض، بينما أمه ترقد تحتها.

طاقت بخاطر السيد هود عبارة منسوبة إلى الإمام علي بن أبي طالب، تقول: «العدل أساس الملك».

العدل ليس رفاهية، بل شرطًا أساسيًا للبقاء، أو كما يقول ابن خلدون: «الظلم مؤذن بخراب العمران».

أحيانًا يميل التفكير برأس السيد هود فيرى أن ما يحدث من جرائم مروعة وحوادث مخيفة، هو في الواقع ضرب من «العدالة السامية»، يجب ألا يعيش نصف العالم هانئًا بينما نصفه الآخر يعاني.

كان شاردًا عندما بلغ شرفته المظلمة، لم يكن ضوء العمود البعيد كافيًا ليكشف كل أركانها.

- أين كنت؟ لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟

ما إن سمع صوت «ساري» يتهادى في العتمة حتى توقف فوق الدرجة الأخيرة.

وجهها بعيد عن مرمى أشعة الضوء، رغم ذلك ميَّز صوتها، وشعرها، ووقفتها، وحضورها.

لم تنتظره زوجته السابقة في المساءات الباردة، كانت تحرص على أن تزيف نومها، فيرقد إلى جوارها متظاهرًا أنه صدق حيلتها.

أطرق قليلاً، ثم أفصح:

- هل تعرفين؟ أنا لم أسمع هذا السؤال منذ أن كنتُ طفلاً في السابعة.

دنت خطوتين إلى الأمام إلى أن سقط ضوء مصباح عمود الإنارة فوق وجهها، بدت في حالة مزرية، هشة وباكية.

- ما بك؟ هل فعل لك هذا الحقير شيئًا؟ أين هو؟

حكَّت ذراعيها بباطن كفيها تلتمس شيئًا من الدفء في ليلة عضّها الصقيع ومضغها.

- نائم، نومه ثقيل للغاية، دعك من هذا الآن، سمعتُ أن ثمة قاتلاً عاث في رأس البر.

- من أخبرك؟

- الأخبار تتناقل بسهولة في المدن الصغيرة، هذا فضلًا عن أن الحادثتين وقعتا بالقرب من هنا، امرأتان مقتولتان في ظروف غامضة، ولم يُقبض بعدُ على الفاعل، أخبرني بالتفاصيل، أريد أن أطمئن، أكاد أموت رعبًا.

- ولماذا تظنين أنني أعرف شيئًا؟

- أخبرني «نسيم» أنك مصور جنائي تعمل على مثل هذه القضايا، رآك اليوم خارج بناية الضحية الثانية، كان واقفًا مع الناس المتجمهرة.

- لم أره.

- واثقة من ذلك، لو رأيته، لظهرت آثار هذا اللقاء على وجهه.

تقول ذلك وتمنحه نظرة من يعرف ما يمكن أن يفعله لأجلها. تسرب إلى صدر السيد هود شيء من البهجة يفسح لنفسه معبرًا صغيرًا بين مشاعره.

زأرت الريح في وجهيهما، فتح باب العشة وقدّم لها بكفه المبسوطة دعوة صامتة، للدخول والاحتماء من لسعات البرد وسياطه الغليظة.

تُبدي ترددًا ملحوظًا، وترسل نظرة سريعة صوب العشة التي تسكنها، ثم تقرر أخيرًا تلبية الدعوة.

- ماذا تشربين؟

- لا شيء، فقط أريد أن أعرف ماذا يدور هنا كي آخذ حذري.

- سأعد السحلب فيما نتحدث.

دخل مطبخًا من غير باب يحجب الصوت أو يخففه، تحدث إليها بينما يعد مشروب التدفئة:

- جريمتان متتابعتان لامرأتين تسكنان بالقرب من هنا، لكن الشرطة تعمل على قدم وساق من أجل القبض على المجرم.

تتأمل محتويات العشة بنظرة متفحصة، تشبه عشتها إلى حد بعيد، من حيث الأثاث فحسب، أما النظام فكان في غاية العشوائية.

كاميرا وحقيبة فوق الطاولة، وملابس في الأرض متناثرة، وحذاء بفردة واحدة وأخرى ضائعة، وعلب طعام سريع فارغة مجمعة فوق بعضها في أحد الأركان. سمعته يردف:

- القاتل لديه هوس بالنساء فوق الخمسين، أي أنك بأمان، لا تقلقي.

متجاهلة صوت ما يسقط وما ينسكب بالداخل، أمالت عنقها صوب الممر القصير الذي يفضي إلى المطبخ، كي يبلغ صوتها المتسائل مسمعه:

- هل عرفتم السبب الذي لأجله يرتكب هذه الجرائم البشعة؟

- ليس بعد، عادة ما نفهم الدافع من السمات المشتركة بين الجرائم، كل ما نعرفه حتى الآن أن القاتل لديه مشكلة مع هذا المربع السكني، لكن لا تخافي، ثمة دورية تراقب هذه الشوارع جيدًا.

- رأيتها بالفعل، وهذا ما أخافني أكثر، هل تظن أنه سيقدم على جريمة أخرى؟

- هذا احتمال وارد.

- أظن أن عملك شاق للغاية، أقصد تحديد ما يجب تصويره وما يصح التغافل عنه في مسرح الجريمة، واستنباط الأدلة المحتملة والتركيز عليها، ثم ربطها بالجاني، لا أفهم كيف تفعل ذلك.

انتهى من إعداد كوبين من السحلب، سألها إن كانت تفضل المكسرات أم القرفة، فأخبرته أنها تفضل كليهما.

- سألتني هذه المرة، هذا جيد، لم تختر بنفسك مثل المرة السابقة.

- ألا تحبين مثلجات الشوكولاتة؟

- أبغضها.

- وأنا كذلك.

تبادلا ابتسامة صغيرة، اختفت سريعًا وتوارت خلف الشرود الممزوج بالقلق.

جمع السيد هود أغراضه المتناثرة شاعرًا بالحرج، ألقاها فوق الفراش كيفما اتفق، ثم أغلق باب غرفة النوم التي لم تكن في حالة أفضل من الصالة.

عمد إلى تبديد هذا التوتر اللزج بإجابة سؤالها:

- تحديد ما يجب تصويره بعناية يحتاج إلى خبرة ومران، هل سمعتِ من قبل عن «نظرية المبادلة»؟

هزت رأسها نفيًا فاستطرد:

- لا يتلامس شيئان في مسرح الجريمة إلا ويترك كل منهما أثره على الآخر، كل ما لمسه الجاني أو سقط عنه أو احتك به يتحول إلى دليل غاية في الأهمية ومرشد صامت يساهم في العثور عليه.

بُحب الحديث عن عمله كمن يتحدث عن معشوقته.

رائحة اليود البحري تعبئ العشة، وتمتزج برائحة السحلب. يتخذ كلٌّ منهما مقعده فوق إحدى الأرائك، وجهًا لوجه، يرتشف كلٌّ من كوبه، ويشرد بعيدًا بعيدًا.

- بالمناسبة.

همس بذلك بعد فترة فأولته جُل انتباهها، وضع الكوب الزجاجي فوق الطاولة إلى أن يبرد قليلًا، ثم أردف:

- قريبًا ستتخلصين من هذا الكابوس.

- كيف ذلك؟

- طلبت مساعدة «درويش»، صديقي الذي رأيته تلك الليلة.

- النقيب؟ ماذا سيفعل؟

- سنثبت نصبه واحتياله وانتحاله لصفة زوجك، سيُزج به في السجن، سأكون معك في كل خطوة، اطمئني.

لم يَرَ وجهها ينبسط فرحًا كما ودَّ، بل تزايد قلقها، هل تشك في كونه قادرًا على دعمها؟

أراحت ظهرها إلى الأريكة، رشفت من مشروبها الساخن رشفاتٍ متتابعة، تراقب السيد هود من طرف خفي، السيد هود الذي بدا منهكًا، جسديًا ونفسيًا وذهنيًا.

- هل ترهقك القضية إلى هذا الحد؟ ألا يتوقف عملك عند تصوير مسرح الجريمة؟

- هذا ما يجب أن يحدث، لكن بعضنا يأخذ العمل معه إلى البيت.

- ألا تؤثر بك مشاهدة كل تلك الجرائم الدامية؟

التقت أعينهما للحظة كان خلالها صادقًا إذ أفصح:

- تؤثر، وبشدة.

- لماذا إذن؟

- لماذا أستمر في هذا العمل؟ لا أدري، كأنني أبحث عن شيء لا أستطيع الاستمرار دونه، وهذا الشيء لا أجده إلا وسط القضايا التي أعمل عليها.

- عمَّ تبحث بالضبط؟

فكر طويلًا، وارتشف كثيرًا إلى أن أنهى نصف كوبه، وعندما ظننت أنه لن يجيب، قرر أن يجيب:

- هل سمعتِ من قبل عن «الاجترار العاطفي»؟ الرغبة القهرية في اجترار المشاعر المؤلمة التي اختبرناها سابقًا في حادثة قاسية أو موقف عصيب؟

- أحب أن أسمع.

- عندما يواجه الإنسان موقفًا ما، كان فيه فاقدًا للسيطرة على مجريات الأمور، أو تعرض خلاله لأذى شديد، يشعر بعدها برغبة عارمة في اجترار هذا الحادث نفسيًا وفكريًا، يتخيله باستمرار وينسج سيناريوهات مختلفة تتلاقى جميعها عند النقطة التي سببت له هذا الألم الرهيب، هل تعرفين لمَ سمي ذلك «بالاجترار»؟ تشبهًا بـ «المجترات» مثل البقر والظباء والغنم والجمال، إذ تبتلع حصة طعامها بمضغه مضغًا سريعًا أوليًا، وتخزنه في مكان مخصص بجهازها الهضمي، وعند الحاجة، تتقيأه إلى أن يبلغ تجويف فمها، ثم تمضغه بشكل كامل، وتبتلعه من جديد.

- ولماذا تتقيأ ألمك؟

- لأبحث عن سيناريوهات مخففة، بنهايات أقل بؤسًا، أتمكن خلالها من إنقاذ أمي، أو حتى تذكر ما حدث لها.

حمله بساط الزمن وألقى به في أواخر التسعينيات، تتلقفه الأرض وتهدهده مثلما كانت تفعل أمه، ثم تلقي به في عشته القديمة.

صوت أمه يملأ الأرجاء، حديثها، ضحكتها، بكاؤها، وصرخاتها عليه وهي تنهره عن تأخره في عمل الواجب، تعنفه على كذبة اختلقها، أو دخوله في مشاجرة، أو لأنه لا يتناول طعامه كله.

يتذكر تلك اللحظات الآن كنعيم حُرم منه.

قرأ الفضول فوق شفتي «ساري» وإن لم يلُكه لسانها، عادة ما يحب السيد هود أن يظل غامضًا في عيون الآخرين، إلا أنه في هذه اللحظة شعر بحاجة مُلِحّة إلى المكاشفة، رغبة عارمة في أن يتعرّى، ربما تمتد إلى جرحه يدها بالطيب والنفع.

ما إن انتهى من سرد قصته في عبارات قصيرة متتابعة، حتى أخذ شهيقًا عميقًا أخرجه في زفرة واحدة.

- ولا تتذكر أي شيء عن هذا الحادث؟ لا شيء على الإطلاق؟

- ذات مرة، فحصني طبيب متطوع اعتاد أن يزور دار الأيتام، بعد الحادث بعامين تقريبًا، قال إن نسياني نعمة رزقني الله بها وعليّ أن أحمده وأشكره، ثم أخذ يثرثر عن الناس الذين يتمنون مقايضة ذكرياتهم القاسية أو حذفها تمامًا من عقولهم، لكنني لم أشعر بالامتنان حينها، ولا أشعر به الآن، نسيان تفاصيل الحادث جعلني أقضي حياتي في تخيل ألف قصة محتملة، وأعيشها كما لو كانت هي الحقيقة وما سواها ظنون، ثم أنتقل برأسي إلى تفاصيل أخرى، فأصدقها، ثم أبدل بينها، وأعيد تصديقها.

في إعياء أشار السيد هود إلى جانب رأسه بمرارة يقول:

- أنت لا تعرفين قسوة الحياة التي يضطر فيها المرء كل يوم إلى أن يعيش تفاصيل جريمة في رأسه، ضحيتها أحب الناس إلى قلبه. لا تعرفين، لا أحد يعرف.

ارتجفت نبرته، وتهادت العبرات في مقلته، تشي بما يعتمل بصدره من ألم غير محتمل، لم يفده التنفيس عنه، بل آلمه البوح أكثر.

لا حاجة له بكلمات مواساة مبتذلة، مستهلكة لكثرة ما ارتداها الناس ثم تبادلوها في مناسبات خاصة، لم يكن بحاجة إلى كلمة لاكتها الأفواه واهترأت لكثرة ما مُضغت وبُصقت.

لذا تمنى لو تلزم «ساري» الصمت.

إن سمع منها كلمة مواساة، سيبغضها، هكذا أحس السيد هود وانزعج لسخافة ما يشعر، فتبدى انزعاجه في تقطيبة جبينه، ونظرات مسترقة استقرت على كل شيء بالصالة إلا وجهها، حتى ود لو يطالبها بالرحيل.

- ربما تتظاهر بأنك لا تتذكر.

وهذا أغرب ما ترامى إلى سمعه يومًا!

كان قد اعتاد ردودًا مثل: هذا ابتلاؤك فاصبر، يومًا ما ستتذكر، النسيان نعمة.

بيد أن ما قالته «ساري» للتو كان أبعد ما يكون عن المألوف والمرتقب. ارتفع حاجباه وتبدت على وجهه علامات العجب، تمتم متوجسًا:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد ما فهمته، فرق كبير بين التناسي والنسيان يا «هود».

ثبت مكانه وقد جمّده المعنى، يقلب كلماتها الخضراء في رأسه. سددت نظراتها في عمق عينيه، تغرف من أسراره من غير دعوة، ثم أردفت ببساطة وهي تحرك كتفيها لأعلى:

- اطمئن، لن تكون أول إنسان يكذب على نفسه.

تأملها وكأنها أحد السيناريوهات التي تنبت طوال الوقت في رأسه، يحاول أن يتخيل إلى أين تُفضي، وما هي النهايات المحتملة.

عجز عن تخيل ما هو قابل للحدوث وما هو مستعص، بدت المحتملات والمستحيلات كأنها تنبت من أرض واحدة، تربة خصبة لم يزرع فيها خياله قبلاً.

نظر إليها مثل قصة، مشوقة، وغير مبتذلة، قصة يتلهف لقراءة ما تبقى من فصولها في جلسة.

لم تمنحه من النّص أكثر من فقرة، ثم انغلقت على نفسها ترتشف المشروب الذي برد، بروية من لا يزمع المغادرة.

سألها دون أن يمهد لسؤاله دربًا من المقدمات المتكلّفة:

- ألا تخافين من البقاء في عشة واحدة مع رجل غريب؟

اختلط عليها مقصده، ونواياه المستترة، هل يقصد «نسيم»، أم يشير من طرف خفي إلى نفسه؟

- هل أبدو لك امرأة تخاف من شيء؟

بدت بالتأكيد مختلفة عن النسخة التي قابلها عند اللسان تنشد مساعدته، وترجوه ألا يتركها وحيدة في مواجهة عاصفة لا تُبقي ولا تذر.

- إذا لم تكوني خائفة، لماذا لا تساعدين نفسك؟

- ربما لأنني أكذب على نفسي، مثلك.

اختلط عليه مقصدها! هل تقصد أنها ليست خائفة من «نسيم»، أم أنها لا تود التخلص منه؟

حديثهما الملغز الذي يحتمل أكثر من مسار، لوى عنق النوم وهشم رأسه. حطت اليقظة فوق رأسيهما دون الحاجة إلى مشروبات متخمة بالكافيين، ارتحل الحوار بينهما ودار في اتجاهات شتى، لا تحمل أي طابع خاص، ثم انتهى بهما الترحال في ميدان القضية الحالية من جديد.

- هل تظن أن الشرطة قادرة على القبض على القاتل قبل أن يُقدم على جريمة أخرى؟

- بصراحة، لا أظن ذلك، هذا المجرم يسبق الجميع بخطوة.

- لا أريد أن أسألك عن تفاصيل سرية لا يجوز الإفصاح عنها، لكن فقط عندي فضول لأعرف كيف يمضي التحقيق عادة في مثل هذه الجرائم؟

- عادة نتتبع الأدلة.

- وهل هذا ما تفعلونه الآن؟

مال بجسده إلى الأمام إلى أن لامست ركبتاه الطاولة، شبك كفيه قائلًا بشيء من الشدة:

- ألم أقل لك للتو إن هذا المجرم يسبق الجميع بخطوة؟ إنه ماهر لدرجة أنه لا يترك أثرًا خلفه، لا بصمات ولا حمض نووي ولا شهود، كأنه ليس بشرًا، كأنه شبح!

- لماذا تتحدث عنه كما لو كنت معجبًا؟

- هل أبدو كذلك؟ بالطبع لا، أنا أتقزز من أمثاله، لا يحق لأحد أن يسلب أرواح الآخرين ويدمر حيوات أسرهم، الأمر ببساطة أنني أحاول أن أضع نفسي مكان المجرم كي أفهمه.

- لا أظن الأمر بسيطًا كما تدّعي، يبدو أن هذه القضية تمسُّك، هل إحساسي خاطئ؟

ولم يكن قولها سوى الحقيقة المجردة، لذا أومأ برأسه، أراح ظهره إلى الأريكة ثم أفصح:

- ثمة احتمال غير بعيد أن المجرم في هذه القضية على صلة بقاتل أمي.

- ألم تقل إنه مسجون؟ كيف تكون له صلة بمجرم آخر طليق؟

- أُطلق سراحه قبل ستة أشهر، حُسن سير وسلوك!

انسلت منه ضحكة رنانة من غير بهجة ثم أردف:

- كأنهم يمنحونه شهادة تقدير مع مرتبة الشرف، مجرم خلوق!

قالها ثم تزايد ضحكه، إلى الحد الذي أقلقها ودفعها لأن تتخذ جلسة حذرة.

- أعتذر، لا أعرف من أين يأتي كل... هذا... الضحك.

دمعت عيناه من فرط قهقهات فقد السيطرة عليها، راقبته «ساري» بعين قلقة إلى أن هدأت العاصفة فجأة مثلما بدأت.

- أعتذر يا «ساري»، أعصابي تالفة هذه الأيام.

لم يحمل الفراغ بينهما ذرة استرخاء حقيقية، بل استرخاء ملفق يبذل جهده ليبدو حقيقياً.

تراقبه بحذر، وتفوح منها رائحة الرهبة.

توجه مسرعاً بالكوبين الفارغين إلى المطبخ، أزعجته رؤية قسماتها المتوجسة كأنها تنظر إلى رجل فقد عقله، ألقى الكوبين في الحوض ثم سبّ نفسه، انشغل بتحضير فنجانين من القهوة دون سكر، لم يسأل كيف تشربها، إذ كاد يجزم أنه ما إن يخرج إلى الصالة حتى يجدها خالية منها.

حتماً ستهرب.

دغدغته الدهشة عندما وجدها تجلس حيث تركها، بقسمات أقل توتراً، وقبضة مرتخية.

- آمل أنكِ تحبين القهوة مُرَّة.

- لم تسألني كيف أحبها، عُدنا إلى الوراء خطوة.

تبادلا بسمة خفيفة لم تتبدد سريعاً هذه المرة. رفع حاجبًا ثم قال متفكهاً:

- تحمَّليني قليلاً، ما زلتُ على درب التعلم.

كان راضياً عن كل ما يحدث في موعدهما الثاني، وإن لم يكن موعدًا بالمعنى الدارج، أحب كونه يجالس امرأةً تحرك قلبه بنظرة.

ما إن اتخذ مجلسه السابق حتى باغتته بالسؤال عن «تميم»، أخبرها أنه لم يره منذ أن زاراه معًا، وأن لا شيء مما يقوله يمكن أن يساعد في التحقيق، لا يملك الصغير معلومة أو فكرة يمكن تتبعها. ثم أضاف بحزم:

- علينا محاولة التحدث إليه مرة أخرى، ربما يكون قد استجمع أفكاره وتذكر شيئًا.

- لا أظن أن الطفل سيفيدكِ بشيء، على الأقل في الوقت الحالي وهو لا يزال يعاني تبعات ما حدث، التركيز على باقي الشهود سيكون أفضل.

- أخبرتك، لا شهود في هذه القضية.

- بالتأكيد ثمة من رأى شيئًا.

- ربما، لكنه آثر الصمت حتى اللحظة.

- والحدوتة التي أخبرتني عنها، أليست طرف خيط صالحاً للتتبع؟

نهض السيد هود فجأة، فتح حقيبته ثم أخرج قلماً وورقة، كتب المقطعين ثم قربها منها يقول:

- لا تشبه أي حدوتة أعرفها، وأنتِ؟

تمعنت «ساري» في القراءة، ثم تبدت الخيبة فوق وجهها وهي تتمتم أسفًا:

- لا تشبه أي شيء سمعته.

أمسكت بمعدتها وبدا وجهها ممتعضاً، سألها عما بها، فأجابته مقتضبة:

- يبدو أنني أكلتُ شيئًا أزعج معدتي.

- توقفي إذن عن شرب القهوة.

بدا قلقًا عليها، حنونًا ومهتمًّا، لكن عقلها كان يسبح في اتجاه آخر، استغرقها التفكير لثوانٍ ثم قالت منفعلة:

- هل تظن أن «تميم» يعرفها؟ ربما كانت حدوتة مشهورة بين الأطفال هذه الأيام، تتطور الحواديت من زمن لآخر ولا تتوقف عند الصورة التي عرفناها صغارًا.

التمعت عينا السيد هود مثل مصباح أضاء ساحات العتمة، كان ظنها في محله، يا له من ساذج! كيف لم يفكر في ذلك؟ أعطِ الخبز للخباز، والحواديت للأطفال!

***

طرقات قوية على الباب أحس بوقعها داخل رأسه.

لا يعرف كيف سقط نائمًا فوق الأريكة، ولا كيف فعلت «ساري» المثل فوق مقعدها، إلا أن الطرقات المتوالية فوق الباب كانت أسوأ منبه لكليهما.

توجه مسرعًا صوب الباب لفتحه، لا لشيء إلا ليوقف المطارق التي تنزل بقوة فوق رأسه.

- أين هي؟ أين زوجتي؟

فيمَ كانت أمه تفكر حين أسمته «نسيم»؟

هذا ما طفق السيد هود يتساءل بشأنه بعد أن تلقى دفعة مباغتة في صدره، ألصقت ظهره بالجدار، وجعلت النجوم تدور حول رأسه كما لو كان كوكبًا منسيًّا في ذيل المجموعة الشمسية.

- «ساري».. أين أنتِ؟

ما أقبح اسمها بصوته!

ما إن رأته حتى تبخرت ادعاءاتها عن القوة، اشتم السيد هود رائحة الخوف تفوح منها، تبدت مظاهره في نظرتها المتوترة ووقفتها القلقة، انصاعت صاغرة خلف الأستاذ «نسيم»، يسحب كفها بكفه.

توقف السيد هود أمام الباب في إشارة تحدٍّ واضحة، استغزت النسيم وحولته إلى إعصار يوشك على ضرب خيمة جرأت على اعتراض طريقه، لا يقيمها إلا وتد أوحد.

- لن تأخذها.

- ابتعد عن طريقي أيها الخسيس وإلا...

أدرك السيد هود أنه مقبل على معركة محتم عليه فيها أن يخسر، يناطح فيها قوى غير متكافئة، بيد أن نظرة واحدة إلى وجه «ساري» كانت كافية ليقدم على الخطوة الأولى في معركة محسومة سلفًا.

عززت دفقات الأدرينالين شعورًا زائفًا بالغلبة، دفعه لينزل فوق الأستاذ «نسيم» ضربًا وركلاً وصفعًا.

ثم شعر بغتة بيد تفرقهما، حسبها في البداية لـ «ساري» ثم أدرك وجود صديقه خلفه.

- ابتعد عنه يا «هود»، وأنت يا «نسيم» أفلته من يدك، وإلا سألقي بكليكما في التخشيبة، توقفا عن الشجار حالاً.

تباعد الرجلان وكل منهما يود لو يهشم عنق الآخر. رفع الأستاذ «نسيم» سبابته لائمًا، ومغاضبًا، ومحذرًا:

- اقترب من زوجتي مرة أخرى، وسأقتلك، هل تسمعني، سأقتلك.

سحب «ساري» خلفه ثم فارق العشة، تشيعهما صيحات السيد هود، الذي تقيده يدا صديقه عن الحركة:

- أخذها يا «درويش»، لا تدعه يأخذها، لماذا تمسك بي؟ اتركني، لن أسمح له بإدخالها بيته.

- توقف يا «هود»، اهدأ.

نزع السيد هود قبضتي «درويش» عن جسده ثم صاح معنفًا:

- عن أي هدوء تتحدث؟ لماذا وقفت أمامي ومنعتني من حمايتها، أخبرتك أن الحقير يدعي زورًا أنه زوجها، هيا، ستأتي معي إلى عشته، ستقبض عليه أمام عيني، لن أراه يقترب منها مرة أخرى.

- توقف يا «هود»، واسمعني، المرأة تكذب!

- ماذا تقول؟ عن أي كذب تتحدث؟

- «نسيم» زوجها فعلاً، زواج رسمي موثق!

أخرج قسيمة رسمية وضعها أمام عيني صديقه وأغلظ عليه في القول:

- أفق يا «هود»، الفتاة تخدعك.

قرأ السيد هود بيانات الوثيقة ذاهلاً، يكاد يفقد عقله، هل كذبت عليه «ساري» حقًا، لماذا تفعل ذلك؟ ماذا أرادت منه؟ هل شعرت بالملل من حياتها مع رجل لا يشبهها فقررت... أن تلعب؟

ألقى الوثيقة بعيدًا ثم قال بعناد:

- لا أصدق، إنها مزورة.

- مزورة؟ أقول لك إنها وثيقة رسمية موثقة، حسنًا كنت أعرف أنك أحمق وستلقي بتلك السخافات في وجهي، لذلك أحضرت لك مفاجأة.

أخرج هاتفه بعصبية ثم أظهر صورة تجمع «ساري» و«نسيم» في لقطة، فستان عرس وبذلة سوداء، وابتسامة كبيرة فوق وجه كليهما.

لم تتبدل قسمات السيد هود الجامدة، ولم يقنع.

- وهل هذا يثبت شيئًا؟ إنها فوتوشوب بالتأكيد.

- كنت أثق أنك ستبلغ هذا القدر من الهذيان، لذلك إليك مفاجأة أخرى ستتوقف بعدها عن عناد الثيران هذا.

حرك الشاشة وشغل الفيديو، انبعثت أصوات صاخبة وموسيقى عالية، خدشت صمت البكور وأقلقت راحته.

تطلع السيد هود بعين ذاهلة إلى عروسين يتهاديان على النغمات في رقصة رومانسية، وسط مجموعة صغيرة من المدعوين في أجواء عرس حماسية، تراقبهما عدة وجوه مبتسمة، وطفل صغير يصفق لهما بمرح!

تغافل عن كل شيء وصب تركيزه على وجهها، قرأ فيه فرحة عروس حقيقية لا زيف فيها.

عروس راضية، قانعة، وساكنة بين ذراعي زوجها!

- هل عرفت الآن كيف أنك رجل غبي ساذج؟ المرأة تخدعك، تتسلى بك، وأنت تلقي بنفسك في النار لأجلها.

انهار جسد السيد هود فوق الأريكة التي كان ينام عليها قبل قليل، يتأمل المقعد الذي كانت تحتله «ساري» لليلة كاملة، يخفي وجهه بين كفيه، لا يقوى على قول شيء إلا:

- اتركني وحدي.

- سأفعل يا «هود»، لكن خذ بكلامي هذه المرة وتوقف عن العناد، أنت بحاجة إلى زيارة متخصص تتحدث معه ويساعدك، أخبرتك بذلك ألف مرة، وها أنا أقولها للمرة الأخيرة، لن أكون أحرص عليك من نفسك، لن أدعم رجلًا يرفض مساعدة نفسه، إلى اللقاء يا صديقي.

ما إن سمع صوت الباب يغلق حتى استلقى فوق الأريكة بعينين مغمضتين، يستمع إلى الغضب الذي اتخذ لنفسه فسحة بجانبه، واستلقى.

استمع إليه، أعُجب بحديثه، وقدم له دعوة مجانية للمكوث في رأسه.

(16)

عدالة تتعثر بثوبها

عشرون عامًا مضت، ما حسب خلالها أن يعود إلى هذا المكان يومًا.

ما يزال يتذكر العشة المبنية من سيقان البامبو، وأعواد الخوص، وجريد النخل، وبعض الألواح الخشبية، والباب الذي هشمه بقدمه عندما تقدّم مع القوة لإلقاء القبض على «مبسوط القرداتي».

ما يزال يتذكر أشجار الليمون الكثيفة المطلة من خلف المبنى، التي باتت الآن ميتة جافة، تساقطت أوراقها، ونضب جمالها.

عشرون عامًا مضت، وما يزال اللواء «لطفي درويش» يقف في المكان نفسه، لم يبرح.

فتحت الأرض من تحته ثقبًا أسود، ابتلعه في ذلك اليوم البعيد القريب، وها هو يقذفه في الموضع نفسه من جديد.

طرق الباب مرتين بخفة، ولما لم يسمع صوتًا دفعه دفعة بسيطة، انفتح على إثرها مصدرًا صريرًا مزعجًا، كان كافيًا ليستجلب انتباه قرد هزيل أخذ يتقافز أمامه في رهبة.

«مبسوط القرداتي» وقروده الثلاثة، كأن الزمن لم يتبدل، أرسل نظرات متفحصة في أرجاء العشة الصغيرة، فلم يجد سوى هذا القرد الهزيل الأجرب، الذي يبدو أقرب إلى الهيكل العظمي، وقد انزوى في أحد الأركان، يتقوقع على نفسه خوفًا من الغريب المقتحم لبيته.

بحسبة سريعة في رأسه، أدرك أن متوسط أعمار القرود من عشرين إلى ثلاثين عامًا، وربما أكثر، لا يستبعد أن يكون هذا القرد هو آخر ما تبقى من قروده التي اشتهر بمصاحبتها قديمًا، في جولاته الاستعراضية في شوارع رأس البر، يضرب دفه ناثرًا البهجة في الأرجاء.

الضجة التي أحدثها القرد الذي أخذ يزوم في هلع، كانت كافية لإيقاظ الكهل الراقد فوق مرتبة متهالكة من القطن، فوق أرض مفروشة بالقش.

ما إن استقام الكهل واقفًا أمام اللواء «لطفي درويش» حتى تجمد الزمن. يتأمل كلٌّ منهما قسمات الآخر، شيب رأسه، هندامه، وقفته، حركته، وما

تركته أيادي الزمن من آثار جلية.

عشرون عامًا مضت، وما يزال لكل منهما النظرة نفسها، المعجونة بالاستعلاء والتحدي، تمتد بينهما ساحة واسعة من النزال غير المحسوم.

- يااااه، الرائد «لطفي درويش» بنفسه في عشتي المتواضعة، آااه آسف، أقصد سيادة اللواء.

- هل بإمكاني الدخول؟

- وتستأذن أيضًا؟ يبدو أن عقدين من الزمن قادران على فعل المستحيل، آخر مرة رأيتك فيها داخل بيتي هدمت بابه فوق رأسي.

تقدم ليقف في منتصف الصالة الضيقة، يتقافز القرد ذو العظام البارزة حول ساقي «مبسوط»، مثل صغير يحتمي بوالده، من غريب حلَّ على دارهم من غير دعوة.

- أي حدث جلل ألقى بك في عشتي يا سيادة اللواء؟ اعذرني لا أستطيع ضيافتك؛ ليس لدي ما يمكن أن أقدمه لمعاليك، تعرف كم من الصعب إيجاد عمل بالنسبة إلى محكوم سابق.

قال ذلك ثم تبدلت نظرته إلى حقد دفين، ومست جسده رعشة، تبدت بوضوح في شفتيه الباهتتين وهو يردف:

- حتى وإن كان بريئًا من التهمة المنسوبة إليه.

فوجئ اللواء بذراع الكهل المبتورة، أخذت ذراع جلبابه اليسرى تتراقص في الهواء مثل سارية.

كيف ومتى حدث ذلك؟ عندما رآه آخر مرة في قاعة المحكمة لحظة النطق بالحكم، كان بكامل أعضائه.

تتبع «القرداتي» نظراته، اكتسى وجهه بمرارة لازمته طويلًا حتى باتت جزءًا من تكوينه الجسدي، تمتم بنبرة تتصدع:

- أرأيت ما يفعله الزمن بأمثالنا؟ إنه لا يتركنا على حالنا، أكل الزمن ذراعي وجزءًا من أمعائي. وتركك أنت بكامل صحتك، عجبتُ لك يا زمن.

- كيف حدث ذلك؟

- مضاعفات داء السكري يا سيادة اللواء، أصابني بتسمم دموي قبل عشر سنوات، دمر أنسجتي وأعضائي، بقائي على قيد الحياة هو في الحقيقة

معجزة.

دنا خطوة ثم أردف:

- يبدو أنني ظللت حيًّا فقط حتى أرى هذا اليوم، ظالم ومظلوم في مواجهة محتومة.

- كلانا يعرف أنك لست بريئًا كما تدّعي يا «مبسوط»، خضعت لمحاكمة عادلة، ودوري ينتهي عند تسليمك للنيابة والشهادة أمام هيئة المحكمة، أما ما بعد ذلك فهو رأي المدعي العام، ثم حكم القاضي، لا شأن لي بذلك.

- هل هكذا كنت تُسكِّن ضميرك طوال هذه السنوات؟ خسارة، ظننتك تستخدم مُسكنًا أقوى، لم أظن أن رجلًا بهيبتك قد يلجأ إلى هذه الحجج الواهية، خسارة.

- قضيتك محسومة، لم آتِ إلى هنا لأتحدث عن الماضي.

- إذن ما سبب زيارتك الشريفة إلى عشتي الحقيرة يا سيادة اللواء؟ صحيح، سمعت أن قضيتي كانت بطاقة حظك التي أسلمتك من ترقية لأخرى.

- ما زلت ثرثارًا يا «مبسوط».

- وما زلت متكبرًا متغطرسًا.

- الزم حدودك وإلّا ألزمتك إياها.

ثارت ثائرته فاندفع معنّفًا، بينما ذراع جلبابه الخالية تتطاير بعنف حركته:

- ماذا ستفعل أكثر مما فعلت؟ تسجن رجلًا تجاوز السبعين؟ وهل تظن أن الحياة داخل السجن أسوأ مما هي خارجها بعد أن وصمتني بهذا العار الذي لا أستطيع غسله؟ المجرم في عالمنا يظل حاملًا للقب حتى وإن أمضى عقوبته كاملة، حتى وإن خرج حُسن سير وسلوك مثلي، أنت دمرت حياتي، دمرتها إلى الأبد.

وقف القرد يتابع النزال بالكلمات مصفقًا في جزن، مستمتعًا بالمشهد وهو يأكل بعض أوراق شجر الليمون الجافة.

- لماذا تتظاهر بالبراءة؟ كلانا يعرف أنك قتلت تلك المرأة المسكينة التي تركت من خلفها طفلًا صغيرًا لا حول له ولا قوة، ألم تشفق عليها؟ ألم يوخزك ضميرك وأنت تترك ابنها اليتيم يقاسي في هذه الحياة وحده؟

اندفع «مبسوط» متقدمًا من اللواء خطوة، كانت كافية لتفزع القرد وتجعله يهرب.

- وأنت يا سيادة الضابط الكفء، ألم يؤلمك ضميرك وأنت تلقي بي في السجن بينما دليل براءتي في يدك؟

- عن أي دليل براءة تتحدث؟

- الشعرة يا سيادة الضابط النزيه. أتحدث عن الشعرة التي اختفت فجأة من قائمة الأحراز!

لو أتيح للواء «لطفي درويش» فرصة النظر إلى مرآة، لرأى قسمات وجهه تتجمد، ثم تتجعد، ثم تشيخ، كأنه كبر لحظتئذٍ أعوامًا فوق عمره.

- من أخبرك بهذه السخافات؟

- المحامي الذي انتُدِب للدفاع عني، أخبرني في البداية أن ثمة شعرة عثرتم عليها في يد ابن القتيلة، ثم فجأة اختفت وشُطبت من الملفات كأنها لم تكن.

قال ذلك بصوت مشروخ، ثم أردف بنبرة حملت مرارة كالحنظل، يشير بإصبع الاتهام صوب صدر اللواء دون أن يمسه:

- تلك الشعرة كانت دليل براءتي، وأنت، أنتَ أخفيته، أخفيته عمدًا.

- من أخبرك بهذا يكذب عليك، لا يوجد دليل كهذا أبدًا.

تراجع خطوة إلى الخلف وصاح إلى أن بُحَّ صوته وسعل بقوة آلمت صدره:

- لماذا أتيت إليّ إذن؟ تريد أن تأخذ مني أكثر مما سلبته؟ انظر حولك، لم يبقَ لي شيء، أصبحتُ مجرد أنقاض إنسان، أجمع فضلات الآخرين، وآكل ما يتركونه في القمامة.

- كان مجيئي إلى هنا في غير محله، على كل حال صدر أمر باستدعائك والمثول للشهادة، ثمة ضابط ينتظرك بالخارج.

- إذن لماذا أتيت يا سيادة اللواء؟ هل أخبرك أنا؟ أتيت لترى آثار جريمتك، أنا الخطيئة التي لا تستطيع محوها أو نسيانها مهما تبدل الزمن.

توجه إلى أحد الأركان بعصبية، التقط كوبًا بلاستيكيًّا ثم عاد إلى مواجهته، مستطردًا بحدة بالغة انتفخت على إثرها عروق رقبته:

- وأتيت أيضًا لأجل هذه.

بصق داخل الكوب، وقرَّبه من الرجل الواقف أمامه في جمود، تُرِكت يده معلقة في الهواء لثوان، ثم انتهى المطاف بالكوب بين راحة اللواء «لطفي درويش».

ودون كلمة، استدار خارجًا من العشة، توقف بالخارج لحظات يلتقط نفسًا منعشًا بعدما خنقته الرائحة القذرة بالداخل.

اقترب منه معاون المباحث «عمرو» وانتظر أمره.

- خذ هذه العينة إلى المعمل الجنائي لإخضاعها للتحليل، وكما أخبرتك، تلك مهمة سرية، النتيجة أبلّغ بها هاتفيًّا بعيدًا عن التقارير الرسمية.

- أوامرك يا فندم.

أخرج من جيب معطفه الداخلي ظرفًا ورقيًّا، بداخله آخر بلاستيكيًا، يحوي الدليل الذي أرق مضجعه عشرين عامًا كاملة.

الشعرة مجهولة الهوية.

- أريد مطابقة العينتين في أسرع وقت ممكن.

هل ظلم بريئًا ونال لأجل ذلك ترقية استثنائية وميدالية ذهبية؟

ما عاد بإمكانه الانتظار أكثر، يجب أن ينهي هذا الصراع بداخله، الآن، مرة واحدة وإلى الأبد.

يجب أن يعرف.

***

- يجب أن نتحدث.

تبدى الضيق فوق قسمات السيد هود واكفهر وجهه، عندما فتح الباب على إثر طرقات مزعجة، ما ظن أن يرى أمامه «درويش» و«نسيم»، كأنهما صُحبة مقربة.

لم يملك رفاهية الرفض إذ أفسح الرجلان لنفسيهما الطريق، واتخذا مكانًا فوق الأريكة التي كان يضجع فوقها قبل لحظات.

مشعث الشعر، مبلبل التفكير، جلس أمامهما يحرك ساقيه في عصبية، ويحك ذقنه النابتة في خشونة.

- اسمع ما سيقوله لك «نسيم».

لم يبدُ على «نسيم» أي رغبة في الإفصاح، بدا مساقًا رغم أنفه ليجالسه زفر مرتين دق معهما السيد هود أن الهواء المندفع من منخريه على وشك الإطاحة بالمزهرية.

بدا ضخمًا إلى الحد الذي ابتلع نصف الأريكة الثلاثية.

كان صوته أجش عندما أفرغ ما عنده من غير مقدمة تمهد:

- متلازمة «كابغراس» Capgras Delusion هكذا نطقها الطبيب واستلزمني أسبوعين كي أحفظ الاسم العجيب.

تبدت البلاهة على وجه السيد هود، نقل نظراته بين الرجلين يحذوه الشك إن كان «نسيم» هذا قد فقد رشده، كان حديثه خاليًا من أي منطق أو سياق، هذه الحيرة لم تستمر طويلًا عندما أردف «نسيم» بالنبرات الخشنة ذاتها:

- إنه اضطراب نادر يجعل المصاب به يجهل أقرب الناس إليه ويتنكر منهم، عندما نظرت إليّ «ساري» برعب لأول مرة وهي تسألني عمن أكون، ظننتها تمزح، وعندما تأكدت من كونها لا تمزح، انتقل الرعب من عينيها إلى صدري، عندما سمعت لأول مرة اسم هذه المتلازمة يخرج من فم الطبيب ظننته يمزح بدوره، لم أسمع طوال عمري بشيء كهذا، لكن الفحص البصري أثبت أنها تتمتع بدقة نظر ممتازة، وأن ما يحدث سببه هذا.

قالها وهو يشير إلى رأسه، ثم أردف بتوتر متنامٍ كلما أفصح عن المزيد، بإيعاز من «درويش»:

- خلل في الدماغ، ثمة جزء يربط التعرف البصري للوجوه بالمناطق المسؤولة عن ترجمة المشاعر. لا أفهم كثيرًا في المصطلحات الضخمة، لكن ثمة خللًا أصاب دماغها بعد حادث سيارة تعرضنا له معًا، كانت هي الجالسة خلف المقود، نتشاجر على أمر تافه لم أعد أتذكره، وفجأة اصطدمت السيارة بشجرة، ومن وقتها صارت تنكر أنني زوجها.

ترك فسحة من الصمت تعبر بين ثلاثتهم، ثم ختم مقالته القصيرة بنظرات محتدمة ينقلها بين الرجلين قائلًا:

- ها قد عرفتما كل شيء، لا أريد رؤية أحدكما بالقرب منها مرة أخرى.

توقف قليلًا يستجمع قوته، لينزل فوق رأس السيد هود بأقوى مفاجآته وأشدها قسوة:

- زوجتي حامل، لا أريد أن يحدث لها أو لابني مكروهًا، جئت بها إلى هنا كي تريح أعصابها وتستعيد عافيتها، للمرة الأخيرة أقولها، دعونا وشأننا.

ثم التفت إلى السيد هود مردفًا كبصقة يقذفها في وجهه:

- بالذات أنت.

غادر «نسيم»، يتبعه «درويش» من غير كلمة، أغلق الباب خلفه بهدوء يتنافى مع القنبلة الموقوتة المتموضعة في منتصف العشة.

شعور الفقد الذي تذوقه السيد هود في عمر السابعة أخذ يتسرب من جديد إلى حلمات التذوق فوق لسانه، مرًّا، لاذعًا، بغيضًا كما يتذكره.

أخفى السيد هود وجهه بين كفيه، مسح مرتين فوق رأسه، ولأول مرة منذ وقت طويل، أجهش في بالبكاء بقوة.

كأنه فقد أمه مرة أخرى.

(17)

كل الطرق تؤدي إلى الجحيم

- أثبت عندئذٍ فُتِح المحضر في تمام الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، يوم الثلاثاء الموافق -اكتب التاريخ- بمركز رأس البر، وذلك لاستجواب «مبسوط رشدي الدرملي» المشهور بـ «مبسوط القرداتي» وسماع أقواله في الواقعة المحررة عنها المحضر رقم -اكتب رقم المحضر- تمت مباشرة التحقيق بواسطة النقيب «أحمد درويش» ويقرّ بأنه استوفى بيانات المشتبه به وتم التأكد من شخصيته، وإخطاره بسبب الاستدعاء، وسؤاله عن الواقعة محل التحقيق.

يستند بظهره إلى مقعده المبطن، يميل به قليلاً إلى الخلف، يدير بين أنامله باستعلاء ظاهر الهوية الشخصية للكهل الواقف أمامه، الذي لا يشبه في شيء السمات الشكليّة التي حددها «لامبروزو» لمجرم سابق أو محتمل. رجل بجسد مُعلن الخيانة لصاحبه، ظهر منحنٍ، ذراع مبتورة، أسنان تفرّق، كف خشنة، وجه متغضّن، وسعال مزمن يلازمه.

يتطلع إلى الكهل بعدائية غير مبرّرة، ويلاحقه بسؤال تلو آخر، في عبارات قصيرة، متتابعة.

- س: أين كنت في التاريخ المذكور؟

- ج: في عشتي.

- س: هل ثمة شاهد يؤكد وجودك بعيدًا عن مسرح الجريمة في الساعة المذكورة؟

- ج: ثمة شاهد لا تأخذ الشرطة بأقواله، قرني العزيز «ستير»، هو كل ما تبقى لي بعد موت أخويه «توتو» و«شرارة».

- س: هل لك سابق معرفة بالمغدورتين السيدة «سنية»، والسيدة «جواهر»؟

- ج: لا أعرفهما.

- س: من بعد إطلاق سراحك، هل تحدثت إلى أحد عن تفاصيل الجريمة التي أُدنتَ بارتكابها، وبخاصة الحزام الأصفر؟

- ج: أنا بعيد عن الشوارع منذ عشرين عامًا، وطوال الأشهر الستة منذ الإفراج عني لم أتحدث إلى مخلوق سوى للبحث عن عمل.

- س: ماذا تعمل الآن؟

- ج: لا شيء ثابت، ألقط رزقي هنا وهناك، أجمع القمامة فوق عربتي الخشبية وأنتظر الإحسان من هذا وذاك، قدمت أوراقي للانضمام إلى العمال المسؤولين عن جمع قمامة الحي كي يكون لي عمل ثابت ومرتب وتأمين صحي، لكن إلى الآن لم تأتني الموافقة، ولا أظنها تأتي.

- س: لماذا؟

- ج: لا أحد يحب أن يُشغِّل محكومًا عليه سابقًا، وبخاصة في جناية قتل، يخشاني الناس، أرى ذلك في عيونهم وأسمعه في أصواتهم وأشمه ممزوجًا بعرقهم، ثم كما ترى، أنا رجل عاجز، لا أستطيع أن أؤدي عملًا بكفاءة بذراع واحدة.

- س: أليس لك أصدقاء قدامى؟ أهل؟ أقارب؟

- ج: الجميع يتجنبونني كالطاعون، لم يبق لي أي أصدقاء أو معارف، ليس لدي سوى ابن كان في عمر الثانية عشرة حين قُبض عليَّ، حرمتني منه أمه، طلقها القاضي مني وقطعت كل صلتها معي.

- س: وأين ابنك الآن؟ مكان سكنه ومكان عمله.

- ج: لا أعرف عنه شيئًا، بحثت كثيرًا دون جدوى، لا أعرف حتى إن كان يعيش في رأس البر أم خارجها.

- س: في رأيك، ما السبب الذي دفع القاتل لتقليد أسلوبك الإجرامي؟ حزام أصفر لامع، وطعنات ثلاث بالصدر، وضحية أنثى؟

- ج: ربما لأنه المجرم الحقيقي في كل هذه الجرائم، ألم تفكر سعادتك في ذلك؟

استوقفته إجابة الرجل الذي يتطلع إليه في مزيج عجيب من القهر والغيظ.

- س: حوكمت في جريمة قتل امرأة في التسعينات وصدر حكم نافذ بحقك، لماذا تدعي أن شخصًا آخر نفذ تلك الجريمة؟

- يمكنك سؤال والدك العزيز عن ذلك.

عملت كلمات «مبسوط القرداتي» كحجر ألقي في بركة ما تكاد تركد حتى تجد ما يثيرها من جديد، ثمة رابط خفي غير مفهوم بين هذا الرجل ووالده، ظن أنه واهم، لكن هذا الشعور تأكد للتو.

ما الذي يخفيه والده بشأن تلك الجريمة القديمة؟ ما السر الذي يجمعه بهذا النكرة الذي يقف أمامه؟

أعطى إشارة لكاتب التحقيق فتوقف القلم عن التدوين، مال بجسده فوق المكتب وقد اشتجرت أصابعه بقوة:

- ماذا تقصد؟ ما علاقة والدي بما تدّعيه؟

- ألم يكن هو الضابط المسؤول عن القضية؟ ألم يكن هو من قدم الأدلة؟

- وكلها كانت تدينك.

- هل هذا ما أخبرك به أبوك؟

- اسمه سيادة اللواء وليس «أبوك»، وهذا ما يقوله ملف القضية.

مال «مبسوط القرداتي» بدوره، وسدد نظراته في وجه «درويش»، ثم أردف بنبرة قوية متحدية، وشبح ابتسامة هازئة على طرف فمه:

- اسأل سيادة اللواء، وإن كان يملك ما يكفي من الشجاعة، سيخبرك.

ضرب «درويش» بقوة فوق مكتبه، انسكبت القهوة من الفنجان، فاستقام ظهر «مبسوط» ململمًا نظراته ومثبتًا إياها فوق حذائه البالي.

- انتبه لما تقول يا «مبسوط» وإلا ألقيت بك في التخشيبة.

- ليس لدي أقوال أخرى.

لطمته موجة غيظ عاتية، أنهى التحقيق شاعرًا بالاختناق، لم يفض به الاستجواب إلا إلى المزيد من علامات الاستفهام، والأخطر أنه حرك المياه الراكدة تحت مسألة عالقة لسنوات، لم يزدها سوى غموض وريبة.

استدعى العسكري الواقف بالخارج، أمره بإخراج «مبسوط» من مكتبه والسماح له بالانصراف، ود لو احتجزه عنده، لكنه لا يملك أي دليل ضده، أو قرينة تربطه بالجرائم الحالية.

شيعه بنبرة تهديد واضحة:

- سنلتقي مرة أخرى يا «مبسوط»، لم أنتهِ منك بعد.

- فلنلتقِ سيادتك، فلنلتقِ.

أخلا مكتبه وجلس يصارع أفكاره وحده، تقلبه الظنون يُمنة ويُسرة، لا تسعه الجُدُر الأربعة، يفتح أول زرين من قميصه، ويعب من الهواء المقبض أنفاسًا مضطربة.

تلقى مكالمة من رؤسائه زادته قلقًا على قلق، لا أحد مسرور من التأخير في عدم حسم القضية، توعدوه بالتنحية عن الفريق وتسليمها لغيره، فتلطف وترجى كي يُمنح وقتًا أطول.

مهلة قصيرة سيلقي خلالها القبض على الجاني، قبل أن تتحول إلى قضية رأي عام، تثير الذعر في قلب المدينة الصغيرة، وتقلق راحة كبار المستثمرين.

وعد بهذا وأقسم.

***

فوجئ «درويش» بدخول السيد هود إلى مكتبه فابتدره:

- ماذا تفعل هنا؟

- لا أريد البقاء وحدي، أحتاج إلى الانغماس في عمل يرحم رأسي من التفكير.

بدا في حالة مزرية بالفعل، تمثلت في شعره المشعث وملابسه غير المهندمة. أحجم «درويش» عن التحدث عن «ساري» وما يخصها.

- جئتُ لأعرف مجريات القضية وأخبرك أنني سأزور «تميم» مرة أخرى

- حفيد «سنية»؟ لماذا؟ تحدثنا إليه عدة مرات وكذلك فعلت مسؤولة دار الرعاية، الطفل لا يمدنا بما يفيد، لا تضيع وقتك معه.

- الحدوتة. أريد أن أقرأها عليه لأرى إن كان يعرفها من الروضة أو المدرسة.

تجلَّى الاهتمام فوق قسمات «درويش» فأردف:

- هل تظن أن للقاتل علاقة بالمدرسة؟

- لا أريد أن أستبق الأحداث، لنرَ أولاً إن كان «تميم» سيتعرف على الحدوتة، أخبرني، هل استجوبت ذاك الرجل؟ أقصد «القرداتي»؟

يتذكر السيد هود هذا الرجل جيدًا، لم يصدق حين أخبروه أنه هو نفسه قاتل أمه.

كان يكن له الكثير من الحب، يستمع بشغف إلى مواويله ويراقب بحماس العرض الذي يدور في الشارع الخلفي.

رجل بسيط، طيب، يشبه قروده كثيرًا، له نبرة حنونة حازمة تشبه صوت الآباء، هكذا يتذكره السيد هود، ولم تفلح محاولاته الجهيدة ليتخيله كوحش مفترس.

- انتهيتُ من استجوابه قبل دخولك بدقائق، لم أحصل منه على شيء، الرجل عبارة عن أنقاض بشرية، امرأة عفية مثل «جواهر» كانت لتتغلب عليه بسهولة.

لم يخبره «درويش» بإنكار الرجل لقتل أمه من الأساس، لئلا ينكأ جرحًا قديمًا سيضاعف همه، ولم يكن الوقت ملائمًا لذلك.

- ما الذي أفاد به تقرير تشريح «جواهر»؟

- لا شيء مختلف عن تقرير «سنية»، الجثة مفرغة من الدماء، بلا جروح دفاعية.

- هل ظهرت نتيجة تحليل الدماء الموجودة حول جثة «جواهر»؟

- ظهرت قبل قليل، التقرير في الطريق.

- والخنفساء التي عثرتُ عليها؟

- لم تفدنا في شيء، حشرة عادية من نوع الخنافس القشرية، تعيش في أماكن عدة برأس البر، يبدو أنها سقطت من السقف.

- أليس هذا غريبًا؟ «جواهر» كانت امرأة مهووسة بالنظافة.

- لا تتحدث وكأنها الشركة الألمانية لمكافحة الحشرات يا «هود»، هذا يحدث أحيانًا حتى في أكثر البيوت نظافة.

- وماذا قال الخبير السيبراني بشأن الموقع الإلكتروني؟

- كما هو متوقع، المجرم أخذ احتياطاته جيدًا، عنوان الـ IP الخاص بالجهاز الذي استُخدم لإنشاء الموقع كان مشفرًا، ما يزعجني حقًا أننا ندور حول أنفسنا كما لو كنا فئرانًا محبوسة في متاهة من غير مخرج.

- لا أريد أن أبدو وقحًا، لكن هل تعرف ما الذي بإمكانه أن يساعدنا في هذه القضية؟

تطلع إليه «درويش» متسائلاً بفضول، فأردف السيد هود وهو ينقر بسبابته فوق المكتب:

- أن يرتكب القاتل جريمة أخرى؛ جثتان غير كافيتين لتحديد النمط الإجرامي للقاتل، ومن ثمَّ معرفة سماته، أما الجثة الثالثة ستلعب دورًا حاسمًا.

- وهل نجلس هنا وندعو الله أن يرن الهاتف بمكالمة نتلقى فيها بلاغًا بالعثور على جثة جديدة؟

- آمل أن يخبرنا «تميم» بما يفيدنا قبل أن يحدث ذلك.

- وما من الممكن أن يتحفك به طفل في السابعة ما زال يعاني آثار الصدمة؟ لو كان لديه ما يفيد لقاله منذ البداية، التفاصيل تبهت مع مرور الوقت، أنت خير من يعرف ذلك يا «هود».

- أعرف، لذلك حرصت على التحدث معه بينما لا تزال الذكرى طازجة في رأسه، لم يقل أي شيء، فقط كلمات لا معنى لها عن «أمنا الغولة»، وأشياء لا علاقة لها بالقضية.

- «أمنا الغولة»!

اتسعت عينا «درويش» في دهشة، لم يفهم لها السيد هود سببًا، هز كتفيه ببساطة قائلاً:

- عندما سألته إن كان يعرف قاتل جدته، أجاب بـ: أمنا الغولة، كلام لا معنى له كما ترى.

- لماذا أعرف بهذا الآن؟ لماذا لم تخبرني من قبل؟

- لأنه بلا أهمية.

- بل هو في غاية الأهمية.

جاء دور السيد هود لتتلقفه الدهشة، فتح «درويش» درجًا ثم أخرج من بطنه ملفًا قديمًا متهالكًا، استدار حول المكتب ثم جلس في المقعد المواجه للسيد هود، يقلب الأوراق باحثًا عن واحدة بعينها.

وما إن عثر عليها حتى أخرجها في حماسة بالغة، انتقلت إلى السيد هود كما لو كانت عدوى.

- هذا ملف القضية القديمة، قرأته أكثر من مرة في أثناء دراستي الجامعية، وبالأمس أعدت قراءته مرة أخرى، هذه الورقة من محضر استجوابك كشاهد عيان، انظر بماذا أجبتَ عندما سألك أبي وقتئذ إن كنت تعرف قاتل أمك. انظر.

التقط السيد هود الورقة، وما كاد يقرأ إجابته التي لا يتذكرها حتى تعاظمت دقات قلبه، سرت قشعريرة عنيفة في جسده، توتر ثم اضطرب، تلجلج ثم أفصح:

- هل أجبتُ بـ «أمنا الغولة» مثل «تميم»؟ لا أتذكر أنني فعلتُ ذلك، لماذا أقول شيئاً سخيفاً كهذا؟

- لا يمكن لهذا أن يكون صدفة.

- الأطفال تتحدث عن «أمنا الغولة» و«أبو رجل مسلوخة» طوال الوقت يا «درويش».

- لكنهم لا يجيبون بـ «أمنا الغولة» عن سؤال موجه لهم من ضابط مباحث يسألهم فيه عن قاتل أقرب الناس إليهم.

- ظننتك رجل منطق، هل تريد أن تخبرني أن «أمنا الغولة» هي القاتلة؟

تبادل الصديقان نظرات حيرة، هذا صحيح، لا منطق في هذه الإجابة العجيبة، لا شيء يجمعهما سوى أن كلاً منهما خرجت من فم طفل صغير.

- أريد أن أذكرك بشيء يا «درويش». «جواهر» لم يكن يعيش في بيتها طفل، لديها ابن وحيد مهاجر، شاب كبير ورب أسرة، أي أن وجود طفل في حادثة أمي وفي مسرح جريمة «سنية» كان محض مصادفة، لا نمطاً ثابتاً.

- أنت محق، فقط شعرت بالغرابة من إجابتكما المتشابهة.

أسقط السيد هود الورقة من يده فوق المكتب، يأنف مَسّ شيء يخص أقسى ليلة في حياته.

لا يذكر إجابته على اللواء «لطفي درويش» يومها، ولا يعرف لماذا يجيب بهذا الاسم العجيب عن سؤال غاية في الأهمية.

«أمنا الغولة»، يا لها من إجابة مزرية، ليته سكت!

- هل سنذهب إلى محاضرة سيادة اللواء؟

اعتاد اللواء «لطفي درويش» إعداد ندوة تثقيفية للخريجين الجدد كل عدة أشهر، يستعرض فيها ما يملكه من خبرات، ومعارف تراكمت على مدار سنوات عمله في الداخلية.

قال «درويش» في جمود:

- لدي عمل.

- أفكر في الحضور، لكن سأزور «تميم» أولاً.

لم يزد السيد هود على ما قال، إذ كان خير من يدرك طبيعة العلاقة المتوترة بين الأب وابنه.

طرقات على الباب دخل على إثرها المجند الموجود خارج مكتبه، أدى التحية العسكرية ثم قدم لـ «درويش» ظرفاً ورقياً مغلقاً.

فض المغلف بعجالة، التهم سطور التقرير بعناية، ثم أفصح ساخراً بمزاج عكر:

- أظنك محقاً بشأن الجريمة الثالثة، إذا كنت تسافر سراً عبر آلة زمن إلى المستقبل أو ما شابه، علمني كيف أفعل ذلك، تقرير المعمل الجنائي يؤكد أن الدماء التي عثرنا عليها حول جثمان «سنية» تحمل بالفعل الحمض النووي للضحية الثانية «جواهر».

- هذا متوقع.

- لكنه يؤكد أن الدماء حول جثمان «جواهر» لا تحمل حمضها النووي!

- هذا متوقع أيضاً، خمنا أن المجرم أخذ دماء كل ضحية ووضعها في مسرح جريمة الأخرى.

- ولا تطابق الحمض النووي لـ «سنية» كذلك!

- هل تقصد أن الدماء حول جثة «سنية» تخص «جواهر»، والدماء حول جثة «جواهر» تخص ضحية ثالثة مجهولة؟ هذا معناه أن «جواهر» هي التي ماتت أولاً وليس «سنية» كما كنا نظن!

تقاطعت أفكار الرجلين في نقطة، كشفها «درويش» مردداً في حسرة:

- ويعني أيضاً أن القاتل يلاعبنا بتوقيت معكوس. الضحية التي نكتشفها أولاً، هي التي قتلها آخراً!

ها قد انفتحت أمامهم بوابات الجحيم على مصراعيها.
قريباً، سيصبح لديهم جثة ثالثة، قريباً جداً.

(18)

الغرفة التي لا يدخلها الضوء

تقول «أمنا الغولة» في الحدوتة الشعبية: «لولا سلامك سبق كلامك لكنت أكلت لحمك قبل عظامك!».

أمنا الغولة، أبو رجل مسلوخة، أم سحلول، النداهة، السلعوة، البعبع، ست حكايات شعبية مخيفة، لطالما ألمّ السيد هود بتفاصيلها التي تتغير مع كل راوٍ، وفقاً لما يتراءى له بعين الخيال.

الشر الجميل الذي ينتهي سريعاً، دون أن يترك خلفه أثراً كبيراً، شر واضح المعالم يمكن رسم ملامحه بدقة، ربما لهذا السبب افتتن بالحواديت الست وترسخت في ذاكرته.

الخيط الذي يجمع هذه الحواديت هو الخوف، شعور بدائي لم يستطع الإنسان الحديث أن يتخلص منه، رغم ما بلغه من علم وما استحدثه من اختراعات.

الخوف يجوب العالم نهاراً ثم يبيت فوق جفون الأطفال ليلاً، هكذا كان يتخيل في صغره، لذلك حرص على أن يقاوم النوم كي لا يغلق جفنه ويحل الخوف سريعاً.

«أمنا الغولة» هي الأكبر سناً من بين كل حواديت الرعب، والأكثر هيبة كذلك، لطالما حاولت التفرقة بين «ست الحسن والجمال» و«الشاطر حسن».

حسب ما يتذكره فهي عجوز قبيحة حمراء العينين، شعثاء الشعر، بأنف أفطس، وأنياب مسنونة، وأظفار طويلة حادة.

صوتها أجش، ونبراتها بطيئة مزعجة كفحيح الأفعى، خطواتها ثقيلة تجعل الأرض تئن تحت وطأتها، تجر من خلفها ثوبها الطويل الأسود.

لها أقدام تشبه سيقان الماعز، وفي بعض الحكايات لا سيقان لها.

تظهر للأطفال المشاغبين، أو الذين لا ينهون طعامهم، أو يزعجون أمهاتهم ويتأخرون في موعد النوم، أو تباغت أولئك الأطفال الذين يخرجون ليلاً من غير إذن، تتربص بهم، ثم تختطفهم من أسرتهم تحت ستار الليل.

تأخذهم إلى الأماكن المهجورة حيث تعيش، ولا تعيدهم إلى أمهاتهم مرة أخرى.

لطالما أخافته تلك الحدوتة، ودفعته لينهي طبقه من غير شهية، وينام مبكرًا من غير نعاس، ويحجم عن الخروج من غير إذن، لئلا تزوره أمنا الغولة تحت جنح الظلام، وتختطفه عندها.

الشر الذي تمثّله «**أمنا الغولة**» يثير الخوف والاشمئزاز معًا، بأوصافها المنفرة المشوهة.

بعدما بلغ سن الرشد شعر بالغضب من تلك الحواديت التي ملأ بها الكبار رأسه، أخافوه كي يلتزم الطاعة ولا يحيد عن حدود الأدب.

الخوف الذي زرعته تلك الحواديت برأسه كان قطارًا ذا اتجاه واحد، سهمًا خرج من القوس ولا يمكن عكسه.

لماذا نتربى بالخوف، بدلاً من الحب؟

الحواديت المخيفة كانت أداة الأمهات في التربية، بدلاً من بذل جهد تقويمي يراعي نفسية الطفل ومرحلته العمرية، لأنها أداة ناجحة وقوية، بل لأنها سريعة سهلة للسيطرة على الطفل وغرائزه وكبت رغبته لاستكشاف نفسه والعالم.

«**أمنا الغولة**» تختطف الأطفال المشاغبين، و«**أبو رجل مسلوخة**»، يطارد الطفل الذي يمشي وحده، و«**البعبع**» يسكن دواليب الأطفال وأسفل أسرتهم ويظهر إذا تأخروا في النوم، و«**أم سحلول**» تعاقب الأطفال الممتنعين عن الطعام، و«**النداهة**» تطارد السائرين ليلاً في الأراضي الزراعية مثلما تصطاد «**السلعوة**» التائهين في الصحراء.

«**أمنا الغولة**» في ثقافتنا، تُشبه **Bogeyman** في الفلكلور الغربي، و**Bogle** في اسكتلندا، والكيكيمورا **Kikimora** في الحكاية الشعبية الروسية، و«**عجوز القيلولة**» أو «**عزوزة القوايل**» في دول شمال إفريقيا، و«**السعلاة**» في اليمن، و«**أم الصبيان**» في شبه الجزيرة العربية.

كلها أسماء لمخلوق مخيف يبث الرعب في قلوب الأطفال، أداة تخويف بهدف تقويم سلوكهم.

بعض الأطفال مروا من محرقة الخوف بآثار بسيطة يمكن التعايش معها، وآخرون خرجوا بنفسيات مشوهة ورهبة شديدة من الظلام، والأصوات

الغريبة عندما يمسون وحدهم بالبيت، ورغبة في الالتحام بالكبار طوال الوقت.

خوف غير مبرر تجذر في نفوسهم، يصعب اقتلاعه، مثل خوفه المرضي من اللون الأصفر.

- أنت! ماذا تفعلين هنا؟

كانت لحظة مباغتة تلك التي التقى فيها السيد هود «ساري» وجها لوجه، في دار الرعاية، داخل حدود الغرفة التي سيلتقي فيها «تميم».

كان الطفل جالسًا أرضًا برفقة «ساري»، يتشاركان في حل أحجية من البازل لصورة مخلوقات بحرية خيالية، ويتشاوران في الأماكن المناسبة للقطع الصغيرة.

لم تبد «ساري» الدهشة لرؤيته، بل اللهفة، أو لعل كليهما كان يزاحم الآخر فوق صفحة وجهها.

- انتظر.

قالتها بلهفة لما رأته يدور على عقبيه كي يغادر، استوقفته، فلبّى، من غير أن يلتفت إليها، طريقته في المخاصمة عندما كان طفلاً.

- يجب أن نتحدث يا «هود».

- لا يوجد لدينا ما نتحدث بشأنه.

- اسمعني من فضلك.

- سمعتُ زوجك بما يكفي، لا حاجة لي لأعرف أكثر، تلك شؤونكما الخاصة.

- «نسيم» ليس زوجي!

وهنا التفت، نظر وتمعّن، راقب وتفحّص، لا يعرف إن كان يشفق عليها أم على نفسه أكثر، حاول أن يستخدم نبرة محايدة، ينفض عنها غضبه النابع من خيبة الأمل:

- «ساري»، شرح زوجك كل شيء عن حالتك، غضبتُ في البداية لكونك كذبتِ، ثم عندما عرفتُ بمرضك... لا أعرف، أود أن أقول إنني لم أعد غاضبًا، لكنني غاضب، وبشدة، ليس منك، ربما من نفسي، أو منه لكونه زوجك فعلاً، أو لعلني غاضب من كل شيء، لا أعرف، المهم أنني أتفهم وضعك.

- «نسيم» يكذب.

- كيف يكذب؟ لقد أخبرني عن المتلازمة التي أُصبتِ بها بعد الحادث عندما كنتِ تقودين السيارة و...

- لم يسبق لي قيادة سيارة في حياتي ولا أحمل حتى رخصة، لا حادث، ولا مرض، ولا زواج. «نسيم» يكذب.

احتلت الدهشة هرم مشاعره، ولم تفسح لغيرها مكانًا برأسه. سألها متلهفًا ومتمنيًا جوابًا بعينه:

- يعني أنتِ لم تتزوجي من «نسيم»؟

- لا، أبدًا.

- وصور الزفاف؟ والفيديو؟ رأيتك بوضوح يا «ساري» إنها أنتِ لا امرأة تشبهك.

- استطاع «نسيم» تزوير قسيمة زواج، هل تظن أن من الصعب عليه تزييف صور وفيديو؟ الذكاء الاصطناعي AI يستطيع أن يجعلني جدة لها من الأحفاد عشرة.

تسربت البهجة إلى مسامه رويدًا، إلى أن تشبع بها قلبه، ابتسم أخيرًا، ابتسامة حقيقية واسعة، هي الأولى منذ التقاها، أو منذ أن ماتت أمه، أو منذ أتى إلى هذه الحياة، لا يتذكر.

- اسمع، تحدثت مع «تميم» ثمة ما أريد إخبارك به.

- لماذا أتيتِ للقائه أصلاً؟

- كنت جالسة أمام البحر أسترجع كلماته القليلة برأسي، ساورني الشك فجئت لأتأكد.

- الشك بشأن ماذا؟

- عندما سألناه إن كان يعرف قاتل جدته، أجاب بـ: «أمنا الغولة»، ظننا وقتها أنه خيال صبي، أو هذيان ما بعد الصدمة، عندما سألته مرة أخرى الآن بدا جادًا في إجابته يا «هود»، يتحدث كما لو كانت «أمنا الغولة» هي قاتلة جدته حقًا.

- هل تدركين ما تقولينه يا «ساري»؟ «أمنا الغولة» مجرد حدوتة كانت أمهاتنا تخيفنا بها عندما كنا صغارًا.

- لا أستطيع تفسير ذلك، أعرف.

- ألم يخبركِ بالمزيد هذه المرة؟ هل عرضتِ عليه حدوتة القاتل؟

- نعم، أسمعته إياها، لم يبدُ عليه أنه يعرفها، يجهلها فعليًا. لم تخرج منه معلومة يمكن الاستناد إليها، «تميم» خائف يا «هود»، شيء ما يخيفه ويمنعه من أن يتحدث.

رنت إلى الصبي بنظرة عطف، ثم قالت مؤكدة:

- «تميم» لديه سر، سر يخاف أن يخبر به أحدًا، أستطيع أن أقسم على ذلك.

رنا إليه السيد هود بدوره، شعر بالندبة القديمة فوق جبينه تلتهب كأنها حدثت للتو، مسها بأنامله، ولا يزال يتطلع إلى الصغير اللاهي في لعبته، يحاول إيجاد مكان لقطعة بازل لجزء من أذرع أخطبوط وردي اللون.

«تميم» لديه سر، وكذلك هو، يعرف ذلك، يؤمن به، وعلى ذلك يستطيع أن يقسم.

لديه سر لا يتذكره، محبوس في غرفة برأسه لا يدخلها الضوء، سر مخيف لا يجب أن يخبر به أحدًا، تصاعدت نبضات قلبه وهو يتطلع إلى الصبي كما لو كان ينظر إلى نفسه في مرآة الزمن.

تلاقت أعينهما، فشعر برعشة قوية تجتاح أوصاله، في عين كل منهما سر لا يبوح به، يجب ألا يبوح به، وعبر المسافة القصيرة بينهما تشاركا شيئًا، ربما شعور، ربما فكرة.

هل يتشاركان السر أيضًا؟

- لا تتخلَّ عني يا «هود»، لا يصدقني غيرك.

التفت لها، بكل ما يحمله في قلبه من حب ورأفة:

- لن أتخلى عنكِ أبدًا.

همس بها صادقًا ومؤكدًا.

انبسطت قسماتها المعذَّبة، صنع الأمل لنفسه حبلاً تعلقت به، وتشبث به بدوره، رفض أن يفلته، بعناد طفل صغير في السابعة.

عناد جعله يغض الطرف عن البروز الظاهر في بطنها، الذي يلائم امرأة حبلى في شهرها الرابع، تحاول أن تخفيه بطيات فستانها الواسع.

صدَّق رغم رؤيته لأنف الكذب يستطيل ويتمدد.

ارتدى عباءة «سيدة العدالة» معصوبة العينين، وتظاهر مثلها بأنه لا يرى!

(19)

صرخة ترقد في مقبرة الزمن

قدرته على احتواء الندم العاصف بداخله، تشبه محاولة ترويض إعصار داخل فنجان.

يجر أذيال الخزي من خلفه، مع كل خطوة يقترب فيها من عشة «القرداتي»، يبلغ سمعه زفح(1)5 القرد الهزيل من مبعدة، الذي يستطيع حمله فوق كف واحدة.

يمر بخاطر اللواء «لطفي درويش»، كيف أن العرب قديمًا قد أطلقت على صوت القرد اسم «الضحك»، لأن صوته يشبه كثيرًا قهقهة البشر.

أخذ القرد المتحمس يقهقه رفقة صاحبه في استمتاع بالغ، لم يقطعه سوى طرقاته الحازمة على الباب الخشبي.

حاول أن يتذكر متى كانت آخر مرة وقف فيها عاجزًا عن صيد كلمة مناسبة من وسط بحور المعاني، ربما حين مات أبوه سيادة العميد «درويش الأكبر»، يومها شعر أن الحياة بترت منه طرفًا، لا يمكن الاستعاضة عنه بآخر اصطناعي.

اليوم كذلك، يشعر أنه فقد طرفًا، لا لموت أحاق بأحد أحبائه، بل لخطأ زل به وفات أوان إصلاحه، فات كثيرًا.

- خيرًا يا سيادة اللواء؟ هل ثمة ضحية أخرى تريد إلصاقها بالعبد الفقير الذي يفر منه الجميع فرارهم من المجذوم؟

صحيح أنه يشعر بالخزي والندامة، إلا أنه أقام ظهره، وسوّى كتفيه، أفصح بنبرات قوية واضحة، وهو يرمق «مبسوط» عينًا بعين، دون أن يهرب، أو يتردد:

- أتيتُ لأعتذر.

لوهلة، رأى الدهشة تتسوَّر قسمات «مبسوط القرداتي»، وتضجع فوقها مفترشة جلده الباهت، هل حسب أن هذا اليوم لن يأتي أبدًا؟

سعد اللواء «لطفي درويش» بتلك الدهشة، ربما لأنها أشعرته بأنه لا يزال له الغلبة والقدرة على إحداث أثر عميق، في وجه هذا الكهل المتغضن قهرًا

وبؤسًا.

- يااه.

قالها «مبسوط» بحُرقة، احتشدت العبرات في المقل، ثم توالت فوق ثنيات وجهه العطشى، ترويه بدفقات عذبة رغم ملوحتها، دافئة رغم برودة الجو.

- أخيرًا.

- لم أظلمك عمدًا كما تظن. تلك الشعرة...

يتوقف ليلتقط أنفاسه ثم يردف:

- تلك الشعرة أضعتها، من غير قصد، وعندما عثرتُ عليها كان الأوان قد فات كثيرًا يا «مبسوط».

- تلك الشعرة كلفتني عشرين عامًا من عمري. مائتان وأربعون شهرًا. تسعمائة وستون أسبوعًا. ثمانية وعشرون ألفًا وثمانمائة يوم. لا تتعجب، في السجن تتعلم العدّ، إلى أن ينخر اليأس عظمك.

- لو ظهرت تلك الشعرة في بداية التحقيق، لكانت كافية لإثبات براءتك، أعرف ذلك الآن، تحليل الحمض النووي لبصمتك أثبت أن الشعرة التي نزعها «هود» ذلك اليوم من رأس الجاني، لا تخصك، لا يوجد تطابق تام بين العينتين، لم أنتظر حتى أتسلم التقرير في يدي، ما إن بلغتُ بالنتيجة عبر الهاتف حتى أتيتُ إلى هنا مسرعًا، أصبحتُ على يقين من براءتك. دعني أكون صادقًا معك وأخبرك أنني كنتُ أخاف دومًا من تلك اللحظة، تمنيتُ أن تكون أنت القاتل، دعوت الله ألا يكون لتلك الجريمة مجرم غيرك، فقط ليتحرر ضميري من الثقل الذي لطالما أحس به، لكن قدَّر ربي شيئًا آخر، له في ذلك حكمة، حتى وإن كنتُ أجهلها.

- حكمة! عشرون عامًا من عمري تحولت من رصيدي إلى رصيدك لتمثل لك... حكمة؟ ما زلت متغطرسًا ومتجرقًا وأنانيًا.

- لا أملك ما أقدمه لك سوى أسفي، وتأكيدي على أن هذا الخطأ لم يكن متعمدًا قط.

علت نبرة «مبسوط» وبحَّت، أردف وعبرات الألم تحفر أخدودًا فوق وجنتيه:

- وهل سيعيد لي أسفك سنوات عمري الضائعة؟ سمعتي؟ ذراعي المبتورة؟ أمعائي؟ ابني وزوجتي؟

لِمَ على قطار العمر أن يتحرك في اتجاه واحد؟ لماذا لا تُمنح للإنسان فرصة استبدال المحطة، أو العودة إلى لحظة بعينها، يغيّر كلمة أو نظرة أو زلة، ثم يعود إلى الحاضر على جناح السرعة؟

لِمَ على الأخطاء أن تكون مستمرة استمرار الأبدية؟

يرفع «مبسوط» سبابة يمنى مرتعدة، ويردد في تشنج بصوت به بحة:

- تلك الشعرة كانت دليل براءتي، كان بإمكاني أن أحظى برعاية صحية جيدة، ببيت وعائلة، بعمل لائق، بأهل وصحبة. لن أسامحك أبدًا، لن تهنأ بالعفو يومًا.

الندم شعور معقد، طرف يؤكد على امتلاك صاحبه لأسمى معاني الإنسانية، وطرف آخر يعذب ويؤرق.

يترك الأسف فوق صدر اللواء «لطفي درويش» بصمات غير مرئية، إلا أنها محسوسة، وغائرة، وقوية، يستطيع تتبعها وترصدها، فإذ بها تسوقه إلى راحة مطلقة، واسترخاء عميق، وطمأنينة تامة.

تحول الندم إلى مدعاة لعدم الشعور بالندم!

فقط لو كان للأسف أيادٍ يستطيع أن يمسح بها فوق وجه «مبسوط» فيزيل عنه تلك الحسرة، لاكتملت راحته.

- أبي!

التفت بغتة، ليجد «درويش الصغير» واقفًا خلفه، ويحمل وجهًا ينطق بصنوف اللوعة!

***

تتبع «درويش» سيارته منذ أن خرج من المركز، بعدما أنهى والده لقاءً قصيرًا مع المأمور، لم يستطع التخلص من شعور مؤرق، أن والده يخفي شيئًا، رابطًا يجهله يجمع بين أبيه و«القرداتي».

وما عاد بإمكانه أن ينتظر أكثر ليفهم.

- ماذا يحدث هنا يا أبي؟ ما السر الذي يجمعك بهذا الرجل؟

- كيف عرفت أنني هنا؟ هل تتبعني؟

- نعم تتبعتك، لأنني كنتُ أشك بك، واتضح أن شكي في محله.

- الزم الأدب يا «أحمد».

- والزم أنت الحقيقية يا أبي.

كانت من المرات القلائل التي يناديه فيها باسمه الأول، حينئذ شعر «درويش الصغير» أن الخطب أكثر جللًا مما يتصور.

توترت المسافة الفاصلة بين الدرويشين، ولم يشأ أيهما أن يستفيضا في الخلاف أمام عين الكهل الشامتة. فبادر بالمغادرة سريعًا، جاذبًا ذراع ابنه، آمرًا إياه بركوب سيارته.

مضى يقود بصمت، وابنه إلى جواره، مبتعدين عن العشة وصاحبها.

***

الطفطف، محطة ذكريات يشترك فيها كل من أقام في رأس البر أو حط رحاله بها يومًا.

الطفطف، كان يركبه الدرويشان في اللحظة التي جاء فيها بلاغ بالعثور على امرأة مقتولة في عشتها، أم «هود» الصغير ذي السنوات السبع.

لو قُطّعت جميع المشاهد وأعيد تركيبها في عملية مونتاج جديدة، لكان **الطفطف** هو المحطة الأولى التي انطلقت من عندها هذه الحكاية، ولهذا السبب، اختاره «درويش الكبير» ليكون المكان الذي يضم تفاصيل المشهد الأهم في مسار قصته.

جالسًا بجوار ابنه، تاركًا مسافة صغيرة تباعد بينهما، انطلق **الطفطف** الخالي تقريبًا من الركاب، يجوب الشوارع الرئيسية الهادئة، والمحطات الفارغة.

ترك كل منهما للآخر مهمة جذب الكلمة الأولى، من فم الصمت المطبق، وإدارة حوار طويل معقد، مفخخ بالمشاعر المكبوتة، والأفكار المغلوطة.

- هل أخفيت دليل براءته حقاً؟

انغرز سؤال ابنه بين أضلعه مثل خنجر، رجلان تجمعهما علاقة متشظية، هادئة في مواضع، وحادة في مواضع أخر.

أب وابن في البيت، وآمر ومأمور في العمل، العامل المشترك هو حدود فاصلة بينهما، لم يسع أيهما لتخطيها.

حدود نفسية غير مرئية، تمنعهما من الذوبان في رابطة دم واحدة.

لكل منهما مساحة شخصية مسوَّرة بعناية، ولا تسمح بتطفل الآخر، إلا أنه قرر في هذه اللحظة أن يفتح بابًا على مصراعيه أمام ابنه، يريه ما يجيش به صدره، يخبره عن الخطأ القديم غير المتعمد، وما كلفه إياه من تهيج ضميره في إدراك متأخر، عندما قارن البصقة بالشعرة.

- لماذا لم تخبرني بذلك يا أبي؟

- انتظرت أن تظهر نتيجة التحليل.

- ظهرت، ورغم ذلك لم تخبرني، بل أتيت لهذا الرجل أولاً.

- لأنني مدين له بالاعتذار.

- وهل تقبل اعتذارك؟

ألقى «درويش الصغير» سؤاله هازئًا، ومستنكرًا السر الذي طواه أبوه كل هذه السنوات بداخله.

- هل تعرف كم الضغوطات التي تثقل ظهري؟ رؤسائي غير راضين عن سير التحقيق، وهُددت صراحة بسحب القضية وتسليمها إلى فريق آخر، أنت تعرف أنني أنتظر ترقية استثنائية لأشغل منصب مدير المباحث، والآن، بسببك، سيضيع حلمي.

- بسببي؟

- نعم بسببي، لو كنت قبضت يومها على القاتل الحقيقي، ما كنا الآن نركض في كل اتجاه لأجل العثور عليه، كان ليقضي عقوبته خلف القضبان، ولما تمكن من قتل «سنية» و«جواهر»، دم تلكما المرأتين في رقبتك.

عندما نزل في المحطة التالية، لم يدرك أنه دفع الخنجر سنتيمترات أكثر، إلى أن بلغ قلب أبيه وشقَّه.

نعم، ابنه محق، دم المرأتين في رقبته، وإن لم يعثر على القاتل الحقيقي، سيمضي ما تبقى من عمره معذبًا بسياط الندم.

***

(20)

السؤال الذي لم يسأله أحد

- يظن رجل المباحث في مستهل حياته المهنية أن جمع المعلومات أهم من تحليلها، في الحقيقة ليس هذا الأهم بل الأسهل. تحليل المعلومات وتصنيفها والوصول إلى نظرة مختلفة ورؤية شاملة. هو أهم ما على رجل المباحث تعلمه.

مسح اللواء «لطفي درويش» عن وجهه آثار الحديث العاصف الذي دار بينه وبين ابنه قبل ساعة، وصب تركيزه على خريجي أكاديمية الشرطة، الذين يولونه جُل انتباههم.

يرمقونه بإجلال من مقاعدهم المصفوفة، داخل القاعة الفسيحة.

- الجريمة الكاملة هي الجريمة التي يتمكن فاعلها من حجب جزء من معلوماتها عن رجل المباحث، أي هي جريمة تعاني أنيميا حادة في المعلومات والأدلة والخيوط التي تصلح للتتبع.

تساقطت الأضواء داخل القاعة الفسيحة فوق وجهه، أشار إلى رأسه موضحًا:

- لذلك يجب أن يعمل العقل على سد فجوات التحقيق، بالتفكير والتحليل ووضع نظريات محتملة، شيء أشبه بمحاولة قراءة أفكار المجرم عن بُعد، يعلمنا «علم الإجرام»، أن نتقمص شخصية المجرم، التفكير كما يفكر، والشعور كما يشعر، والتصرف كما يتصرف. مهارة التفكير لدى رجل المباحث لا يمكن تعلمها في أثناء مرحلة الدراسة التلقينية، ولا يمكن استنباطها من الكتب، إنها تحتاج إلى استكشاف الخبرات الكامنة، وخوض غمار التجربة، وتطبيق المعرفة النظرية بطريقة عملية.

طوال مراحل التعليم نتدرب على التكرار والقولبة والتسرع لإيجاد إجابة ما، ثم محاولة البرهنة على صحة هذه الإجابة، وهذا قد يدفع بنا إلى سهولة إصدار أحكام أولية متخيلة عن ملابسات الجريمة ودوافعها وهوية مرتكبيها، ويصبح ما نقوم به بعد ذلك من جهود، ما هو إلا محاولة إثبات هذا الحكم الأولي المتسرع وتطويعه ليكون حكمًا نهائيًا نافذًا، تتحول جهود رجل الشرطة من استكشاف الحقيقة إلى كيفية الإبقاء على المتهم الجاهز داخل القفص.

توقف اللواء «لطفي درويش» ثواني عند هذه النقطة، إلى الحد الذي استجلب حيرة ودهشة الحاضرين، وما إن انتبه إلى صمته الملاحظ، حتى استعاد بسرعة صفاء التفكير، وأردف بنبرات قوية جادة:

- للخروج من هذا المأزق، على رجل المباحث أن يتعامل مع كل جريمة كما لو أنها ظاهرة مستحدثة، ساحة جديدة تستلزم كامل يقظته ومهارته.

جفّ حلقه، سعل مرتين، تجرع نصف محتوى الزجاجة البلاستيكية من مياه معدنية، ثم استطرد بحماس:

- من المستحيل حل جميع الجرائم باستخدام التفكير المنطقي، المقولَب، الجاهز، فلكل جريمة خصوصية، لو كانت كل الجرائم واضحة الأركان، معلومة المسار سابقًا، لما كان للمجتمع حاجة إلينا، المجتمع يحتاج إلينا ليس لأن الجرائم تحدث، بل لأن تلك الجرائم التي تحدث غامضة وعصية، تحتاج من يكشف النقاب عنها بذكاء وحنكة، تحتاج من يتوصل إلى المجرم مستخدمًا مهاراته وخبراته. لو استخدم رجل المباحث منطقًا واحدًا ثابتًا في التعامل مع كل القضايا التي تواجهه، فسيكون بحاجة إلى مجرمين مثاليين يتبعون المنطق بدورهم، ولا يشذون عن القاعدة، وهذا لا وجود له في الواقع.

كان السيد هود من أوائل المنضمين للندوة، اتخذ مقعدًا في الصف السادس إلى اليسار، شعر أن اللواء «لطفي درويش» ينظر إليه عامدًا وهو يقول:

- إذا واجه المحقق حائطًا في نهاية الطريق الذي سلكه، عليه عندئذ أن يبتكر أسئلة من شأنها أن تخلق مسارًا جديدًا للقضية، عليه أن يبدع، عليه أن يرتجل.

توقف قليلًا، مسح الوجوه المشدودة المنتبهة بنظرات جادة، ثم ضرب فوق الطاولة المستطيلة وقال بحماس:

- هل تعرفون كم أثر تاريخي اكتُشف بالصدفة؟ في الوقت الذي كان المنقبون يستبعدون العثور على مقبرة أثرية في مكان ما، كانت الصدفة تذهلهم بالعثور على جوهرة وسط رمال الصحراء المتناثرة، وهكذا يجب أن يفكر رجل المباحث، عليه أن يضع خطة بحث جنائي مبتكرة، يفتش عن الحقيقة الثمينة في الأماكن المستبعدة، والبعيدة عن الأذهان، والغائبة عن قوائم الاحتمال.

انتبهت حواس السيد هود وتأهب عقله، انتقل حماس اللواء «درويش» إلى صدور الجميع بفعل العدوى، قلّب نظراته في وجوههم، رفع إصبعًا وقال

بصوت رخيم:

- لكي تعثروا على المسار الصحيح، عليكم أولًا معرفة السؤال الصحيح.

سجل كل منهم تلك المعلومة في ذهنه، كتبها على حائط ذكرياته، ووسمها بعلامة لا تُنسى.

- في بعض القضايا، ستضطرون إلى التفكير بشكل متلو، أو كما نسميه نحن رجال الشرطة بـ «التفكير الالتفافي»، هذه الطريقة تمكنكم من قلب القضية رأسًا على عقب في رؤوسكم، فتكتشفون أن الجاني الذي كنتم تفتشون عنه طوال الوقت هو آخر شخص على قائمة المشتبه بهم، بل وأحيانًا شخص من خارج تلك القائمة.

ضرب بكفه فوق الطاولة بقوة استنفرت على إثرها أعصاب الجميع وشُحذت حواسهم، أردف بانفعال وهو يروح ويغدو:

- كيف اكتُشف أول لقاح ناجح للتطعيم ضد مرض الجدري البشري؟ هل جلس العالم الإنجليزي «إدوارد جينز» في معمله الخاص، يفحص العينات بروتينية بلا كلل؟ كلا، لم يفعل ذلك، في الوقت الذي كان الجميع يتساءل عن السبب الذي يجعل الناس يصابون بمرض الجدري، كان الطبيب الإنجليزي العبقري يطرح سؤاله بشكل

مختلف: لماذا لا تصاب الفلاحات حالبات الأبقار بمرض الجدري؟ طرحه للسؤال الصحيح مكّنه من اكتشاف الطريق الصحيح. حالبات الأبقار لم يصَبن بالجدري البشري لأن جدري الأبقار أصابهن بالعدوى، وهذه العدوى البسيطة كانت كافية لتحصينهن ضد الجدري البشري فلم يصَبن به، وهكذا اكتُشف أول لقاح ناجح للجدري في التاريخ، وقُضي عليه عالميًا بحلول عام 1980م. كيف اكتشف العالم الاسكتلندي «ألكسندر فيلمينش» البنسلين عام 1928م؟ لم يتساءل لماذا ينمو العفن فوق طبق البكتيريا في مختبره، بل طرح سؤالًا مغايرًا: لماذا تختفي البكتيريا حول المنطقة المصابة بالعفن؟ فهم عندئذ أن العفن يفرز مادة تقتل البكتيريا، كيف حدث كل ذلك؟ بالتفكير بشكل التفافي، وبالتفرّد في طرح السؤال الذي لا يسأله أحد.

ما إن انتهى حتى ساد صمت مهيب، استمر عدة ثوانٍ، ثم رُجت القاعة بعدها بالتصفيق.

سارع اللواء «لطفي درويش» بمغادرة القاعة، يهز رأسه في بساطة وتواضع، يلحقه السيد هود ويستوقفه للحديث، بيد أنه لم يكن الوحيد الذي

يرغب في التحدث إلى اللواء أو إبداء شكره أو إعجابه، انسل من بين الجمع في هدوء، وعاد إلى عشته دون انتهاء.

كانت الأفكار في رأسه تتلاقح بشكل عجيب، مولدة العديد من الأفكار الصغيرة في طور الإنبات.

كان بحاجة ماسة إلى الاختلاء بنفسه، والاستماع إلى الأفكار التي يضج بها رأسه.

خلع معطفه وألقاه فوق الأريكة، ثم نزع عن الجدار لوحة لبحر تتوسطه سفينة تميل كل الميل في اتجاه اليابسة.

أفرغ الحائط من كل شيء، وبسرعة قبل أن تهرب الأفكار الوليدة من رأسه، أخرج من حقيبته مجموعة من الأوراق والأقلام الملونة.

أمضى ساعات الليل الطويلة في تقسيم الجدار إلى نصفين، فوق أحدهما يضع كل ما يخص حادثة «سنية»، من معلومات وأدلة وتقارير، ومخصصًا الآخر لـ «جواهر».

أما القسم السفلي فملأه بأفكاره واجتهاداته واستنباطاته المتلاحقة، استحوذت القضية على رأسه كشيطان تلبَّسه، لا يُطرد بالاستعاذة ولا يُصرَف بالبسملة.

عازمًا على فك خيوط القضية المتشابكة، بالاتكاء على المحاضرة التي خرج منها للتو، أخذ يراجع كل تفصيلة ويدوّرها في رأسه يُمنة ويُسرة.

امرأتان لا يجمع بينهما جامع سوى أن شارعًا واحدًا يفصل بينهما، مشطت الشرطة المنطقة عدة مرات، لا وجود لمشتبه به محتمل.

لا يزال الدافع غامضًا، هل الحي المشترك هو الدافع يا ترى؟ أم **الفئة العمرية التي تنتمي إليها المرأتان؟**

عادة، يقود الدافع إلى العثور على المجرم، وأحيانًا، يؤدي القبض على المجرم إلى فهم الدافع، لكن في هذه الحالة لا مجرم لديه ولا دافع.

عليه أن يبدأ من فرضية ما، وينطلق على إثرها متتبعًا للدلائل والقرائن والاحتمالات، والنقطة الرئيسية التي عليه أن ينطلق منها، أن ثمة رجلًا طليقًا يكن حقدًا غير مبرر -حتى الآن- على امرأتين لا يجمع على كرههما سواه.

واحدة لديها حفيد تكفله، والأخرى لديها ابن يعيش حياته في دولة أخرى، هل من الممكن أن يكون حقد القاتل موجهًا إلى الحفيد والابن؟

لكن أحدهما يفتقد جدته، والآخر نسي أمه واكتفى باتصال فاتر يخبر فيه المحققين بعدم تمكنه من حضور جنازتها، متعللًا بعمله وانشغالاته.

من الذي سيعود عليه قتل المرأتين بالنفع؟

«محسن سرحان» زوج الضحية الأولى، سيتمكن من امتلاك المطعم المتنازع عليه مع الضحية، لكن «جواهر» لا زوج لها ولا قريب ينتظر موتها كي يؤول إليه بيتها، حتى ابنها لا يهتم بما تركته أمه من ميراث.

والأهم من كل ذلك، كيف تمكن القاتل من إقناع امرأتين في هذا العمر بفتح الباب له دون مقاومة؟

ربما انتحل صفة معلم للطفل، وتمكن من دخول شقة «سنية»، لكن «جواهر» كما أفادت التحريات كانت امرأة متزمتة لا تثق بالغرباء، حادة الطبع، قليلة الاحتكاك بالناس، مهتمة بالنظام والنظافة إلى أبعد حد.

كيف أقنعها بدخول شقتها دون مقاومة؟ أي حيلة استخدم معها؟

القاتل لديه قائمة سابقة من نساء يزمع قتلهن، لهذا عثرت الشرطة على دم الضحية السابقة في بيت الضحية التالية، رجل بهذه الدقة وهذا الذكاء وهذا التنظيم، لن يقتل امرأة عبثًا.

لقد وقع اختياره على هاتين المرأتين عامدًا، فما الذي يملكانه ولا تملكه جميع نساء المدينة؟

حك رأسه بأظفاره النابتة، يروح ويغدو أمام الجدار الممتلئ بالملحوظات المدونة بأقلام مختلفة ألوانها.

- فكر يا «هود».. فكر.

بينما كان يتمتم لنفسه تذكر ما قاله اللواء في المحاضرة: «**في بعض القضايا عليكم التفكير بشكل متلوٍّ، أو كما نسميه نحن رجال الشرطة بـ «التفكير الالتفافي»، هذه الطريقة تمكنكم من قلب القضية رأسًا على عقب في رؤوسكم».**

هذا خطؤه إذن!

يفكر بشكل منطقي، في حين أن هذه القضية تضرب بالمنطق عرض الحائط، عليه أن يقلب المنطق رأسًا على عقب، يلتف حوله ويعجنه، يطويه ثم يقتطع منه ما يمكنه من تشكيل فكرة مبتكرة.

«فتكتشفون أن الجاني الذي كنتم تفتشون عنه طوال الوقت هو آخر شخص على قائمة المشتبه بهم، بل وأحيانًا شخص من خارج تلك القائمة».

بينما ترددت كلمات اللواء في رأسه الذي يضج بالأفكار، دار حول نفسه في الصالة الضيقة، عليه أن يفكر في السؤال الصحيح ليصل إلى المسار الصحيح.

السؤال الصحيح لن يكون عن الدافع، أو الحيلة التي استخدمها المجرم للاقتراب من الضحية، بل السؤال الصحيح أن يكون متفردًا، وثوريًا، مثلما تساءل الطبيب الإنجليزي عن عدم إصابة حالات الأبقار بالجدري البشري، ومثلما تساءل العالم الاسكتلندي عن اختفاء البكتيريا حول العفن.

إذن عليه أن يتساءل، لمَ لم تستغث الضحية؟!

كان «تميم» في الشقة نفسها مع «سنية»، والجار يسكن مع زوجته في الشارع نفسه، وكانت جارة «جواهر» لا تبعد عنها إلا خطوات لا تتجاوز الثماني، حتى إنه كان بإمكانها سماع صوت الخلاط كل ليلة.

كان بإمكان كلتا الضحيتين أن تصرخ، تستغيث، تنادي، تصيح.

لماذا لم يسمع صوتهما أحد؟

لماذا؟

يحاول أن يحذو حذو المجرم، ينتعل حذاءه، ويشعر بقلبه، ويفكر بطريقة تنافي المنطق.

وهنا، التمعت في رأسه فكرة مجنونة جدًّا!!

***

وصلت حماسته إلى درجاتها القصوى، كان يعيد تدوير الفكرة النابتة في رأسه، حين قاطعته طرقات على الباب.

اندهش لرؤية «ساري»، ترمقه بريبة بالغة:

- تبدو مثل المدمنين؟ ألم تنم لحظة؟ الفجر أوشك على البزوغ.

ساوره الحرج، حاول عبثًا تهذيب خصلاته باتخاذ أصابعه مشطًا، وبصوت مرهق تمتم بكلمات لم تفهمها.

- رأيتُ الضوء مشتعلًا في عشتك فتعجبتُ، أليس من المفترض أن لديك عملًا؟

- أي عمل؟

- ألم يخبرك صديقك النقيب؟ عثرت الشرطة قبل قليل على جثة في شارع 24!

تفحص هاتفه الذي ضبطه على الوضعية الصامتة، فوجد عشرة اتصالات فائتة من «درويش»، ورسالة واحدة كتب فيها: «عثرنا على الثالثة، سأرسل لك الموقع، لا تتأخر».

رسميًّا، أصبح هناك قاتل متسلسل يتجول في شوارع المدينة النائمة بين ذراعي البحر والنيل.

تقدمت رأس البر بمساحتها الصغيرة لتتصدر مواقع البحث، وتُصبح الوسم الأكثر تداولًا في مصر.

(21)

مِن نَسْل الغولة

حطَّ الشر رحاله في ساحة الجريمة الثالثة، نصب لنفسه خيمة كبيرة من الآهات والأنين، امتدت لتشمل مدخل البناية، وسلمات الدرج، وأركان الغرف.

استطاع السيد هود أن يشتم رائحة الشر تجوب شوارع رأس البر، يفتش لنفسه عن مكان للبيت، فيستقر به المقام في عشة بالطابق الأرضي بشارع.24

يستطيع أن يجزم أن الشر الذي بات ليلته في هذه العشة، ترك ثقلًا في الجو، يمكن تحسسه، وتنفسه.

ترك الشر خيمته ووقف بينهم يقضم أطراف أنامله في قلق. قال «درويش» وأمارات وجهه تنطق بالانفعال والسخط:

- المغدورة قُتلت قبل أيام، نحن في انتظار الطبيب الشرعي لتقدير زمن الوفاة بدقة، لكن أستطيع أن أؤكد لك يا «هود» أنها ماتت منذ ما لا يقل عن أربعة أيام، هل تصدق ذلك؟

كتم السيد هود أنفاسه بعضضه قليلًا، فقد كانت الرائحة مثيرة للغثيان، ثم صاح منفعلًا بدوره:

- أي الليلة ذاتها التي قُتلت فيها «سنية» و«جواهر»! هل قتل المجرم ثلاث نساء في ليلة واحدة؟

- إذا أكد فحص الجثمان هذه الفرضية، فسيكون تأثير ذلك مدويًا على الرأي العام، تخيل، رجل يقضي ليلة كاملة في قتل ثلاث نساء دفعة واحدة، أو ربما أكثر، كل ما فعلناه حتى الآن من استجواب وتطويق

لمسارح الجريمة والكمائن كان عبثًا، القاتل ارتكب جرائمه كلها دفعة واحدة.

مسح «درويش» آثار الإحباط البادي على محيّاه، ثم أردف بنبرة تحمل قدرًا لا بأس به من التفاؤل:

- لدينا شاهد هذه المرة.

تنفس السيد هود الصعداء متمتمًا:

- حقًّا؟ حمدًا لله، الحظ قرر مصالحتنا أخيرًا.

- يبدو ذلك، لكنه لم يتقدم بنفسه ليُدلي بأقواله.

- إذا لم يتقدم بنفسه، كيف علمتَ بوجود شاهد إذن؟

- رأيناه من خلال تسجيل الكاميرا الوحيدة المفعلة لأحد المنازل في الشارع الخلفي، لا تُظهر الكاميرا بيت الضحية ومداخله، لكنها على الأقل تمكنت من رصد الشاهد في الليلة التي نخمن أن الجريمة وقعت بها، لا أعرف لمَ يتـقاعس الناس عن أداء واجباتهم، لماذا لم يبلغ عن الجريمة ما دام كان شاهدًا عليها؟

- في أثناء دخولي، رأيتُ خبراء الأدلة الجنائية يعملون بالخارج.

- ليلة الجريمة هطل المطر كما تعرف، لكن هذه المنطقة تتميز بكثافة الأشجار وتشابكها، وبخاصة عند الجهة الخلفية من المبنى، أمرتهم بتمشيط الأرض جيدًا بحثًا عن آثار للأقدام حول البناية، هذه المرة لن يفلت المجرم الحقير من قبضتي.

الضحية الثالثة في ترتيب العثور عليها، زوجة في الخامسة والثلاثين، لديها ابنة في السادسة، وزوج محب رؤوف، لم يتوقف عن البكاء منذ أن رآها في هذا الوضع.

الجار المسِن الذي يعيش وحيدًا في عشة بالشارع المجاور، استضاف الزوج والابنة إلى أن يهدأ روعهما.

- لا حاجة إلى تحليل المعمل الجنائي لنعرف أن الدماء المنسكبة حول هذه الضحية لا تخصها، ولا تتوافق مع أي من الضحيتين السابقتين كذلك، بل تعود لضحية رابعة مجهولة. وإن دماءها الحقيقية هي تلك المنسكبة حول جثة «جواهر».

- إنها دائرة جهنمية يا «درويش»، لن تتوقف جرائم القتل إلا عندما تلتقي نقطة البداية والنهاية معًا فتـنغلق، حول جثة «سنية» عثرنا على دماء «جواهر»، وحول جثة «جواهر» وجدنا دماء هذه المرأة، قلت لي ما اسمها؟ «شيماء خالد» حسنًا. وحول جثة «شيماء» سنجد دماء ضحية جديدة، لن تنغلق الدائرة إلا بالعثور على دماء «سنية» الضحية الأولى.

- القاتل لديه قائمة ضحايا مُعدة سابقًا، الاختيار ليس عشوائيًا أو وليد اللحظة، لماذا هؤلاء النسوة بالذات؟ لماذا؟

تساءل «درويش» ثم أردف بحدة كأنه ذنب السيد هود لا مسارات قدرية:

- قلتَ إن الجريمة الثالثة ستؤكد النمط، ها هي أتت لتنسفه، الضحية الحالية في مرحلة عمرية مختلفة عن الضحيتين السابقتين، العشة في الطابق الأرضي لا الثاني، حتى الشارع بعيد عن المربع السكني الذي حددناه لمسرح الجريمة المحتمل، وفوق كل ذلك كان باب العشة مغلقًا من الداخل.

رمى السيد هود نظراته صوب باب العشة المهشم، ثم تساءل بدهشة:

- كيف عرفتم بالجريمة إذن؟

- زوجها اكتشف الجثة، ثم أبلغ النجدة.

- الضحية مقتولة منذ أربعة أيام حسب التقدير المبدئي، أين كان طوال هذا الوقت؟

- في زيارة إلى أهله بكفر الشيخ، برفقة ابنتهما الصغيرة، من أجل ترتيب زفاف أخته، ثمة خلاف عائلي بين الضحية وأهل زوجها، لذلك لم ترافقهما.

- ألم يحاول الاتصال بها طوال هذه المدة؟ ألم يقلق عندما لم تجبه؟

- غادر بعد شجار عاصف بينهما، لذلك ظنها لا تجيب بسبب ذلك، ثم عاد اليوم كما كان مقدرًا، وقد اشترى لها من السوق العمومي أغراضًا من أجل الحمية الغذائية التي كانت تتبعها، من أجل أن يصالحها، كان الباب مغلقًا، والزوجة لا تجيب، اضطر إلى كسره، عندئذ وجدها ميتة وسط الصالة.

- وهذا الشاهد، من يكون؟

- عامل في جهاز المدينة، كان يستبدل لمبات أعمدة الإنارة المحروقة وقت ارتكاب الجريمة المُقدَّر، تمكنا من تحديد هويته، إنه بالخارج يجلس في سيارة الدورية، سأتحدث معه قبل أخذه إلى المركز، أنه عملك سريعًا فرجال البحث الجنائي في انتظارك، أسرع يا هود.

أمر السيد هود الجميع بالابتعاد قدر الإمكان، وعدم تحريك شيء من موضعه، ثم مضى يصور كل ركن من أركان العشة، بصور ثابتة، وفيديو مدته خمس دقائق.

محاولَا بذل جهده لتجاهل الحزام الأصفر الذي يخنق خصر الضحية، يمسح العرق النابت فوق جبينه، ويأخذ أنفاسًا عميقة تُروِّض خوفه الخارج عن السيطرة.

مسرح الجريمة الحالي لا يختلف عن سابقيه، امرأة مطعونة، رمز استجابة سريع QR محفور فوق جبينها، ثلاث طعنات سطحية بالصدر، حزام أصفر. وبالطبع عبارة جديدة محفورة فوق نصل الخنجر الخشبي المغروز في فمها.

الجزء الجديد من الحدوتة هو ما كان يشغل عقل السيد هود، ويلهب فضوله.

ما إن انتهى من تصوير الجثمان، حتى أعطى إشارة خضراء للخبير الجنائي، فاقترب من الضحية، نازعًا الخنجر من فمها بروية.

تعامدَت النظرات الفضولية فوق الكلمات المحفورة، وما إن قرأها السيد هود حتى صفعته أيادي الدهشة صفعة مدوية، سُمِع صداها في أرجاء المعمورة!

***

في الخارج، وقف «درويش» يتحدث مع الشاهد الوحيد بعجالة، قبل أن يأخذ منه إفادة تفصيلية في استجواب رسمي.

- لماذا لم تُبلِّغ عما رأيته، لماذا سكتَّ؟

- أنا... كنتُ... خفتُ... خفتُ أن أتورط في شيء، أليس المُبلِّغ هو أول من تشك به الشرطة؟

- وهل كاتم الشهادة أفضل حالاً؟ هل تعرف عدد التهم التي بإمكاننا توجيهها إليك يا غبي؟ أقلهم عرقلة مسار التحقيق بحجب معلومات مهمة.

- وكتاب الله المجيد لم أقصد ذلك، أنا خفتُ يا باشا، خفتُ كثيرًا.

- سأمنحك فرصة واحدة لتصحيح خطئك، أخبرني بكل ما رأيته، من البداية. لا تغفل شيئًا مهما بدا تافها.

وقف العامل العشريني يتجرع المياه التي طلبها، حلقه جاف، وأطرافه مرتعدة من هول ما رأى.

كانت نبراته مذبذبة وكلماته تتصادم ببعضها، فتتساقط بعض الحروف من موضعها، وتتشوه مخارجها:

- أنا... كما قلتُ لسيادة الباشا الذي يقف هناك. اسمي «مسعد»، في تلك الليلة المشؤومة قبل أربعة أيام، كلفني الرئيس «حامد»، رئيسي في العمل، أن أستبدل باللمبات المحترقة أخرى جديدة رغم أنها لم تكن ورديتي من الأساس، الله يحرقك يا ريس «حامد».

- أكمل.

- أحد السكان اشتكى من كون الشارع معتمًا ليلًا يا باشا، في الشتاء كما تعلم سيادتك معظم العشش مغلقة وأيضًا مع انتشار أخبار السفاح...

قاطعه «درويش»، متسائلًا:

- من الذي قدم الشكوى؟

أشار بإصبع مرتعدة إلى المبنى الذي جرت فيه الواقعة، ثم أردف:

- السيدة التي تعيش هناك. أعني التي ماتت. الله يرحمها. هي التي قدمت الشكوى، قالت إن لديها ابنة صغيرة تخاف الظلام.

- أكمل، ماذا رأيت في أثناء عملك؟

- كنت أقف فوق هذا العمود هناك، كما ترى سعادتك أنه يبعد عن المبنى بمائة متر تقريبًا، خلعت اللمبة المحترقة، الله يحرقك يا ريس «حامد»، وكنت على وشك وضع الجديدة حين رأيت... اللهم احفظنا.

- ماذا رأيت يا «مسعد»؟

- لا أعرف كيف أصف ما رأيتُ يا باشا.

- صفه كما هو، كيف كان طول القاتل وحجمه وهل تمكنت من رؤية وجهه؟

- اللهم احفظنا. لم يكن القاتل رجلًا يا باشا.

- القاتل امرأة؟

- ولا امرأة. كان شيئًا لا يمت لبني آدم بصلة، يشبه العفاريت اللهم احفظنا.

- ماذا تقصد؟

- اللهم احفظنا، رأيت عباءة سوداء واسعة مفتوحة من الأمام، تقفز في الهواء عاليًا إلى أن بلغت نافذة الحمام بالطابق الأرضي، تجمدت في مكاني خوفًا، احتضنتُ العمود البارد لا أقوى على النزول، لئلا ينتبه إليَّ هذا العفريت ويأتي لِيبقر بطني، أو يفعل بي ما هو أسوأ.

- هل رأيته يدخل العشة؟

- لا، نوافذ حمامات عشش هذه المنطقة صغيرة وعالية، تشبه الكوة التي كنا نراها قديمًا داخل الدوَّار في البلد، وتقع في الجهة الخلفية من البناية حيث كنت أتسلق العمود، هذا العفريت كان أكبر من أن يدخل عبر النافذة الصغيرة.

- كيف قُتلت هذه المرأة إذن؟

- أعرف أنك لن تصدقني لكن وكتاب الله المجيد هذا ما رأيته، إن شاء الله أعدم الرئيس «حامد» إن كنتُ أكذب، مَد العفريت فمه الطويل الذي يشبه خرطوم الفيل عبر نافذة الحمام، وكأنه يمص شيئًا من داخل العشة، ظل هكذا عدة دقائق لا أذكر عددها، إلى أن انتفخ بطنه كأنه تناول وجبة عشاء دسمة، ثم طار إلى سطح المبنى إلى أن اختفى في الظلام.

- طار؟

- وكتاب الله المجيد هذا ما حدث.

قرب فمه من أذن «درويش» وقال باضطراب كمن يبوح بسر خطير:

- أرأيت سبب صمتي؟ من ليلتها وأنا أرتجف رعبًا، حبستُ نفسي في البيت ولم أقو حتى على الذهاب إلى العمل، أرجوك لا تخبر الرئيس «حامد» أو أيًّا من زملائي بما قلته، وإلا لأصبحت مسخة في أفواههم.

- اذهب يا «مسعد» من أمام وجهي، اذهب.

- ثمة شيء أخير يا باشا، هذا العفريت أحول؟

- أحول؟

- وكتاب الله المجيد أحول، كان ضوء العمود البعيد يسقط فوق عينيه، فتلتمعان وتتحركان كلٌّ في جهة.

ضرب «درويش» كفًّا بكف وأطلق سُبة لاعنًا حظه، الغبطة التي سكنت صدره لعثوره أخيرًا على شاهد، قتلتها شهادته العجيبة تلك.

عندما دخل العشة محل الجريمة، رأى السيد هود جامدًا في موضعه، تعلو وجوه الجميع حيرة تماثل حيرته.

- هل فحصتم الخنجر؟ ما الكلمات المحفورة فوقه هذه المرة؟

لم يجبه أحد، فأعاد سؤاله بحدة أكبر.

اقترب منه السيد هود، حاملاً بين يديه الخنجر الخشبي موضوعًا داخل كيس حفظ الأدلة الشفاف، ثم قرأ عليه الكلمات المحفورة بصوت خالٍ من العاطفة:

- «وأخبرني الشرُّ الذي لا يكذب، أن في كل بيت ظلًّا، وفي كل ظل سرًّا، وفي بطون الأسرار تعيش القَتُولَة6، إنها أنا أمكم الغولة»!

***

وقف «درويش» مع صديقه خارج البناية يفحص آثار الأقدام التي عثر عليها خبراء البحث الجنائي أسفل نافذة الحمام، ينفث دخان سيجارته بعصبية بالغة.

- ما معنى هذا؟

انتهى السيد هود من تصوير الآثار، مستخدمًا أداة قياس لتحديد أبعاد الأثر من طول وعرض وعمق، كان يعرف الإجابة سلفًا، إلا أنه آثر ترك الشرح لزميله الخبير الذي قال مؤكدًا:

- ليست أقدامًا بشرية يا «درويش» بك.

- إلى ماذا تعود تلك الآثار إذن؟

- أقدام ماعز!

تلاقت نظرات الصديقين، يستعيد كلاهما المعلومة التي يعرفانها جيدًا، «أمنا الغولة» في الحكايات الشعبية لها أقدام ماعز نحيلة، تمشي بها مسافات طويلة، وتجر من خلفها رداءها الأسود!

«أمنا الغولة» التي -حتى أمس- كانت مجرد حكاية خيالية عن عجوز تختطف الأطفال المشاغبين، وتترك أولئك المسالمين.

والآن، التقى الخيال والواقع في نقطة!

- بالمناسبة يا «درويش» بك، وجدنا الأثر نفسه فوق بركة الدم حول الجثة، كنتُ أشك أنها قدم ماعز، لكنني لم أصرح بذلك إلا عندما رأيته مرة أخرى فتأكد حدسي.

لم تكن القضية الأصعب لـ «درويش» منذ بدأ عمله في الداخلية فحسب، بل أيضًا الأكثر خروجًا عن حدود المنطق!

ضبط نفسه يتساءل في ذهول: هل القاتل المتسلسل هو «أمنا الغولة»؟

***

(22)

طرفا اللعبة

طافت تساؤلات السيد هود حول الفكرة التي انبثقت من رأسه بعد ليلة مؤرقة، قضاها أمام الجدار يحلل، ويفند، ويستنبط.

القلق يجثو فوق صدور الجميع، كل رتبة تضغط على ما تحتها، في سبيل العثور على الجاني، وإنهاء تلك القضية المؤرقة.

وبينما الجميع يتخبط في حيرة، لا يعرف أي طريق عليه أن يسهلك، كان السيد هود يقطع الشارع ويطرق باب عشة في الشارع الخلفي، حيث استضاف أحد الجيران زوج الضحية وابنتها.

استقبله الجار مرحبًا، رجل مُقعد يتحرك فوق كرسي متطور يعمل بالكهرباء، كان الزوج في حالة مزرية، ولم يتمكن من إتمام عبارة دون أن يجهش بالبكاء، ويكيل اللوم لنفسه:

- ليتني عدتُ مبكرًا، ليتني أخذتها معي، ليتني قلقتُ عندما لم تجب على اتصالاتي، ظننتها غاضبة مني بسبب شجارنا الأخير، لكن ما الفائدة من ألف «ليتني»، هذا لن يعيدها إليَّ مرة أخرى.

- ألم ترَ شخصًا غريبًا يحوم حول البيت في ليلة سفرك؟

- هل قُتلت ليلتها؟

- هذا ما نرجحه.

- لا، كان كل شيء طبيعيًّا، بصراحة لم أنتبه كثيرًا، خرجتُ منفعلاً بصحبتي ابنتي، ثم انطلقتُ بالسيارة مسافرًا.

تساقطت عبراته بغزارة بينما لسانه يلهج بذكر مآثر زوجته:

- «شيماء» كانت زوجة عظيمة وأمًا مثالية، لماذا يرغب أحدهم في قتلها؟ ماذا سأفعل من دونها؟ ماذا ستفعل ابنتنا الصغيرة من غير أم؟

قدّم له السيد هود آخر تعازيه، فيما كانت نظراته تفتش عن الصغيرة المتوارية عن الأنظار.

وبينما كان الجار مشغولًا بالتحدث إلى الزوج المكلوم عن الصبر والاحتساب، تبع السيد هود صوت نهنهة خافتة، عثر على الصغيرة أسفل الطاولة، تضم ساقيها ودميتها المحشوة إلى صدرها.

- ها أنت يا صغيرتي، لماذا تجلسين هنا؟ أعطيني يدك لأخرجك.

زادت الطفلة من ضم اللعبة، وأبعدت ذراعيها عن مرمى أنامل السيد هود الممتدة صوبها، أنّت بصوت يمزق نياط القلوب.

- عرفتُ أن اسمك «لارا»، اسم جميل، أنا السيد هود، اسم مركب غريب، أعرف.

لا تستجيب الصغيرة إلى حديث السيد هود، لا تولي أي اهتمام لثرثرته الخارجة عن حدود همومها.

سألها بغتة ومن دون مواربة:

- تعرفين الشخص الذي آذى أمك بهذا الشكل، أليس كذلك؟ هل هذا هو السر الذي يجب عليك عدم البوح به؟

اتسعت عينا الصغيرة فزعًا، ووضعت يدها فوق فمها تكتم ما لا يجوز البوح به، ثم صرخت بقوة لفتت انتباه أبيها فوثب مسرعًا نحوها، بجذبها إلى صدره ويصوب إلى السيد هود نظرات زاجرة.

- ماذا تفعل بها؟ ألا قلب لك؟

- أردتُ فقط سؤالها عما حدث.

- من فضلك اخرج، ابنتي ليست في حالة تسمح باستجوابها.

أومأ السيد هود برأسه متفهمًا، ومعتذرًا، ثم غادر من غير تباطؤ، إلا أنه التفت وألقى عليها نظرة أخيرة، كانت كافية ليدرك أن ظنونه في محلها.

كانت الطفلة ترمقه بذعر فيما تُطبق شفتيها بقوة، وتكتم فمها بكفها، تخشى انفلات السر من محبسه.

الحالة نفسها التي وجد عليها «تميم» ليلة مقتل جدته، لم يعد لديه ذرة شك في أن الطفلين يحتفظان بسر بات يعرفه!

توجه إلى مسرح الجريمة وحاول التحدث إلى «درويش» إلا أن هذا الأخير كان منشغلًا، فآثر الانتظار.

وفيما كان ينتظر، التقى اللواء «لطفي درويش» خارجًا من سيارته، استوقفه، وباح له بالفكرة التي انقضت عليه بعد محاضرته بالأمس:

- أظن أنني أعرف كيف تمكن القاتل من ارتكاب جريمته، بل وأعرف أيضًا هويته!

أولاه اللواء أذنًا مصغية، وعقلاً منفتحًا على كل الاحتمالات الممكنة! رغم ذلك، لم يتوقع قط ما سمع!

***

- هل تعي ما تقول يا هود؟ ما هذا التخريف؟!

هذا ما علّق به «درويش الصغير» عندما ألقى السيد هود ما بجعبته، أما «درويش الكبير»، فلم يعقّب بكلمة.

- إنه احتمال، عليك أن تتعامل معه بجدية.

- هذا ليس احتمالاً، بل هذيانًا!

فاضت حماسة السيد هود مستفيضًا في شرح فكرته:

- حاول أن تفكر في الأمر من زاوية مختلفة يا «درويش»، ستجد الفكرة عندئذ مقبولة بل ومستساغة أيضًا. ألم نتساءل طوال الوقت كيف تمكن القاتل من دخول العش دون مقاومة؟ كيف تمكن من إقناع عجوز متزمتة مثل «جواهر»، بفتح باب بيتها له؟ كيف فعل المثل مع «سنية» التي من المفترض أن تكون أكثر حرصًا مع وجود حفيدها بالداخل؟ ألم نتساءل عن سبب غياب الجروح الدفاعية من أجساد الضحايا ولماذا كنّ يثقن أن القاتل لن يؤذيهن فيبادرن بالدفاع عن النفس؟ جاءت هذه الفكرة إلى عقلي بعدما سألت نفسي: لماذا لم يسمع صراخهن أحد؟ ألم يخبرك الشاهد «مسعد»، أن الضحية الثالثة لم تصرخ أيضًا؟ وكذلك الضحيتان السابقتان، لم تصرخ أيّ منهما رغم وجود سكان في كل شارع، وها أنا أقدم لك الإجابة.

- ما تقوله جنون وليس إجابة. القاتل طفل!

- نعم، طفل. الطفل لن يثير شكوك تلكن النسوة، سيفتحن له الباب طواعية، سيستضفنه في بيوتهن في هذا البرد القارص، سيثير فيهن غريزة الأمومة فيقدمن له مشروبًا دافئًا، وخلسة يستطيع أن يدس المخدر في أكوابهن، ويتمكن من السيطرة عليهن.

- سأجاريك في هذيانك، ولماذا يرغب طفل في قتل أولئك الضحايا؟

- لا يرغب في قتلهن، بل في قتل واحدة بعينها، وباقي النسوة ما هن إلا محاولة تغطية على هدفه الحقيقي.

بلغت نبرة «درويش» الهازئة مبلغًا عظيمًا وهو يحرك ذراعيه في الهواء متسائلاً:

- أخبرنا من هذا القاتل المتوحش لنضع حالاً الأصفاد في يديه على الفور. يا «عمرو» جهز الأصفاد من فضلك، والعصي أيضًا، قد يحاول القاتل المقاومة. ها، لم تخبرني يا «هود» بهويته، «تميم» ابن السابعة؟ أم «لارا» ابنة السادسة؟

- اسخر كما تشاء، عامة سأجيبك، ليس أيًا منهما.

- لأذكرك، لا يوجد أطفال سواهما في تلك القصة.

- بل يوجد.

- «جواهر» لم يكن لديها طفل.

- لكن جارتها لديها طفل! طفلة على وجه التحديد.

طافت بذهن السيد هود الأغراض المتناثرة في بيت الجارة، التي رآها ذلك اليوم عندما كان «درويش» يستجوبها، ناعتًا إياها بالإهمال.

- طفلة تتجاوز العاشرة، فيما أظن، لا تزيد على الثانية عشرة على أي حال، أخبرتنا أمها أنها تزوجت قبل ثلاثة عشر عامًا. أولينا اهتمامنا بالأم ولم ننتبه لضرورة التحدث إلى ابنتها.

- لم أغفل شيئًا، أنا أقوم بدوري كأفضل ما يكون في هذه القضية، أعرف أن لديها ابنة، أخبرتني بذلك، وأخبرتني أيضًا أنها كانت في غرفتها طوال الوقت، لم تسمع ولم ترَ شيئًا.

- إما أن الأم تتستر عليها، وإما أنها لا تعرف أي وحش تأويه في بيتها. يعرف «تميم» و«لارا» تلك الطفلة جيدًا، ربما مارست عليهما لعبة سادية، ربما هددتهما سابقاً بقتل الأم والجدة، وربما هددتهما بما هو أكثر، لذلك يحاولان حفظ سرها بدافع الخوف.

- وكيف تمكنت من قتل أولئك النسوة؟ من أين أنت بهذا القلب؟ نحن نتحدث عن طفلة يا هود، طفلة.

- «ماري بيل» البريطانية كانت طفلة في الحادية عشرة من عمرها عندما خنقت طفلين بدم بارد، أحدهما في الرابعة، ثم كتبت رسالة ساخرة إلى الشرطة، كانت «ماري» ضحية طفولة مضطربة وأم سيئة مستغلة. و«جيسي بوميروي» أيضًا كان في العاشرة عندما عذب عدة أطفال، قتل منهم اثنين، وسمي بالشيطان الصغير، أما «جون فينابل» و«روبرت تومسون» الأمريكيان كانا في العاشرة عندما اختطفا صبيًا عمره سنتان من مركز تسوق، اعتديا عليه بوحشة وتركاه فوق قضبان أحد القطارات. «برايان بارتون» كان في الثانية عشرة، و«أندرو جولدن» كان في الحادية عشرة عندما ارتكب كلٌّ منهما جريمته.

خيم الصمت بثقله فوق صدور الجميع، فيما تمتم «درويش الصغير» معانداً:

- لكن هذه الحالات محدودة في الدول العربية.

- ألا تدرك في أي عالم نعيش يا «درويش»، أصبح بإمكان طفل في السادسة أن يتعلم الكثير بضغطة زر. هل تظن أن جميع الأهالي تُربي؟ كثيرون ألقوا بتلك المهمة المقدسة على عاتق المدرسة والشارع والإنترنت، الطفل لا يملك فلترًا يستطيع من خلاله أن يفرز ما يتعلمه، ولا يملك المنظومة القيمية التي تؤهله ليعرف الشر حين يلتقيه وجهًا لوجه لأول مرة.

- أتريد أن تقنعني بأن القاتل الذي تقف لأجله الداخلية كلها على قدم وساق لأجل القبض عليه هو مجرد طفلة لم تتجاوز الثانية عشرة؟ هذا يتجاوز حدود المنطق.

استعار السيد هود نبرة صديقه الهازئة، قال منفعلاً:

- إذن تريد أن تمضي في نظرية «أمنا الغولة» تلك؟

دنا منه «درويش» يرمق بنظرات متحدية ومتمتماً:

- تبدو لي نظرية «أمنا الغولة» أكثر معقولية من نظرية «الطفلة القاتلة». على الأقل، لدي شاهد عيان.

ظل اللواء «لطفي درويش» ملتزمًا للصمت طوال الحوار المتأزم بين الصديقين، إلى أن بلغا تلك النقطة فأفصح مفكرًا:

- لا يمكن استبعاد أي احتمال مطروح فوق الطاولة.

التفت اللواء إلى ابنه حازمًا ومتسائلاً:

- هل طلبت تحليل سموم للضحيتين السابقتين؟

- بالطبع فعلتُ يا سيادة اللواء، هل تراني هاويًا؟ لا يوجد أي مواد مخدرة في أجساد الضحايا.

- تقرير السموم لا يُظهر سوى المواد التقليدية، عليك أن تجري تحليلًا متقدمًا، بالبحث عن مادة بعينها.

- وكيف أخمن المادة المخدرة التي عليَّ البحث عنها؟

- تلك مهمتك يا سيادة النقيب.

تأفف «درويش» واحتقن وجهه بشدة، يغيظه ميل والده لحدس صديقه غير المنطقي، وقبل أن يستطرد بشيء، أردف أبوه بالنبرة ذاتها:

- واطلب من المصور الجنائي البديل تصوير كل ركن من سطح البناية بعناية فائقة، على أن يُفحص من قِبَل الفريق بدقة، أريد صورًا لكل شبر وكل زاوية متتبعين في ذلك أقوال الشاهد.

تمتم السيد هود منزعجًا:

- كنتُ متوجهًا الآن لتصوير السطح بنفسي، لماذا تستعين بمصور آخر؟

- لأنك ستستكمل إجازتك من حيث أوقفتها، تحتاج إلى الراحة.

- بل أحتاج إلى العمل يا سيادة اللواء أرجوك، هذا مضيعة للوقت و...

- نفذ ما أُمرتَ به، واترك مسألة الطفلة جانبًا.

استرق كل منهما النظر إلى الآخر، متشبثًا بنظريته.

كأنهما في تحدٍّ، أو لعبة.

نجح القاتل في مسعاه ببراعة، حوَّل القضية إلى لعبة، طرفاها مصور جنائي وضابط شرطة!

فلمَن ستكون الغلبة يا تُرى؟

***

(23)

الظلام المختبئ في ضفيرتها

- ممتن لك يا «ساري» على عرض المساعدة.

تلقى اتصالاً منها في أكثر أوقاته احتياجًا إلى أذن منصتة، وقلب متفهم، حدثها بكل ما تجيش به نفسه، وطلب مقابلتها.

- صوتك على الهاتف لم يبشر بخير، هل تظن أن الطفلة هي القاتلة حقًّا؟

- لا أراكِ مقتنعة بفكرتي.

- بصراحة يا «هود» يصعب عليَّ تصور ما تقول، طفلة قاتلة، هذا مريع، مقزز حقًّا، لكن لن يضيرنا التحدث معها على أي حال.

تجاهل السيد هود بروز بطنها، وامتن لكونها سارعت بضم طرفي المعطف فور أن مرت نظراته فوقها.

كان بحاجة إلى شريك في اللعب، عين محايدة، تكشف ما يغفل عنه، وتلتقط ما سقط.

و«ساري» هي الخيار الأمثل لهذه المهمة العصيبة.

تقابلا أمام بيت «جواهر»، وسارعا في طرق باب المستأجرة، التي لا تزال تقيم في الشقة المقابلة لشقة الضحية بالطابق الثاني.

أبدت المرأة وزوجها دهشة ممزوجة بالقلق، وتساءلا إن كان هذا استجوابًا رسميًا، فأوضح لهما السيد هود مضيفًا إلى كلماته ملح الكذب:

- بل زيارة ودية، صديقتي «ساري» اختصاصية نفسية، تهتم بصحة الأطفال الذين يتعرضون لحوادث مخيفة أو يشهدونها، وهي مكلَّفة بتقييم وضع ابنتكم والتأكد من سلامتها النفسية، إنها بالبيت، أليس كذلك؟ رأيت دراجتها مربوطة بالبوابة بالأسفل.

- إنها بغرفتها.

أجابته الأم متوجسة، فبادرت «ساري» بالحديث تطمئنهما، وقد نجحت في ذلك إذ أفسحت المرأة لهما الطريق، ودعاهما الزوج للجلوس، الذي قال بقلق:

- «شمس» ابنتي ليست متورطة في شيء، أليس كذلك؟

لم يخف السيد هود ورفيقته أمارات الدهشة التي تبدت جلية فوق وجهيهما، بينما الأب يستطرد في حدة:

- لم نعتد اهتمام الشرطة بالحالة النفسية للضحايا، لا بد أن هناك سببًا آخر لرغبتكم في التحدث معها.

تنحنحت «ساري» تقول بنبرة متلطفة:

- أفهم تخوفك، لكن صدقني، نريد فقط الاطمئنان أن كل شيء يسير كما ينبغي، ثم ربما شهدت ما تخفيه عنكما، وستفضّل التحدث إلى شخص غريب، لا تقلق، أنا أجيد التعامل مع الأطفال، سأعاملها كما لو كانت ابنتي.

- إذا رفضت التحدث، فسينتهي اللقاء فورًا.

- بالطبع، لك ذلك. هل نستطيع لقاءها في غرفتها؟ غرفة الطفل ومحتوياتها توضح الكثير عن طبيعة شخصيته ومزاجه الحالي.

لم تبد الأم اعتراضًا، إلا أن الأب اشترط بحزم:

- سيظل الباب مفتوحًا.

فسارعا بقبول شرطه. على باب الغرفة، أوقفته «ساري» بإشارة من يدها، وقالت:

- دعني ألتقيها وحدي يا «هود».

- بالطبع لا، أريد أن أعرف ما يدور في عقل الفتاة، وما إن كانت متورطة.

- إنها فتاة صغيرة، قد تخجل منك، وربما تواجه صعوبة في التحدث بأريحية أمامك، أنا فتاة مثلها، أستطيع التقرب منها وتطويعها.

أومأ السيد هود برأسه متفهمًا، وإن كان من هذا القرار متبرمًا. تظاهرت أنها لم تر انعقاد حاجبيه، ولم تسمع زفرته الحانقة.

وقفت «ساري» على أعتاب الغرفة، بعد خروج الأم التي أنبأت ابنتها بقدوم زائرة، ما إن ألقت نظرات مستطلعة على الغرفة ومحتوياتها حتى شعرت بانقباض صدرها!

خطت إلى الداخل ثلاث خطوات، هذا كل ما استطاعته، قبل أن تتوقف قدماها عن الحراك، ترصد محتويات الغرفة القاتمة.

كل شيء من حولها أسود، يتداخل معه الأرجواني الداكن والأحمر القاتم في مزيج مقبض، السجادة، الستارة، الصور المعلقة فوق الجدران، والملابس المطروحة على المشجب.

وأكثر ما كان باعثًا على القلق، هو الفتاة نفسها.

تجلس فوق مكتب أبنوسي، ترسم بفرشاتها فوق لوحة أمامها، وتولي ظهرها إلى «ساري» التي اقتحمت عالمها الخاص من غير دعوة.

على الفور أدركت «ساري» أنها تقف أمام فتاة جوثية، تتبع ثقافة الجوث(1)7 بحذافيرها.

اجتذبتها تفاصيل الصور المعلقة فوق الجدران، بعضها قديم مشوش، وأخرى تؤطر ظلال أشباح تطارد بعضها.

ألقت نظرة سريعة على الكومود الوحيد بجوار الفراش الصغير، الذي كان من الخشب القديم، يبدو أن هذا لم يرق للفتاة فربطت فوقه أوشحة سوداء شفافة.

فوق الكومود برزت حواف جانبية لما يقرب من عشرة كتب، استطاعت نظراتها المتعجلة رصد أربعة منها: رواية سوداوية لإدجار ألان بو، «فرانكشتاين» لماري شيلي، «كورالاين» بلغتها الأصلية، و«دراكولا» لبرام ستوكر.

أثارت تلك الأخيرة حفيظتها، مصاص دماء يعيش في قصر مهجور. ويتجول ليلًا لامتصاص دماء ضحاياه، ألا يتشابه هذا بشكل فج مع القاتل الذي يجوب رأس البر ليلًا، مفرغًا أجساد نساء المدينة من الدماء؟

أصابت جسدها رعدة خفيفة، سيطرت عليها سريعًا، تنحنحت ثم تمتمت بنبرة لا تشي بعمق اضطرابها:

- مرحبًا.

ظلت يد الفتاة تتحرك بروتينية فوق اللوحة التي انكفأت عليها، لا تولي المرأة الواقفة خلفها شطر انتباهها.

- كيف حالك يا «شمس»؟

نادتها «ساري» بنبرة رقيقة متلطفة، توقفت يد الفتاة عن الرسم، ظلت معلقة في الهواء لثوان بدت كدقائق خانقة، كأن للغرفة مدارها الزمني الخاص، كل شيء فيها يحدث بإيقاع مخالف لما تدور به الحياة خارجها.

استدارت الفتاة التي على أعتاب الثانية عشرة، نحو محدثتها ببطء، ترمقها بنظرات ميكروسكوبية، بعينين واسعتين، محدقتين بحدة.

غاص قلب «ساري» في صدرها، للفتاة هالة قاتمة كتلك التي تحيط بأغراضها، شعرها الأسود أشد قتامة من أن يكون بدرجته الطبيعية، شفتاها مصبوغتان بحمرة داكنة كتلك التي تمتد في خيوط السجادة السميكة، وحول عينيها طبقات من الكحل الكثيف، شعرت معه «ساري» أنها لا تنظر إلى عين بشرية.

- اسمي «إيزيس».

منحت الفتاة نفسها اسم إلهة مصرية قديمة ارتبطت بالسحر والغموض، تفهمت «ساري» بغض الفتاة لاسمها، إذ كان مناقضًا لعالمها المظلم الذي أحبت أن تسكن قلبه، وتُسكنه قلبها.

- أعتذر لم أكن أعرف أنك تفضلين هذا الاسم، كيف حالك يا «إيزيس»؟ أنا «ساري»، اختصاصية نفسية أرسلتني الشرطة للاطمئنان عليك.

هنا قررت الفتاة استكمال استدارة جسدها، وجره للوقوف، بدت قامتها تماثل قامة المرأة الواقفة قبالتها، خفضت «ساري» رأسها فأبصرت الحذاء ذا الكعب العالي السميك الذي اختزل الفارق الطولي بينهما.

ينسدل فوق جسد الفتاة فستان طويل أسود يعتصر خصرها النحيل بشدة، تنتهي أكمامه الطويلة بشريط عريض من الدانتيل، يعلوه وجه شديد الشحوب، كأنها «دراكيولا» في نسخته الأنثوية العصرية.

أصابتها تلك الفكرة بالتقزز ودفعت معدتها لتنقبض.

- هل تظنينني فتاة ساذجة سهلة الخداع؟

- بل أنتِ فتاة ذكية.

- ما زلتِ تحاولين خداعي، لماذا لا تتكلمين صراحة، أم أن حياتكِ المصطنعة في هذا العالم الزائف محت كل الصدق الذي بداخلك؟

استرقت «ساري» نظرة خاطفة إلى الكومود مرة أخرى، فعرفت سر بشرتها الشاحبة، كريم تفتيح البشرة الذي يمنحها مظهرًا مميزًا لفتاة جوثية مثالية.

لم تغفل القلادة المتدلية من رقبة الفتاة، تتوسطها جمجمة، ولا الأساور الثلاثة الجلدية، يحيط أصابعها عشرة خواتم معدنية، كل منها يمثل مجسمًا لا

تستبينه «ساري» من موضعها مع الإضاءة الصفراء الخافتة.

تخلت «ساري» عن نبرتها الرقيقة المتلطفة، ووجهت كلامها إلى الفتاة بنبرة جادة قوية، كحديث امرأة إلى امرأة:

- أنا هنا لأتجاذب أطراف الحديث معكِ عن الحادث الذي وقع لجارتكم السيدة «جواهر» مالكة البناية، لا بد أنه أرعبكِ.

- تقصدين تلك العجوز المتسلطة، كلا لم يرعبني.

- يبدو أنكِ لم تكوني على وفاق معها.

لاحظت «ساري» استمتاع الفتاة بموضع القوة، فتركتها تتلذذ قليلاً.

أردفت الفتاة:

- لماذا تكرهين صرصورًا زاحفًا فوق بطنكِ العاري في أثناء الاستحمام؟

اقشعر بدنها وهي تتخيل المشهد الذي أقحمته الفتاة بعقلها، أجابت بنبرة هادئة حازمة:

- لأنه حشرة مقززة.

- وكذلك العجوز، كانت حشرة مقززة.

تخيرت «ساري» عبارتها التالية بعناية، مراقبة كل خلجة تشي بها وجه الفتاة وجسدها:

- تظنين أنها تستحق السحق مثل الصرصور؟

- سَحْق صرصور واحد لا يفيد كثيرًا عندما يعيش من حولك مستعمرة.

نفضت الفتاة فستانها بعنف، ففاحت منه رائحة ثقيلة انتشرت سريعًا في أرجاء الغرفة، لم تجد لها «ساري» وصفًا مناسبًا، سوى أنها حفزت معدتها للغثيان.

قاومت العصارة الحارة الزاحفة صوب جوفها، وقالت بشيء من الود المصطنع، منقبة عن مسلك يقربها من الفتاة خطوة، وهي ترنو إلى إحدى الصور الجدارية:

- أستطيع أن أخمن أنكِ تحبين الأنيمي الياباني الذي يحمل طابعًا خياليًا مظلمًا، هل يروقكِ Tokyo Ghoul؟ أنا شخصيًا أحب Death Note أكثر.

- كاذبة، مزيفة، مصطنعة.

قالتها الفتاة كأنها ترمي في وجه «ساري» ثلاث بصقات متتابعة. تتنامى بداخلها غضب سمحت لبعض منه أن يطفو على السطح، تبدى في صوتها وقسماتها وهي تقول بشكل مباشر:

- حسنًا، فلتخبريني إذا كنتِ تعرفين شيئًا عن حادثة القتل، هل لكِ علاقة بما حدث لجارتكِ؟

- الآن نجري حوارًا حقيقيًا.

- أنتظر إجابتكِ.

- هل تظنين أن والديّ سيكونان راضيين عن توجيه مثل هذه الأسئلة إلى ابنتهما الصغيرة البريئة؟

- لستِ صغيرة، أرى عليكِ علامات البلوغ، لذلك أوجه لكِ أسئلة تليق بامرأة.

ابتسمت الفتاة بجذل، أطبقت بأسنانها الأمامية فوق شفتها السفلية، وقد بلغ استمتاعها ذروته. عاقدة ذراعيها خلف ظهرها، ترمق «ساري» من رأسها

إلى أخمص قدميها كأنها تفحص حشرة تحت عدسة مجهرية، تستمتع بكل ثانية تشعر فيها أنها في موضع قوة، واستقلالية.

- هل تعرفين كيف ماتت السيدة «جواهر»؟ لو كانت لديكِ أي معلومة أخبريني بها.

- لماذا أساعدكِ؟

لم تستطع «ساري» كبح غضبها المتنامي، سمحت للمزيد بأن يطفو على السطح، وإن كانت تحرص على ألا يبلغ صوتها مسامع الأبوين الجالسين في الصالة الواقعة في أول الرواق الطويل.

- ثمة امرأة ميتة نحاول العثور على قاتلها قبل أن يقتل المزيد. تعرفين بالتأكيد ما يدور برأس البر، ثلاث نساء قُتلن بالطريقة نفسها، أي إنسان سوي يملك معلومة سيدلي بها في الحال.

- وماذا سيحدث إن قبضت الشرطة على القاتل؟

- يخضع للمحاكمة، وينال جزاءه.

- لماذا يُعاقَب؟ إنه يستحق التكريم.

- لأنه قتل ثلاث أرواح بريئة؟

- لأنه خلص العالم من ثلاث حشرات مقززة.

اقتربت الفتاة خطوتين، اندست رائحة عطرها في أنف «ساري» غصبًا، كتمت الأخيرة أنفاسها، واستقبلت باضطراب غضب الفتاة وفحيحها:

- تلكن النسوة استحققهن فقد كل قطرة من دمائهن الخبيثة.

هزت رأسها مؤيدة لتلك الفعلة المتوحشة، تقلصت قسماتها تحت الإضاءة الخافتة، فبدت مثل وحش فرانكشتاين وقد استيقظ للتو، وقرر مطاردة صانعه.

مسدت ضفيرتها التي تلتف فيها خصلات شعرها حول خيوط الظلمة، تمتمت بثقة:

- لسنَ ضحايا كما تظنين.

حكّت فروة رأسها بخشونة، ثم أردفت كأميرة أرستقراطية:

- قاتلهن قدّم معروفًا للإنسانية، لو كنا نعيش في عالم منصف لاعتلى منصات التكريم.

شعرت «ساري» أن الجدران تطبق على أنفاسها، والأرض تميد أسفل قدميها، استندت بأنامل مرتعدة إلى حافة الفراش، تنامى صوت الفتاة إلى سمعها كأنه قادم من عمق سحيق:

- هل أنتِ حامل؟

تحسست «ساري» بطنها، تقاوم الغثيان، تضم طرفي المعطف وتخفي البروز الناشئ نافية.

تفلت طرف المعطف من بين كفيها المتعرقتين، استندت برؤوس أناملها إلى حافة الفراش من جديد، وقاومت كيلا تسقط سقطة مدوية.

كورت الفتاة قبضتها، وتبدت أسنانها، بيضاء ناصعة وسط بشرتها الشاحبة، وبغتة سددت إلى بطن «ساري» ضربة قوية، عجزت معها تلك الأخيرة عن التأوه، إذ شعرت أن الهواء غادر رئتيها رافضاً العودة إليها.

- «لولا سلامك سبق كلامك لكنت أكلت لحمك قبل عظامك!».

اتخذ صوت الفتاة نبرة فحيحية، مرددة كلمات «أمنا الغولة» في الحكاية المروية!

جرَّت «ساري» ساقيها خارج الغرفة، مرتعبة، ومتألمة، تشيعها نظرة خارقة من وجه الفتاة الهارئة.

في الرواق وجدت السيد هود مستنداً إلى الجدار، ومتلصصاً عليهما طوال الزيارة المقبضة.

وقبل أن تغيم الدنيا أمام عينيها، شعرت بميل تدريجي إلى حدس السيد هود القائل بأن الفتاة هي القاتل!

***

(24)

دليل معلق بين الشك واليقين

الفتاة هي القاتل!

ما فتئ السيد هود يرددها داخليًا طوال وقت انتظاره في رواق العيادة الطبية.

كانت «ساري» في حالة إعياء شديدة، تُمسك بطنها وتعتصر، تقيأت مرتين قبل مغادرة بيت الفتاة الجوثية، واعتذرت للزوجين بخجل.

جلس السيد هود إلى جوارها في المقعد الخلفي لسيارة الزوج، إذ تطوع بتلك التوصيلة المجانية.

وجه إليهما سؤالاً عما انتهى به الحديث مع ابنته، لكن أحدهما لم يكن في حال تسمح بإجابة السؤال الذي ظل معلقًا في مشنقة الفضول، إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

ثم ساد الصمت على ثلاثتهم طوال الطريق.

أمام باب غرفة الفحص لطبيبة النساء والتوليد، طفق السيد هود يذرع الممر مجيئًا وذهابًا، جزء من عقله مشغول بـ «ساري» ووضعها، يتساءل في نفسه عن حال جنينها، وقد بات غير قادر على اعتناق التجاهل والوقوف في منطقة محايدة.

لم يفكر في الاتصال بـ «نسيم»، في الحقيقة أغلق هاتفه، بعد أن أزعجه «درويش» بالاتصال لسبب لا يعلمه، ولا يود أن يعلمه.

أما باقي عقله فكان منشغلاً باسترجاع حوار «ساري» مع الفتاة الجوثية، التي تتخذ من «إيزيس» اسمًا لها، بعد أن انطفأت شمسها.

قابل في إحدى القضايا مراهقًا مثلها، يستمع إلى الموسيقى القاتمة، يرتدي الأسود، وتشع من جسده الزينة المعدنية، يطيل شعره ويصبغه بالأبيض.

في الليلة التي رآه فيها، كان الفتى مجرمًا لا ضحية، أقدم على ذبح والديه بدم بارد في أثناء نومهما، ولم يبُح قط بالسبب خلال التحقيق.

عندما تحدث إليه السيد هود بمعزل عن الضباط والخبراء الموجودين في مسرح الجريمة، كان يشغله سؤال واحد: لماذا؟

هز الفتى كتفيه برعونة، جاهلًا بالسبب.

لا يمثل، لا يدّعي، كان حقًّا لا يعرف السبب الذي جعله يتخلص من أبويه بتلك الوحشية، أو ربما لأن السبب كان أتفه من أن يصمد أمام فعلته الرهيبة.

أراد السيد هود حضور محاكمته، ويومها رأى فتى غير الفتى، تبدل مظهره، من ملبس وشعر وزينة، حتى عينه باتت حية وحقيقية، والندم الذي سكنها كان أيضًا حقيقيًا.

لمس في الفتى ضعفًا وهشاشة ليلة القبض عليه، وكان يعرف أن انهياره مسألة وقت، سيدرك بعدها أي جُرم ارتكبه في حق نفسه وفي حق أحبابه.

أما الفتاة الجوثية، «إيزيس» التي تشعر أنها إلهة مصرية، غير قابلة للانهيار، صامدة كأنها مشيدة من حجر صوان، لا من لحم ودم وأعصاب.

هذه الفتاة في نظره مشروع سفاح، وجد التحفيز الكافي لوضع خيالاته موضع التنفيذ.

تفوهت الفتاة بكلمات «أمنا الغولة»، وأبدت بلادة وتشفيًا في مقتل جارتها العجوز، كما يليق بتصرفات شخص معتل اجتماعيًا.

تملك الذكاء الكافي للعب مع الكبار، والرغبة كذلك.

لا شك في أنها القاتل!

لكن كيف يستطع أن يثبت ذلك؟

عليه أن يعود إلى عشته، يرسم التفاصيل الجديدة فوق الجدار، بعد إضافة الضحية الأخيرة «شيماء»، إلى سابقتيها «سنية» و«جواهر».

صار لديه ثلاث ضحايا، بالتأكيد سيتمكن من إيجاد رابط يساعده، ونمط يمكّنه من الإيقاع بتلك الشيطانة الصغيرة.

بزغ في رأسه سؤال ملح، أخرج هاتفه، واتصل بوالد الفتاة الجوثية متسائلاً باهتمام:

- هل تحب ابنتك تسلق الأشجار؟

- لا أعرف لماذا تسأل عن ذلك، لكن «شمس» ابنتي تحب منذ الصغر تسلق كل شيء، الأشجار، الجدران. وحتى المواسير.

ها هو قد عرف كيف تمكن القاتل من الدخول عبر نوافذ الحمامات الضيقة، لأنه ببساطة نحيل جدًّا، في حجم فتاة قصيرة مراهقة!

لم يبق أمامه سوى العثور على دليل، دليل صغير جدًّا، يثير الشك الكافي حولها.

وسيعثر عليه، أقسم لنفسه، تعويضًا لكل ضحية خذلها.

(25)

النسيان كبسولة نجاة مؤقتة

- «ساري»، كيف أنت، أحسن؟

أقبل عليها السيد هود بلهفة لم يخفها. هزيلة ومشوشة أومأت برأسها تطمئنه.

- بماذا أخبرتكِ الطبيبة؟

- أنا بخير.

أجابته باقتضاب، تولي وجهها شطر باب المستشفى، بعيدًا عن نظرات السيد هود المتفحصة.

ما زالت تستظل بالإنكار، تحاول طمس الحقيقة الساطعة، مَد المظلة ورافقها تحتها بدوره.

تركته أمام عشتها دون كلمة، كانت مرهقة، وشاحبة، كأن الفتاة اللعينة امتصت روحها، كما أفرغت أجساد الضحايا من الدماء.

ما إن صعد الدرجات القليلة المؤدية إلى عشته، حتى رأى أمامه آخر إنسان توقع أن يُقدم على زيارته، لماذا يقرر الجميع مباغتته باحتلال مقعد داخل الشرفة؟

الشمس لا تزال جالسة على عرشها، تميل نصف ميلة إلى الجهة الغربية، لم يعرفه للوهلة الأولى، تفرس فيه عدة ثوانٍ كانت كافية ليلتقط شيئًا من ملامحه.

تجعدات كثيرة، من و

«مبسوط القرداتي» الذي كان صندوق السعادة لكل أطفال رأس البر، إلى أن قرر قتل أمه لسبب يجهله.

- يااااه، هل يفعل الزمن كل ذلك؟ أم أنت الذي شبت قبل أوانك؟ ألا تتذكرني يا «هود» الصغير الجميل؟ هذا أنا، عمك «مبسوط».

كره السيد هود نبرته الودود، ونظرته العطوف، وتهدُّل كتفيه ضعفًا، وبسط كفيه هونًا.

طوال هذه السنوات، كان يحلو له أن يفكر في «مبسوط» كوحش له مخالب وأنياب، شيطان متخفٍ يرتدي جلدًا بشريًا، يسحب خلفه ثلاثة قرود من نسله، شياطين صغيرة ترتدي جلدًا حيوانيًا.

محاولًا بذلك أن يقتل ذكرياته الجميلة ومشاعره الطيبة تجاه الرجل الذي سلبه أمه، ودمر طفولته.

أما الآن وهو يقف أمامه بعد كل هذه السنوات من التخيل، لم يبدُ له كوحش قط، إنما رجل حطمته قضبان الزمن، سحقته جسدًا وروحًا، فقد ذراعًا، واشتعل رأسه قهرًا.

- لم أقتل أمك يا فتى، أنا مقتول مثلها، وقاتلي معروف، إنه سيادة اللواء.

بعد خروجه بصحبة «ساري» من المشفى، وفي أثناء عودتهما، فتح هاتفه واستقبل مكالمة «درويش» اللحوحة، أفضى إليه صديقه أخيرًا بالحقيقة المنكرة.

«القرداتي» كان بريئًا من دماء أمه، لم ينطبق تحليل الشعرة مع حمضه النووي.

عندئذ مرت بخياله لحظة خاطفة، جزء مقتطع من ليلة الحادثة، عندما قفز فوق القاتل الجاثي بجوار أمه الممددة أرضًا، أمسك بشعره، وجذبه جذبة عنيفة، اقتلع إحدى الشعيرات وأسكنها كفه الصغيرة المطبقة.

ثم دفع القاتل جسده الصغير دفعة قوية، جعلت رأسه يصطدم بالطاولة، خلفت في منتصف جبينه جرحًا لا يزول، غاب وعيه، ومعه ذكرياته عن ليلة الحادثة.

الشعرة التي ظن أنها دليل إدانة «مبسوط»، اكتشف اليوم أنها كانت دليل براءته!

قاتل أمه الحقيقي كان حرًا طليقًا طوال هذه السنوات.

- أنا لم أشهد ضدك، لا أتذكر شيئًا من الأساس لأشهد به، لا شأن لي بسجنك.

- أعرف يا فتى، أعرف. لم تؤذِ يومًا عمك «مبسوط»، الذي أحبك مثل ابنه، لكنك أيضًا لم تساعده، لماذا لم تخبر الشرطة عن الشعرة التي أخفاها سيادة اللواء؟ كانت تلك الشعرة دليل براءتي، دليل براءتي الوحيد يا «هود».

- كنتُ طفلًا صغيرًا، أجهل الكثير من تفاصيل القضية، والآن، ماذا تريد مني؟

- كلانا يريد الشيء نفسه.

احتار السيد هود، إلام يرمي الكهل الذي تعرض لسرقة عشرين عامًا من عمره؟

أي رغبة مشتركة قد تجمعهما؟

للسيد هود رغبات عديدة، لكن لا يظن أن من بينها ما يصلح لأن يكون قاسمًا مشتركًا مع الرجل الواقف قبالته.

- تحدث بوضوح من فضلك.

- ما يريده كلانا، هو الانتقام من سيادة اللواء على ما سببه لنا من ألم، ظلمني بسجني، وظلمك بحرمانك من القصاص من قاتل أمك الحقيقي.

- لا أريد أن أنتقم من أحد، لا شك لدي في حسن نيته، لقد كان يؤدي واجبه.

- أخفى الشعرة، سرق من الأحراز الدليل الذي يثبت براءتي، ويدين قاتل أمك، يجب ألا يمر ذلك من دون عقوبة.

- كلنا نخطئ ونصيب.

- أستحق أن يعرف الجميع براءتي، مثلما شهدوا إدانتي، يستحق اسمي أن يتطهر.

- ليت العالم يمنح كلًا منا ما يستحقه.

- أنت تعرف ما حدث ليلة الجريمة.

- لا أستطيع أن أتذكر.

- لا تستطيع؟ أم لا تريد؟

اجتاحته زلزلة قاسية لعدة ثوانٍ، ظن خلالها أن الأرض تميد به، ولما رأى «القرداتي» يقف ثابتًا، أدرك أن الزلزال بدأ وانتهى بداخله.

- ماذا تقصد؟

بينما سأل بأنفاس لاهثة، طافت كلمات «ساري» برأسه: «فرق كبير بين التناسي والنسيان يا «هود»!»

لماذا يدَّعي كلاهما الشيء نفسه؟

ضرب الصداع برأسه، شعر أن جمجمته مثل جبل يتصدَّع.

دنا «مبسوط» منه دون أن تفترق نظراتهما ولو لثانية، تجاعيد وجهه خلايا معذَّبة، كأنها جيوب أخفى فيها الزمن أسرارًا نتنة الرائحة.

مال صوبه، وهمس مطلقًا سراح سر حبسه طويلًا واختنق به عقدين من الزمن.

- ألا تتذكر حقًا شجارك مع أمك ليلة الحادثة؟

هز السيد هود رأسه نفيًا بقوة، جف فمه، والتصق لسانه في سقف حلقه، هربت منه الكلمات، واشتجرت المعاني ببعضها، ماذا يقصد «مبسوط»؟ عن أي شجار يتحدث؟

- إذا كنت نسيت، فعمك «مبسوط» لم ينسَ يا فتى، لم ينسَ.

كررها مبسوط إلى أن ظن السيد هود أن أحباله الصوتية أصابها العطب، مثل جهاز جرامافون قديم الطراز تشنجت إبرته، يكرر مقطعًا بلا توقف.

انتبه إلى أن هذا التكرار إنما يحدث داخل رأسه فحسب، كأنها أصداء ارتدت عن جبل، بينما شفتا «مبسوط» كانتا مطبقتين في صمت.

- لا أفهم ما تقوله.

- كنتُ شاهدًا على شيء لم تخبر به أحدًا، ولأنني أحببتك حقًا، صنتُ السر ولم أفشه.

- أنت تخرِّف، لم يحدث شيء بيني وبين أمي ليلة الحادثة.

رماه السيد هود بهذه الكلمات بينما جبينه يتقصد عرقًا، رغم البرودة التي تغلف جسده، شعر برغبة عاتية في الهرب، ممن؟ لا يعرف، إلى أين؟ لا يدري

يركض إلى أن تعجز ساقاه عن حمله، وربما عندئذٍ تحدث المعجزة ويسقط ميتًا.

لكن قدميه تشبثتا ببلاط الشرفة، كأنهما شجرة معمرة، نحى وجهه تجاه حانة «ساري»، يرسل لها مع نسمات الهواء نداء استغاثة صامتًا، كذاك الذي أرسلته له، وسمعه، ولبّاه.

ظلت نافذتها مغلقة، هل هي بين ذراعي الرجل البغيض الذي يشبه العاصفة؟ لماذا تستسلم؟ لماذا لا تتركه؟

ضربه سوط الغضب فوق صدره، فالتهب قلبه، وشعر بسخونة تزحف صوب وجنتيه، ودفقة من الأدرينالين تغزو أطرافه الأربعة.

مرَّ به «مبسوط» في أثناء المغادرة، مرورًا جعل الهواء يجفل، والحرارة في وجنتيه تفتر، يتقهقر الأدرينالين هرمون الهرب، ويتقدم الكورتيزول هرمون التوتر.

ربت براحته كتف السيد هود، مال على أذنه يهمس بحنان أبوي، بعبارة مباغتة، عصية ومربكة:

- لا تتذكر يا بني، النسيان لمثلك رحمة.

(26)

بعض الخطايا لا كفَّارة لها

نفضت الشمس الناعسة خصلاتها الناعمة فوق بيت من طابق واحد، وغرفتين، وصالة ضيقة، ومطبخ يُفضي إلى الحمام، مبني بالطين على أطراف «كفر البطيخ»، التابع لمركز دمياط، الذي يبعد عن رأس البر بـ 15 كيلومترًا تقريبًا.

تسللت خصلات الشمس من النوافذ المُشرَّعة، والباب المفتوح على مصراعيه، لا يملك اللواء «لطفي درويش» وقاحة الشمس وجنونها، لذا وقف على أعتاب البيت الذي يعلو سطحه فرن بلدي، وأكوام من القش، يصفق بيده مناديًا:

- يا أهل الدار.

برزت من صحن الدار عجوز تهرول ملتاعة، تسدل وشاحًا أسود فوق شعرها الثلجي، تضيف المزيد من التجاعيد إلى قسماتها، بتقطيب الجبين، وسحب الحاجبين، وتضيق عينيها، في محاولة يائسة للتغلب على ضعف البصر.

- من أنتَ يا سي الأستاذ؟

- أنتِ ست «عنايات»؟

تضرب العجوز صدرها، وتشهق بقوة أفزعت طيرًا يقف على مقربة.

- ابني، ماذا حدث له؟

- لم يحدث له شيء.

- أنتَ تكذب، ابني، خذني إليه، يا ضنايا يا بني.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، يا ست والله لم آتِ إلى هنا لأجل ابنك، ولا أعرفه أصلاً، هل أخافكِ لأقسم كذبًا؟

مسحت المرأة التي لم تعتد الزوار عبراتها المنهمرة بطرف وشاحها، ضيقت عينيها أكثر، علها تستدل على هوية زائرها الغامض، ولما أعجزها قصر النظر، صاحت معنفة:

- من أنتَ إذن وماذا تريد؟

- هل سنتحدث عند الباب هكذا؟

بدا شديد التأنق في نظرها، لا سارقًا باغيًا، ولا عابر سبيل يلتمس عندها شيئًا من زادها القليل، أشارت له بالدخول.

وفي الوقت الذي ظن فيه أنها تقوده إلى أريكة أو مقعد، جلست أمامه فوق بسطة تفصل صحن الدار عن الغرف، تشير له برأسها كي يحذو حذوها.

فضل الوقوف، واضعًا كفيه في جيبه، مستغرقًا في اختيار نقطة مناسبة لبدء الحديث، كان ليطول به التفكير، لولا أنها تململت، وتبرمت.

عرفها باسمه ولقبه، فلم يبدُ على العجوز أنها عرفته، ترك لها فسحة للتفكير، ولما أدرك أن أيادي الزمن عبثت بذاكرتها، وأنستها اسمه ورسمه، أخبرها صراحة:

- كنت أتولى قضية زوجك «مبسوط القرداتي»، هل تذكرينني الآن؟

تأملت العجوز في وجهه مليًا، وقد استحال وجهها رقعة خالية من الحياة، يسترجع عقلها عمرًا طويلًا مريرًا، قاست خلاله الأمرين.

- لماذا تتحدث إليَّ بشأن هذا الملعون؟ لم أعد زوجته.

اتخذ مكانًا فوق البسطة، رمى ببصره بعيدًا صوب الأرض الزراعية المترامية، وبنبرة محايدة لا تكشف ما بداخله، قص عليها ما كان وما لم يكن، ما حدث، وما وجب حدوثه، برَّأ أمام عينيها الرجل الذي أدانه بنفسه، ونفض عن اسمه وصمة العار التي ألصقها به.

- «مبسوط» يمضي عقوبته في السجن منذ ما يقرب من عشرين عامًا، كيف تقول إنه بريء؟

شرح لها بأبسط المفاهيم الممكنة، البصمة الوراثية التي تميز كل مخلوق، ولا تتشابه مع غيرها مثل بصمات الأصابع، وعن الشعرة التي أضاعها، ثم عثر عليها بعد فوات الأوان.

عن خطئه، وندمه، ومحاولته لإصلاح شيء مما أفسده.

- تأتي اليوم وتقول لي هذا الكلام؟ لدي ابن لا يعرف أباه منذ أن كان في عمر الثانية عشرة، لم يره منذ أن قبضت عليه، لم أسمح له، ماذا أقول له الآن؟ أخبرتُ ابني أن أباه مات في السجن كي لا يراه، كي لا يعرفه، رحلتُ عن بيتي وأهلي وجئتُ إلى قرية لا يعرفني فيها أحد، بنيت هذا البيت بيدي

وعرقي، جعتُ، ومرضتُ، طحن البرد عظامي، وامتص القهر شبابي، ثم تأتي لتقول لي ببساطة إنك دمرت حياة ثلاثتنا بلا سبب؟

- بل أتيتُ لأصلح ما بقي من المستقبل، لا سُلطة لي على الماضي يا ست «عنايات».

ظلت العجوز هادئة، وهي تجري معه هذا الحوار المحتدم، لو أبصرهما متطفل من بعيد لظن أنهما صديقان يتسامران بحميمية، لا جاني وضحية.

- ماذا تريد مني يا سيادة الباشا، لماذا أتيتَ إلى «عنايات» التي عضها الزمن وبصقها، ألم يكفك الاعتذار لـ «مبسوط»؟

- الرجل محطَّم، دمره فراقك وجهل ابنه به، يجب أن تعرفي أن زوجك ليس قاتلًا، وتخبري ابنك بالحقيقة، لا أظن أن بإمكان شيء أن يريحه سوى أن يراكما من حوله، ويلتم شمل أسرتكم من جديد.

- وكيف سيظن بي ابني عندما أخبره أنني كذبت عليه، وأن والده لا يزال على قيد الحياة؟

- أظن أن مصلحة ابنك أهم من اهتمامك بنظرته إليك.

- وكيف يستطيع ابني أن يتعامل مع أب رد سجون؟ لا يهم ما تقوله لي وحدنا فوق بسطة دار فقيرة على أطراف قرية كفر البطيخ، هذا لن يمسح تلك الوصمة عن جبينه، ولن تجعل الناس تنسى.

- يكفيكما أن تعرفا الحقيقة، وإن جهلها كل الناس.

- تطلب مني أن أنسى في لحظة المر الذي أطعمته طوال هذه السنوات؟

- بل أطلب منك ألا تضيعي من الوقت أكثر مما ضاع، من حق «مبسوط»، أن يضم ابنه، ومن حق ابنك أن يرى والده، فكري يا ست «عنايات»، وأثق أن قلبك سيدلك على الطريق الصحيح.

أخرج من جيب معطفه ورقة، سلمها لها، ثم أردف:

- هذا عقد إيجار قديم لعشة أملكها في رأس البر، سجلته باسم «مبسوط»، يُمكّنكم من العيش فيها إلى آخر لحظة في عمر ثلاثتكم، وأحفادكم وأحفاد أحفادكم. إذا قررتِ جمع شمل عائلتك مرة أخرى -وأثق أنكِ ستفعلين- اعتبري هذه هدية صغيرة مني.

- تعويض؟

وقف راميًا نظراته صوب الأفق، واضعًا كفيه في جيب معطفه، ندّت عنه تنهيدة قصيرة، ثم استرق إلى العجوز نظرة أخيرة:

- بعض الخطايا لا كفارة لها يا ست «عنايات»، ولا يمكن نسيانها كذلك، جل ما نستطيعه هو أن نزاحم الظلام بشعاع أمل صغير، ربما يومًا ما، تصبح الصورة أجمل، ربما.

***

(27)

حدوتة لم تُكتب للنوم

أرّقت القضية مضاجع السُّكان والزُّوار على حدٍّ سواء، احتلت أخبارها عناوين المقالات الرئيسية بالصحف الإلكترونية والورقية.

تهافت رواد مواقع التواصل الاجتماعي على تناقل تفاصيل الجرائم الثلاث، ما بلغهم منها، وما تخيلوه، وما استوثقوا منه، وما جهلوه.

اختلط الخيال الجهول بالواقع المأمول، ونُسجت الحكايات الرهيبة عن «أمنا الغولة»، التي خرجت من بطون حواديت الأطفال، تسعى للانتقام من الأمهات والجدات اللاتي أسأن إلى سمعتها طويلًا.

استقبحوا خلقتها، وشوهوا هيأتها، وألبسوها ثوب الشر قسرًا، فمضت بفمها الطويل ذي الرائحة الكريهة والأسنان النخرة، تفتش عن رواة الحدوتة، وترتشف دماءهم إلى آخر قطرة، في كؤوس من عظام البومة.

وكان أسوأ ما واجهه رجال الشرطة منذ بدء القضية المشؤومة -غير عجزهم عن القبض على الفاعل- توافد العديد من الفضوليين وقناصي الأخبار لأكثر رواجًا.

ينتشرون في شوارع رأس البر بهواتفهم النقالة، وكاميراتهم الحديثة، يفتشون ليلًا عن غولة ترتدي الأسود، لها قدما ماعز، وتطير فوق الأسطح، مفتشة عن رواة الحدوتة.

مع تصعيد الأحداث، توقع مأمور قسم رأس البر أن تُحال القضية إلى الجهات المختصة في مدينة دمياط، كونها المركز الإداري الأكبر والأقرب، لا سيما بعدما تزايدت أعداد الضحايا، دون أن يحقق الفريق المكلف بالتحقيق أي تقدم ملحوظ في معرفة هوية القاتل.

تعاظمت النبرة المستهزئة بجهود رجال الشرطة، ورميهم بالفشل والتقاعس، مما أثقل كاهل فريق التحقيق، وعلى رأسهم «درويش».

أزعجه سحب القضية من فريقه وإسنادها إلى آخر، وإطلاق سراح الزوج المكلوم «محسن سرحان»، إلا أنه لا يستطيع الاعتراض على الأوامر.

وفي الوقت نفسه، لا يسعه ترك القضية بالكلية، إذ استحوذت على تفكيره، واستفزت فيه روح التحدي، لا سيما بعد نقاشه الأخير المحتدم مع السيد هود.

لا يسعه سوى الاستمرار في التحقيق سرًّا، بعلم ضابط أو اثنين من رفقائه، أحدهما معاون المباحث «عمرو»، الذي دخل عليه المكتب للتو قائلًا بحماس:

- «درويش» بك. انظر، لقد توصلتُ إلى معلومة مذهلة.

- أغلق الباب يا «عمرو» أولًا، أخبرتك أن لا أحد يعرف أنني ما زلتُ أعمل على القضية.

- معذرة يا فندم غلبني الحماس.

- ماذا وجدت؟ آه. طبعات أقدام الماعز حول منزل الضحية الثالثة، ماذا بشأنها؟ هل فعلتَ ما طلبتُه منك؟

كان «درويش» قد اعتكف في مكتبه في وقت أبكر، مفترشًا سطح الطاولة بصور مسرح الجريمة الأخيرة، تلك التي تخص طبعات أقدام الماعز أسفل نافذة الحمام، وتبدأ من بعد الرصيف الذي يطوق المبنى، وأيضًا الصور التي التقطها المصور الجنائي للسطح بكل محتوياته بدقة متناهية كما أمر سيادة اللواء.

فوق سطح المبنى، لم يظهر غير طبعة أخرى لقدم الماعز، ونقطة دم صغيرة متجلطة، أرسلها على الفور للمعمل الجنائي للفحص.

- كما توقعتَ سيادتك يا «درويش» بك. عمق طبعة القدم المغروزة في وحل الحديقة الصغيرة خلف البناية أسفل نافذة الحمام، كان مثيرًا للاهتمام، أرسلتها للخبير للفحص وأخبرني للتو برأيه.

لفت انتباه «درويش» عمق طبعات الأقدام، أراد فحصها من قِبَل خبير، أراد أن يتأكد إن كان صاحبها رجلًا متنكرًا في زي الغولة، ينتعل في قدميه حذاء يترك في الطين بصمات الماعز، من أجل إحكام تفاصيل الحدوتة الشعبية.

أوحى له بتلك الفرضية حادثة وقعت في دولة عربية عام 2019م، حيث استخدم مهربو المخدرات أحذية على شكل أقدام الجمال والبقر، من أجل تضليل قوات حرس الحدود وإيهام السلطات أن المارين كانوا مجرد حيوانات لا أشخاص.

وكُشفوا من خلال المراقبة الجوية.

- ماذا قال الخبير يا «عمرو»؟ الآثار لجسد له وزن رجل بالغ، أليس كذلك؟

- للأسف يا «درويش» بك، عمق الأثر يوضح أن وزن صاحبه يقل كثيرًا عن رجل بالغ، الوزن يقدر بمتوسط خمسة وثلاثين كيلوجرامًا.

- خمسة وثلاثين كيلوجرامًا!

تبدى الغيظ فوق قسمات «درويش»، كان على ثقة أن الخبير سيؤكد ظنونه، أما هذا الكشف الجديد فإنه ينسف نظريته تمامًا.

- إذا ما فكرنا بشكل منطقي يا فندم، فإن هذا الوزن يوافق وزن فتاة مراهقة نحيلة.

هل كان صديقه محقًا في نظرية الطفلة القاتلة؟ هل كان عليه أن يسير خلف السيد هود والخيط الذي تشبث به؟

تضاعف غيظه، وتثاقل همه.

كان على ثقة أن الخبير سيقدر الوزن بضعف الرقم على الأقل، وفي هذه الحالة كان سيتأكد من تنكر قاتل ذكر بالغ في رداء «أمنا الغولة».

لكن خمسة وثلاثين كيلوجرامًا؟ هذا بالكاد وزن مراهقة كما يقول «عمرو».

لم تقدر الحواديت وزن «أمنا الغولة»، لكن امرأة نحيلة جدًا بعظام بارزة وقدمي ماعز، لن يزيد وزنها كثيرًا على الرقم المذكور.

عاد مرة أخرى ليتساءل في حيرة: هل القاتل المسلسل هو «أمنا الغولة» حقًا؟

- أو ربما القاتل هو ماعز حقيقية يا فندم، يقدر وزن أنثى الماعز من ثلاثين إلى خمسة وأربعين كيلوجرامًا.

أنهى «عمرو» عبارته بضحكة مرحة، اجتذبت حنق «درويش» ودفعت شياطين السخط لأن تنفث بخرها في رأسه.

- هل هذا وقت مناسب للمزاح يا سيادة المعاون؟

بعنف شديد نزع معطفه من فوق المشجب، متوجهًا إلى خارج مكتبه، ويستطرد ناهرًا:

- هل ستظل جالسًا؟

مضى بسيارته يشق عباءة الليل ممزقًا لها، ومبددًا للسكون الذي خيم على مدينة تتظاهر بالنوم، بينما هي في الحقيقة تستعد لضربة جديدة من الشر الذي يتجول فيها.

لن تنتهي القضية حتى تنغلق الدائرة، دماء «سنية» هي نقطة النهاية، هذا ما قاله السيد هود مؤكدًا.

الدماء التي عثر عليها حول الضحية الثالثة «شيماء خالد» -وكما هو متوقع- لم تتطابق مع أي من الضحايا الثلاث، وهذا يشير ببساطة إلى ضحية رابعة مجهولة.

ضحية ماتت قبل «شيماء»، في ترتيب زمني معكوس، كأن القاتل أنشأ مداره الزمني الخاص!

- إلى أين نتوجه يا فندم؟

استمر «درويش» في القيادة، بعقل تتشظى فيه الأفكار.

- بقعة الدم الموجودة على السطح، إلى من تعود؟

أخرج «عمرو» التقرير من جيبه قائلًا بحماس:

- إنها تعود للضحية الثالثة يا فندم، يبدو أنها سقطت سهوًا من القاتل بعدما سحب دماءها.

هذا يؤكد أن شهادة العامل كانت صادقة، رأى بالفعل «أمنا الغولة» تطير إلى السطح، بعدما أفرغت الضحية من الدماء عبر فمها الطويل الذي مدته عبر نافذة الحمام، ثم سقطت هذه القطرة منها فوق السطح.

يا له من جنون!

المشكلة الحقيقية أن الآثار تختفي عند هذه النقطة، بفحص الأسطح المجاورة والشوارع القريبة، لم يعثروا على طبعات أقدام، ولا دماء، ولا شيء آخر.

هل طارت «أمنا الغولة» فعلاً وتبخرت في الهواء؟

أوقف «درويش» سيارته أمام البحر، كان بحاجة إلى التركيز، يشعر أن الحل بسيط وأمام عينيه، فكيف لا يراه؟

الدافع، تلك هي القطعة الناقصة من الأحجية، لو عثر عليها لاكتملت الصورة.

امتدت يده إلى المقعد الخلفي، أخرج ملف تحريات كان قد انتهى من قراءته صباحًا، وطبع لنفسه نسخة منه قبل أن يسلم ملفات القضية إلى الفريق الجديد.

تحدث إلى «عمرو» كأنه يتشارك مع السيد هود عصفًا فكريًا كعادتهما:

- تفيد التحريات عن الضحايا الثلاث أن حياة كل منهن تخلو من الأعداء، مجرد خلافات عائلية بسيطة لا تكفي لتكون دافعًا للقتل، فلماذا يرغب أحد في قتلهن؟

هز الملف في يده وقال لـ «عمرو» بقوة:

- ثمة رابط بين تلك النسوة لا نراه.

- لا تعرف إحداهن الأخرى يا فندم، ربما تصادفن يومًا في السوق أو عند ممشى بورسعيد أو على شاطئ البحر، لكن لا شيء يجمعهن، المرحلة العمرية مختلفة، وكذلك الطبقة الاجتماعية والحالة الأسرية.

- ربما ما يجمعهن شيء معنوي لا مادي.

- ماذا تقصد يا فندم؟

- أقصد شعورًا ما. ربما هؤلاء النسوة أثرن في القاتل شعورًا مختلفًا لسبب ما. اسمع يا «عمرو»، سنعيد قراءة المعلومات الواردة من الضابط المكلف بالتحريات، أي رابط مشترك يخطر ببالك أخبرني به، أحيانًا يكون الحل بسيطًا وأمام أعيننا.

ساعتان تقريبًا، هي المدة التي استغرقاها في قراءة الملفات، يتخللها النقاش، ثم إعادة القراءة، وهكذا حتى شعر كلٌّ منهما بألم حارق في ظهره وساقيه.

ترجلا من السيارة واستند «درويش» إلى مقدمتها، يرمي بعينه صوب الأمواج الثائرة، ووجه أبيه يبرز له من بين طيات الظلام، شامتًا وهازئًا.

- «درويش» بك، ألا تسمعني؟

- ماذا هناك؟ هل وجدت شيئًا؟

- ليس شيئًا مهمًا، لكن ربما، يعني أقول على سبيل الاحتمال فحسب.

- قل ما تريد مباشرة يا «عمرو».

وقف «عمرو» أمامه متحدثًا بشعلة حماس صغيرة، أخذت في التعاظم كلما التمعت عينا «درويش» استحسانًا.

- أقول يا فندم، ربما الأمر لا يتعلق بهؤلاء النساء، بل بمن يحيط بهن. لا أقصد الأزواج، بل الأطفال. لا يمكنني التفكير في القضية دون ربط حدوتة «أمنا الغولة» بالأطفال.

- استمر.

- أقول يا فندم، ربما يكون الأطفال هم الرابط، الضحية الأولى كانت ترعى حفيدها، والثالثة لديها ابنة صغيرة.

- الثانية لم يكن لديها أطفال. «جواهر».

- لكن في محيطها طفلة كما يقول السيد هود، وهي ابنة المستأجرة التي تعيش في الشقة المجاورة.

- هل تقصد أن القاتل يسعى خلف الأطفال؟ لماذا إذن يؤذي النساء؟

- ربما هو يؤذي النساء لأجل حماية الأطفال!

قلب «درويش» تلك الكلمات في رأسه، لاكها، ثم امتص عصارتها، فطاب له مذاقها، حثه عاقدًا ذراعيه أمام صدره:

- استمر.

أخرج «عمرو» بضع ورقات من الملف، تركهم بين يدي «درويش» موضحًا:

- «جواهر». كانت امرأة صعبة المراس بشهادة جيرانها، وصاحب دكان الخضار القريب، وعمال التوصيل، امرأة تحب التنظيم والنظافة بشدة، وتلقي الماء البارد فوق رؤوس الأطفال الذين يجرؤون على اللعب أسفل نافذتها، تصرخ عليهم، وتطردهم بعيدًا عن محيط بيتها. ربما فعلت المثل مع الطفلة «شمس»، عرف القاتل بخصالها، وأراد عقابها. «أمنا الغولة» في الحدوتة كانت تعاقب الأطفال المشاغبين، استلهم القاتل من تلك القصة شخصية تعاقب النساء السيئات.

التقط «عمرو» أنفاسه ثم أردف بعدما حثته نظرات «درويش» المشجعة:

- و«شيماء خالد» كانت تعنف طفلتها دائمًا، شهد بذلك الجار المُقعد الذي يعيش في الشارع المجاور، وثمة تقرير طبي من مستشفى رأس البر يفيد بتعرض ابنتها «لارا» لكدمات وكسور على فترات متباعدة، كان هناك أثر

حرق قديم في راحة يدها، أخبرت الطفلة معلمة الصف أن أمها سخنت ملعقة فوق الموقد وعاقبتها بالحرق، حتى إن المعلمة قدمت شكوى إلى مكتب نجدة الطفل، إلا أن الجهات المعنية تحفظت على الشكوى نظرًا لعدم وجود أدلة كافية لإدانة الأم، ونظرًا لإنكار الطفلة تعرضها للإساءة عندما استُجوِبَت.

- زوجها اللعين قال إنها كانت زوجة رائعة وأما مثالية.

- وتلك هي المصيبة يا فندم، قليل من يرى أن التعدي الجسدي جريمة في حق الطفل، هي بالنسبة إلى زوجها أم تجيد التربية، تجيد التحجيم، تجيد الكبت، لكنها في الحقيقة مصدر أذى كبير لطفلتها، سواء متعمدة ذلك أم جاهلة به.

- إذن القاتل عرف بشكل ما الأذى الذي كانت تتعرض له الطفلة «لارا»، ربما من المدرسة، أو من المستشفى، أو من مكتب نجدة الطفل.

- ثم قرر قتل الأم عقابًا لها

- لكن «سنية» كانت جدة مثالية، هكذا شهد الجميع.

- كانت جدة مثالية، لكنها لم تكن أما مثالية.

- لا يوجد أي من هذا في تحريات المباحث.

قال «عمرو» بعد لحظات تردد لم تدم:

- تحدثتُ إلى زوجها صباح اليوم، ذهبتُ إليه لاسترضائه، إنه رجل مسكين فقد زوجته وحُرم من حفيده وقُبض عليه في الليلة نفسها، شعرت اتجاهه بالشفقة، بعد إخلاء سبيله اصطحبته لأخذ حفيده من دار الرعاية، ثم أوصلته إلى بيته، وفي الطريق تعرض بحديثه إلى زوجته، وكيف أنها كانت تبذل جهدها لتكون جدة جيدة لـ «تميم»، بعد أن أدركت متأخرة أخطاءها السابقة في تربية ابنتها، كانت أمًا غليظة غير متفهمة، تعاني وساوس اجتماعية، ومخاوف معظمة، لا تسمح لها باللعب، أو زيارة الأقارب، وكثيرًا ما حرمتها من الذهاب إلى المدرسة، لا تسمح لها بمراقبة الشارع إلا من خلال نافذة ذات قضبان حديدية. تراقب بحسرة الأطفال يلعبون دون أن تشاركهم مرحهم، كثيرًا ما امتلأت جدران البيت بصرخات ابنتها الصغيرة المحبوسة في دولاب مظلم، أو في غرفة المؤن، عقابًا لها على أخطاء بسيطة، مثل سكب الطعام فوق الطاولة، أو ترك باب الحمام مفتوحًا، أو غلق الثلاجة بقوة. زوَّجتها بأول رجل تقدم لخطبتها، لم تكن الفتاة راغبة، ولم تسامحها على هذا قط.

- إذن النساء الثلاث أذين بشكل ما أطفالهن، كما في حالة «سنية» و«شيماء»، أو أطفالاً في محيطهن كما في حالة «جواهر».

- وربما «جواهر» لم تؤذ الأطفال من حولها فحسب، بل امتد أذاها لابنها كذلك، امرأة مهووسة بالنظافة مثلها لا بد أنها جعلت حياة ابنها الوحيد جحيمًا لا تنتهي، وهذا يفسر عدم زيارته لها منذ أن سافر، وعدم عودته لحضور جنازتها. هذا هو الدافع الذي تبحث عنه يا فندم، القاتل يؤذي تلكن النسوة ليحمي الأطفال وينتقم لهم!

انفعلت قسمات «درويش» وقد استنفرت حواسه بشدة، أخيرًا توصل إلى دافع منطقي يمكّنه من رسم ملف لشخصية القاتل وسماته النفسية.

قاتل بهذا الدافع لا بد أنه اختبر بنفسه أذى شديدًا من امرأة قريبة منه، غالبًا أم عنيفة قاسية، شبهها بأمنا الغولة، التي تؤذي الأطفال في الحدوتة.

لم تقدم له أمه الحماية اللازمة، ولا العطف المرجو، ولا التفهم المنشود، فصارت في نظره غولة مخيفة متوحشة.

وها هو يُسقط على تلكن النسوة المشاعر التي شعر بها تجاه أمه، دار في الشوارع ينقذ أطفالاً ذكروه بنفسه حين كان لا حول له ولا قوة.

القاتل هو «أمنا الغولة»، حقًا، وقد أتت لتعاقب الأمهات السيئات في عالم واقع.

هكذا أعاد العصر الحديث صياغة الحدوتة!

لكن تلك القصة عن ابنة «سنية» المحبوسة في البيت، التي تراقب الشارع من خلال نافذة صغيرة، كيف عرف بها القاتل؟

لا أحد من الجيران الجدد يعرفها، والجيران القدامى بين ميت ومفارق لرأس البر، حتى إنه لم يرد هذا في تقرير المباحث، ولولا أن الزوج حكاها بنفسه لـ «عمرو»، لما درى بها أحد.

تلك الحكاية القديمة عن الفتاة المحبوسة في غرفتها خلف نافذة على شكل قضبان حديدية، سمعها «درويش» من قبل، منذ زمن طويل جدًا، عندما كان طفلًا صغيرًا يروقه اللعب مع أقرانه، لكن ممن؟

عصر ذهنه ليتذكر، وقد راوده شعور مباغت بأن القاتل قريب أكثر مما ينبغي!

(28)

سهام الوزير

أمام بوابة المدرسة الرئيسية برأس البر، التي تضم المرحلتين الابتدائية والإعدادية، وقف «درويش» نافثًا دخان سيجارته بعصبية، إلى أن بلغت طول عقلتي إصبع، ألقاها أرضًا ثم دعسها بمقدمة حذائه الجلدي اللامع.

- إلى أين يا أفندي، هل هي وكالة من دون بواب؟

- ومن تكون؟

- محسوبك البواب.

تأمل الرجل الذي بلغ منتصف العقد الرابع بشيء من التمحيص، ثم أشهر هويته في وجهه، مذيلًا إياها بقوله:

- مباحث.

- أهلاً يا سعادة الباشا، معذرة، لم أعرف سيادتك. تفضل، تفضل.

فتح البوابة على مصراعيها أمام «درويش» رغم أن الفسحة كانت كافية لمروره، تبدّى تلجلج البواب واضحًا للعيان، يتلمّس بنطاله القماشي الواسع كل ثانيتين، ويمسح ما تفصّد به جبينه من عرق.

- هل المديرة في مكتبها؟

- غير موجودة اليوم سعادتك، لديها اجتماع طارئ في مديرية التربية والتعليم.

- ثمة مدرسة لغة إنجليزية تعمل بالمرحلة الابتدائية اسمها «سهام»، «سهام الوزير».

- ستجدها إما في صفها 4/1، وإما في حجرة المعلمين. هل أوصل سيادتك؟

- لا داعي، قم بعملك.

في حجرة معلمي اللغة الإنجليزية، وجد ثلاثة معلمين، واثنتين من المعلمات، إحداهما سيدة لصوتها نبرة تشبه السوط، كانت مستغرقة في حوار محتدم مع عاملة النظافة، تكيل لها التحذير تلو الآخر.

أما الأخرى فكانت عاكفة على تصحيح ما أمامها من دفاتر، تنزلق عويناتها كبيرة العدسات سنتيمترات قليلة فوق أنفها، فتبدو بسنوات عمرها التي لا تتجاوز أربعًا وعشرين كما لو كانت تتعمد أن تبدو في صورة أكبر سنًا.

ترمي كل حين نظرة مُشفقة على عاملة النظافة التي وقفت تتلقى كل هذه الحدة برأس مطأطئ، وعوز مفضوح، جعلها تبتلع كرامتها على مضض.

- أستاذة «سهام الوزير».

ما إن نطق «درويش» بالاسم، حتى التفتت إليه أولًا تلك العشرينية التي ترتدي عوينات تجعلها كامرأة خمسينية.

أفصح عن هويته أمام العيون التي رمقته في فضول صارخ، طلب أن يتحدث معها قليلًا في الخارج، فشيعتهما نظرات فضولية جماعية.

أمام سور قريب يطل على فناء المدرسة، وقف «درويش» بصحبة المرأة التي احتقن وجهها قلقًا.

- خير يا فندم؟

- في صفك طفلة اسمها «لارا»، هل تتذكرينها؟

عدّلت من وضع عويناتها باضطراب، ثم قالت بنبرة حازمة:

- أتذكر كل تلاميذي جيدًا، ما بها «لارا»؟

- ماذا تعرفين عنها؟

عقدت ذراعيها أمام صدرها، ترمقه بنظرات حادة، ولم يكن صوتها بأقل حدة إذ قالت:

- من فضلك تحدث بصراحة، هل أنت هنا بسبب البلاغ؟

- أي بلاغ؟

أزعجها تظاهره بالغباء، أو الجهل، أو كلاهما، فقالت بعنف لم تتعمده:

- البلاغ الذي قدمته لمكتب حماية الطفل.

- ما أعرفه أن بلاغك هذا حُفظ، أنكرت الطفلة تعرضها للإساءة، ونفت كل ادعاءاتك عن أمها «شيماء خالد»، حتى إن الأم هددت برفع قضية تشهير ضدك.

تجلت ضحكة ساخرة قصيرة، أطلقت لها العنان ثم قالت بتحدٍ:

- أي طفل سينكر أن أحد والديه يتعرض له بسوء، لأنهم يعلمونهم أن تلك الأفعال غير السوية تسمى «حُبًّا».

- تبدين واثقة.

- في بداية العام الدراسي، رأيتُ الكدمات والحروق تظهر في مواضع متفرقة من جسد «لارا»، وذلك كلما نقصت درجة أو نصف درجة في التقييمات الأسبوعية، الطفلة المسكينة كانت تمضي فترة الفسحة تبكي بحرقة، من الألم النفسي والجسدي، تبذل جهدًا مضاعفًا كي لا تُخطئ، هل رأيت من قبل طفلًا يفزعه أن ينقص في الامتحان نصف درجة؟ كانت تتوسل إليَّ باكية كي أمنحها الدرجة النهائية، فشككتُ أن ثمة شيئًا مريبًا يحدث، حاولتُ أن أطمئنها وأكسب ثقتها، ونجحت في ذلك، بعد فترة أخبرتني أن أمها من فعلت بها ذلك، لا كما يدّعي أبوها أن الجروح حدثت لها في أثناء اللعب، بدأ الأمر منذ الروضة، لولا أن المعلمة وقتها لم تحب أن تتدخل، أو لنقل خافت أن تتدخل فتتعرض للتكذيب أو الطرد من المدرسة، وإلا لكان هناك شهادة أخرى تثبت كلامي.

- وألا تخشين أنتِ التعرض لمثل ذلك؟

- بالطبع أخشى الطرد، لكنني لم أستطع أن أغض بصري عن طفلة مسكينة تتعذب بسبب أم مهووسة بالدرجات الكاملة.

قالت هذا بصدق حقيقي لمسه «درويش»، واحترمه. نزعت عويناتها بعدما تجمع بخار أنفاسها فوق عدستها، بدت أصغر من عمرها الحقيقي، ولشد ما استحسن «درويش» قسماتها الطفولية، التي تتقاطع كثيرًا مع تقاسيم طالباتها.

قالت بمرارة:

- لكن كما ترى، لم أستطع مساعدتها.

- لماذا حُفظ البلاغ؟

- لا دليل كافٍ يدين الأم، زعموا.

- هل توقفت الإساءة؟ أعني الكدمات والحروق؟

- نعم، لم تظهر كدمات جديدة مؤخرًا، على الأقل في المواضع الظاهرة للعيان، يبدو أن الأم تعلمت درسها.

- ماذا حدث عندما علمت الأم بالبلاغ الذي قدمته؟ أعرف أنها تشاجرت معكِ هنا في ساحة المدرسة.

- كادت أن تتسبب بطردي، لم يكفها ما تفعله بابنتها، أرادت إيذائي أيضًا، تعرف أن المديرة لا تحب المشكلات، أو دعني أقول إنها تخاف المشكلات إذ تؤثر سلبًا على سمعة المدرسة.

- لماذا لم تستجب المديرة لها وتطردك إذن؟

- لا تظن أن هذا لأجل سواد عيوني.

- لم أظن ذلك، فهما خضراوان أصلًا.

قال «درويش» ذلك ثم ابتسم، لافتًا النظر لكونه قد انتبه للون الرائق لحدقتين تبدوان كأمواج رأس البر في بداية الموسم الصيفي.

لم تبادله الابتسام، أردفت بالجدية ذاتها:

- المدرسة تعاني عجزًا في مدرسي اللغة الإنجليزية، كما أنني أقوم بدور مشرفة الأتوبيس المدرسي الذي يوصل الطلاب من وإلى المدرسة، وكل هذا مقابل راتب زهيد، لو وجدَت المديرة بديلًا بكفاءتي نفسها، لوضعتني أمام البوابة في اللحظة نفسها.

اكتسى وجهها بسحابة قاتمة وهي تستطرد:

- البعض حُرم من نعمة الولد، والبعض الآخر كما ترى يعامل النعمة بازدراء ممتهنة قيمتها، لو كان الأمر بيدي لما سُمح لرجل وامرأة بالزواج إلا بعد اجتيازهما لدورة مكثفة في التربية، وخضوعهما لفحوصات شاملة للتأكد من سلامتهم النفسية.

لاحت ابتسامة مرحة على شفتي «درويش»، تحولت إلى ضحكة قصيرة وهو يقول:

- حمدًا لله أن الأمر ليس بيدك، وإلا لما تزوج أحد.

- كان ليصبح هذا رائعًا، لا تُنكر.

- لكن هذا يعني انقراض الجنس البشري.

- وماذا في ذلك؟ لسنا أفضل من الديناصورات على أي حال.

افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة، خفق لها قلبه فتعجب لذلك.

مسَّ شاربه الكث مباغتًا لها:

- هل تعرفين أن «شيماء خالد» قُتلت أمس؟

تبدت على وجهها دهشة بالغة، ممزوجة بالفزع، ترنحت قليلًا فأمسكت بالسور القريب تتوكأ عليه، بينما يراقب كل خلجة من خلجاتها بدقة.

- سمعتُ بالطبع عن حادثة أمس، لكنني لم أعرف هوية الضحية.

- يبدو أن القاتل يشاطركِ المشاعر نفسها تجاه تلك المرأة، كما أنكما تشتركان أيضًا في الهدف نفسه: إنقاذ الطفلة.

- كيف تضعنا في سلة واحدة؟ إن ما فعلته أنا واجب مقدس أما ما فعله هذا القاتل فهو جريمة نكراء.

- ألم تسعدي بموت تلك المرأة؟ لقد تخلصت «لارا» ممن يؤذيها.

- كيف تقول ذلك؟ لو عاقبنا كل مخطئ بالقتل، لما نجا منا أحد.

دوى صوت الجرس معلنًا انتهاء حصة وابتداء أخرى، ارتدت عويناتها ثم قالت بعصبية:

- ثمة الكثير من الأمهات لا يعرفن معنى الأمومة، يلهيهن المجتمع في معارك جانبية مع أنفسهن أو مع الجنس الآخر وينسين رسالتهن السامية، لا يدركن أن أولادهن أمانة معلقة حول أعناقهن، لا ملكية خاصة يتصرفن فيها كما شئن، يغيب عنهن قُبح عقوق الآباء لأبنائهم، هذا العالم ليس عادلًا، لو نال كل إنسان حقوقه سأندهش. عندي حصة، إن كانت أسئلة سيادتك قد انتهت هل بإمكاني العودة إلى عملي؟

- بالطبع، تفضلي، وآه بالمناسبة، قد أحتاج إلى التحدث معكِ مرة أخرى.

أومأت برأسها متفهمة، فشيعها «درويش» بنظراته إلى أن اختفت داخل غرفة المعلمين، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة.

انتبه لكونه واقفًا كالصنم دون أن يتحرك من موضعه، تلفت حوله بحرج، ثم أنزل فوق وجهه ستارة الجدية، متوجهًا صوب بوابة المدرسة.

***

بدلاً من التوجه إلى البوابة، انعطف «درويش» نحو جراج المدرسة، وجد أتوبيسًا كبيرًا أصفر اللون متوقفًا، تنبعث منه صوت أغنية خافتة فتبعها،

طرق فوق زجاج الأتوبيس فانتبه السائق الذي كان يضطجع فوق مقعد القيادة، مسترخيًا في انتظار انتهاء الحصة الأخيرة.

نزل السائق من الأتوبيس، شاب بسيط، استقبل «درويش» بابتسامة خافتة.

عرّفه «درويش» بنفسه، أراح ذراعه فوق كتفه ثم سأله عن اسمه، فأجابه:

- محسوبك «راضي».

- هل تدخن، خذ هذه السيجارة ولا تشعر بالحرج، هل لديك قداحة؟ حسناً يا «راضي»، أريدك أن تخبرني بكل ما تعرفه عن الأستاذة «سهام الوزير».

- لا أعرفها كثيرًا، تبدو عصبية في بعض الأحيان، لكنها محترمة معي، وأيضًا جيدة مع الأطفال.

- هل تركب معك الأتوبيس في الورديتين الصباحية والمسائية؟

- نعم، فهي مشرفة الأتوبيس.

- ألم تر عليها شيئًا غريبًا؟

- مثل ماذا لا مؤاخذة؟

- ألم تطلب منك شيئًا غريبًا مثل التوقف أكثر من اللازم عند بيت بعينه، أو مثلًا هل رأيتها تتشاجر مع إحدى الأمهات أو تتحدث عنها بسوء؟

- لا، لم يحدث هذا، أستاذة «سهام» محترمة ولا تثير المشكلات، باستثناء البلاغ الذي قدمته في أم طفلة ما.

- وماذا حدث بعدها؟

- تشاجرا وسط المدرسة أمام الجميع، وهددتها الأم بفصلها من المدرسة، ظننتُ أنها ستُطرد، لكن الأستاذة «سهام» استمرت في عملها، يبدو أنهما تصالحتا.

- والطفلة «لارا»، هل تعرفها؟

- «لارا».. «لارا»، الحقيقة أنا لا أعرف أسماء الأطفال جيدًا، مهمتي هي توصيلهم، حسب توجيه مشرفة الأتوبيس.

- حسناً يا «راضي»، أعطني هاتفك، اكتب كلمة السر، جيد، هذا رقمي، سأحفظه باسمي، سأتصل برقمي الآن كي أسجل رقمك، ما هو ظهر عندي.

أريدك أن تهاتفني إذا ما بدر من الأستاذة «سهام» ما يثير شكوكك، أو إذا حدث شيء غريب لأحد الأطفال، وبخاصة «لارا»، انظر هذه صورتها.

- نعم، عرفتها، تركب معي يوميًّا. لكن معذرة يا باشا، شيء غريب مثل ماذا؟

- إذا اقترب منها أحد، إذا سأل عنها أحد. لا أريد لعينيك أن تغفلا عن «لارا» أو عن الأستاذة «سهام»، اتفقنا يا «راضي».

لم يبدُ على وجهه الرضا بمهمة التجسس التي أُلقيت على عاتقه، إلا أنه غص باعتراضه، وحبسه في صدره، تمتم:

- اتفقنا يا باشا.

كان «درويش» بحاجة إلى عين مندسة في المدرسة، تقوم بدور المراقبة للمعلمة والأطفال، لربما يحتك بهم القاتل بشكل ما.

لم يغب عن مجال «درويش» الراداري هيئة البواب المضطربة، ولا الحالة التي كان عليها في أثناء مروره به، وركوبه لسيارته، ثم الانطلاق بها.

لم يقطع تفكيره في الرجل سوى اتصال هاتفي يُبلغه خبرًا عاجلًا!

عُثِر على جثّة رابعة!

(29)

حدوتة تمشي نحو المقصلة

بدت ساحة الجريمة الرابعة أكثر تعقيدًا من سائر الجرائم السابقة.

بذل رجال الشرطة جهودًا مضنية لإبعاد الحشود التي طوّقت المبنى، وعانوا الأمرّين لمنع البث المباشر والتصوير عبر الهواتف والكاميرات.

تحولت مدينة رأس البر إلى مزار للمهوسين بالأخبار الطازجة، ورواد التريندات الرائجة.

تنزّل السخط الشعبي تترا فوق رؤوس رجال الشرطة الموجودين، وانهالت الاتهامات بالتقاعس عن القبض على القاتل.

لم يكن «درويش» حاضرًا بصفته الرسمية، بعد أن سُحبت القضية من فريقه وأُسندت إلى آخر، إلا أنه ظل حريصًا على متابعة المستجدات لحظة بلحظة، وكان من أوائل الواصلين إلى مسرح الجريمة، بعدما استُدعي جميع من في الخدمة لأجل تطويق مسرح الجريمة ومعاينته.

صاح في أمناء الشرطة بصوت حازم:

- أبعدوا هؤلاء المهرجين حالاً!

دخل العشة اليسرى في الطابق الثالث، حيث تقيم الضحية الرابعة، «مايسة منصور»، مُعلمة لغة عربية بالمرحلة الإعدادية، مطلقة، وأم لطفلتين: إحداهما في السادسة، والأخرى في العاشرة.

شيء ما في قلب «درويش» انقبض بقوة، في كل جريمة ثمة طفل يتوارى في الظل، تبلور في ذهنه يقين لا مراء فيه: تلك الجرائم مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالأطفال.

تزايد يقينه بعد تحليله المشترك مع معاونه «عمرو»، الذي خلص إلى فرضية قائمة، القاتل يسعى لحماية الأطفال من أمهاتهم أو من نساء في محيطهم، يُشكّلن في نظره صورة مشوهة للأمومة، فسلّط عليهن «أمنا الغولة».

لا يرى ما يفعله «قتلاً» بل «تطهيرًا» للشر الذي يسكن أرواح الأمهات، يرى نفسه مبعوثًا مكلفًا برسالة مقدسة: أن يُنقذ الطفولة من قبضة أمومة مشوهة.

قاتل لديه نزعة سيكوباتية تجعله يفتقر للتعاطف مع الأمهات، ويُبدي تعاطفًا مفرطًا تجاه الأطفال.

هل عانى في طفولته حادثًا صادمًا مع امرأة هي غالبًا أمه؟ رجح «درويش» هذا بشدة.

- ثمة جديد في هذه الجريمة يا فندم، سيعجبك ذلك.

- أعطني أي شيء يا «عمرو»، أي شيء.

تحدث الاثنان في زاوية منعزلة، قال هذا الأخير بلهفة وهو يتطلع إلى العبارات القليلة التي دونها في دفتر ملاحظاته:

- انتهى الطبيب الشرعي من مناظرة الجثمان للتو، الزمن المقدر للوفاة هي الليلة نفسها التي قتلت فيها «سنية» و«جواهر» و«شيماء»، وجدنا بالداخل فوق الطاولة طرد استُلم في تلك الليلة، وبالتواصل مع شركة الشحن أمكننا معرفة هوية المندوب الذي وصل الطلبية، قال إنه سلم الطلبية ما بين الساعة السابعة والثامنة ليلة الجريمة، كانت الضحية قد طلبت في يوم سابق بضعة أغراض من متجر إلكتروني، ووصلها قبل وفاتها مباشرة، حتى إنها لم يتسنَّ لها الوقت الكافي لفتح الطرد، الذي وُجد فوق المنضدة مغلقًا كما هو.

- هل استُبعد عامل التوصيل من قائمة الشبهات؟

- هذا ما حدث بالفعل، رصدته كاميرا منزلين آخرين بمنطقة بعيدة في أثناء توصيله لباقي الطرود، أي أن لديه حجة غياب قوية عن باقي مسارح الجرائم، يستحيل أن يكون قاتل النساء الأربع.

- وهل هذا ما سيعجبني يا «عمرو»؟ إنه حدث غير مؤثر على الإطلاق، ولا يساهم في إمدادنا بأي قدر من المعلومات.

- ما سيعجبك سيأتي حالاً يا فندم، في أثناء استجواب عامل التوصيل، أفاد برؤية شيء عجيب للغاية.

- وما الذي ليس عجيبًا في هذه القضية؟ أكمل، ماذا رأى سيادته؟

- قال إن الضحية السيدة «مايسة» فتحت الباب وتسلمت منه الطرد مدفوع الثمن، رآها للحظات فحسب، كانت كافية ليقول في إفادته إنها كانت...

- كانت ماذا يا «عمرو»؟

- كانت زومبي يا فندم!

- الله أكبر، أمنا الغولة، وعفاريت، والآن زومبي، يبدو أننا نبحث عن القاتل في المكان الخطأ، علينا الاستعانة بمشعوذ لا برجال مباحث ومحققي شرطة!

- قال إنها بدت مثل الزومبي في أفلام الرعب، تميل بمشيتها، تتحرك بتثاقل، بدا وكأنها لا تعرف اسمها ولا ماذا تفعل في هذا البيت، سألها ثلاث مرات إن كانت السيدة «مايسة منصور» ولم يتلقَّ منها ردًا مفيدًا، أجابته ابنتها الأكبر سنًّا ذات السنوات العشر، حتى إنها هي التي حملت الطرد، نظرًا لعدم قدرة أمها على تحريك أطرافها.

- هل الطفلة كانت موجودة مع أمها وقت ارتكاب الجريمة؟

- كلا، لقد غادرت البيت رفقة أختها الصغيرة وتوجهت إلى منزل أبيها، الأبوان منفصلان، وبينهما قضايا مُعلقة تخص حضانة الطفلتين المتنازع عليها، تقول الطفلة إن أمها أخبرتها أن تأخذ أختها وتتوجه إلى بيت أبيها.

- تركت ابنتيها تغادران بمفردهما الساعة الثامنة مساءً؟

- الطفلة الأكبر مسؤولة عن أختها في كل شيء، اعتادت الخروج في هذا الوقت لشراء حاجيات البيت.

- لشراء حاجيات البيت من بقالة قريبة، لا التجول في شوارع رأس البر.

- البيت لا يبعد كثيرًا عن هنا، وتحفظ الطفلة الطريق جيدًا.

- ألم يشك الأب في شيء عندما وجد الطفلتين على عتبة في هذا الوقت المتأخر؟

- بل فرح كثيرًا، يقول إن زوجته السابقة أم مهملة من الأساس ولا تصلح لرعاية الطفلتين.

- من الذي اكتشف الجثة إذن؟

- أصرت الطفلة الكبرى على العودة إلى أمها اليوم، تقول إنها شعرت بالقلق عندما هاتفتها كثيرًا ولم تُجب، أتى أبوها معها لتوصيلها، وعندئذ وجد الباب مفتوحًا، دخل ورأى ما رأى.

استغرق «درويش» التفكير، وتمتم كأنه يحادث نفسه:

- كان الباب مفتوحًا في الجريمة الأولى والثانية والرابعة، وحدها الجريمة الثالثة كان الباب فيها مغلقًا من الداخل.

ثم صاح مغتاظًا وكأنه تذكر شيئًا:

- وهل هذا ما سيعجبني يا «عمرو»؟ لا أرى سوى المزيد من علامات الاستفهام نضيفها إلى الكومة التي لدينا بالفعل.

أخرج «عمرو» كيس أدلة من جيبه ورفعه أمام ناظري «درويش» وتمتم بابتسامة رحبة:

- عثرنا على دليل مادي، يبدو أن الضحية قاومت قليلاً، أكثر مما فعلت أي ضحية سابقة، حصلنا على شعرة في كف يدها، أثق أنها نزعتها من رأس الجاني في أثناء مقاومتها له.

لاحت أمارات الارتياح فوق قسمات «درويش»، أخيرًا عثر على خيط قابل للتتبع.

هذا المجرم لن يفلت من يده، لن يسمح بذلك هذه المرة.

***

كانت ساحة الجريمة الرابعة مطابقة من حيث التفاصيل للجرائم الثلاث السابقة، إلا في أمر واحد أثار زوابع الحيرة في نفوس الجميع، لا دماء في المكان!

جسد «مايسة» الثلاثينية بدا خاليًا من الدماء، سُحِبَت كما في جميع الحالات السابقة، إلا أن الأرض من حولها كانت نظيفة تمامًا، إلا من قطرات بسيطة من دمها هنا وهناك.

- ماذا يعني ذلك؟

مال «عمرو» على أذن «درويش» متسائلاً في دهشة. لم يجبه هذا الأخير بيد أنه يعرف الجواب سابقاً: تلك هي الضحية الأولى، من هنا بدأت جرائم القتل المروعة، التي انتهت بقتل «سنية».

لم يساوره شك في أن العبارة المحفورة فوق الخنجر ستكون تتمة لصوته. أخرج الخبير الخنجر من فم الضحية، وما إن قرأها الخبير بصوت جهوري حتى تأكد حدسه:

- «كل حدوتة تبدأ بكذبة، وتنتهي بفكرة، إلا أمنا الغولة، تبدأ بحلم، وتنتهي بخدعة، توتة توتة، خلصت الحدوتة».

انغرز سؤال ملح في عقل «درويش» وتجذر بتلافيفه: إذا كانت تلك هي الضحية الأولى، فأين دماء «سنية» الضحية الأخيرة؟

لماذا لم تنغلق الدائرة؟

***

(30)

الأمس يستيقظ من رقاده الطويل

كان للمكان رائحة لافندر ناعمة، هادئاً كأن مخلوقاً لم يطئه يوماً، إضاءة خافتة، أثاث كلاسيكي بسيط، سجادة قديمة الطراز، وساعة حائط، لعقاربها صوت مسموع كنبضات قلب واثب.

على الجدار الملاصق لباب العيادة، عُلقت لافتة سوداء بإطار مُذهب وأحرف من اللون نفسه، تُشكل عبارة: دكتور «فؤاد حداد»، طبيب نفسي.

خمسيني، تبدو عليه سمات الخبير في مهنته، هكذا شعر السيد هود حين صافحه وجالسه، بعد تبادل عبارات ترحيبية وتعريفية مقتضبة.

لم يجد «الشيزلونج» الذي تخيل وجوده في كل عيادة نفسية، أثار هذا ارتياحاً غريباً في نفسه، إذ لم يفهم قط كيف لإنسان أن يسترخي ممدداً أمام عين غريبة تراقبه.

طوال مدة وجوده داخل الغرفة -التي لم تتجاوز حتى الآن ثلاث دقائق- لازمته رغبة حثيثة في الهرب، يسأل نفسه كل عشرين ثانية: ماذا أفعل هنا؟

- أتفهم ندمك على الحضور.

بينما منحه السيد هود ابتسامة خجلة متوترة، تابع الطبيب بنبرة رائقة:

- في الحقيقة، بعض زوار العيادة لا يحتاجون سوى إلى من يصغي لهم، لكن بسبب الخوف من الحُكم عليهم، وفقدان الثقة، ومقاومة الذكريات وجراح الماضي، وشعورهم بالخجل والعار واللاجدوى، يعجزون عن التحدث مع أحبائهم أو أقربائهم أو أصدقائهم، ويفضلون التحدث إلى غريب لن يروه مجددًا.

- الخوف من الحقيقة.

تمتم السيد هود بنبرة خافتة، فأمال الطبيب برأسه يستوضح عبارته. أردف بعد أن أجلى حنجرته:

- أقصد، أحياناً نخاف من الحقيقة إلى الحد الذي يجعلنا نفضل أن نمضي في الحياة بجروح مغلقة.

- هذا صحيح إلى حد بعيد.

- كيف إذن؟

- كيف ماذا؟

- كيف بإمكان المرء التغلب على خوفه من مواجهة الحقيقة؟

- تظن أن هذه حالتك؟

- لا أعرف، أحياناً أشعر أنني على شفا التذكر، أرى ذكرى الحادث قريبة جداً، كأنني لو مددت يدي سأمسكها، عندئذ تتسارع نبضات قلبي، وأسمع همساً بداخلي يأمرني بألا أتذكر.

- ألهذا السبب تأخرت في اللجوء إلى طبيب نفسي؟ عندما حجز النقيب «أحمد درويش» هذا الموعد لأجلك، أخبرني عن ممانعتك الطويلة.

- أتيتُ لأنني أردتُ ذلك، لا لأن «درويش» حجز الموعد.

- مفهوم، إذا كنتَ تخشى الحقيقة المدفونة في ذكرياتك، لماذا أنت هنا؟

- لا يمكن للحقيقة أن تكون أشد قسوة من السيناريوهات المزرية التي ينسجها عقلي كل ليلة.

- كوابيس؟

- أكثر مما يتحمله عقل بشري.

- متجددة أم متكررة؟

- بعضها جديد وبعضها متكرر، في الحقيقة ثمة كابوس واحد متكرر.

- ترى فيه نفسك؟

- أرى فيه طفلاً حبيس قفص كأنه معروض في حديقة الحيوان، يتفرج عليه البعض، وآخرون يريدون نهشه.

- هل هذا الطفل هو أنت؟

- ربما، لا أعرف.

تجسد الألم فوق قسمات وجهه، التفت إلى الطبيب مناشدًا:

- عليّ أن أتخلص من هذا العذاب، منذ زيارة «القرداتي»، وأنا أكاد أفقد عقلي، بماذا أراد أن يخبرني؟ ما السر الذي يعرفه عني وعن أمي؟

- احك لي عنها.

- عمن؟ أمي؟ حسنًا لا أعرف ما أقول، كانت امرأة بسيطة، خياطة، تسعى على رزقها ورزق ابنها الوحيد.

ساد الصمت بعدها، لم يقدم له الطبيب طرف خيط ليبدأ منه حكايته، ترك له اختيار محطة الانطلاق لقطار الذكريات.

أخذ السيد هود نفسًا عميقًا ثم بدأ حكايته بـ:

- كانت أمي تحب مشروب القرفة بالزنجبيل.

***

لساعة كاملة تحدث السيد هود بلا انقطاع، دون أن يمر بحديثه على ليلة الحادث، يروي بشيء من الخجل والتردد كيف كانت أمه تعاني «اضطراب الشخصية الحدية»، لم يعرف في هذه السن الصغيرة تلك العبارة الكبيرة في حروفها ومعانيها، عرف ذلك مؤخرًا بعدما قرأ عن هذا الاضطراب النفسي.

لطالما رأى أمه تعاني تقلبات مزاجية مفاجئة، أحيانًا يراها ضاحكة من غير سبب، منتعشة، شديدة النشاط، وفي أحايين كثيرة يراها باكية، صارخة، تكسر وتمزق أي شيء حولها.

لا تطبخ له إلا نادرًا، أحيانًا، كان يمضي أسابيع دون أن يملأ بطنه بوجبة ساخنة، إلا ما كانت تحضره له جارة، أو يمنحه إياه زميل في الفصل.

لأسابيع ترتدي أمه الثوب نفسه، وتتوقف عن تمشيط شعرها، فكان يأتي بالمشط ويجلس خلفها ويحاول جاهدًا فك تشابكه.

يأخذ رأسها في حضنه، ويحكي لها حدوتة، عن «ست الحسن والجمال» وحبيبها «الشاطر حسن»، ومحاولات «أمنا الغولة» للتفريق بينهما.

تقبّله بحنان مفرط في الصباح، وتصرخ فيه بلا سبب في المساء، تناديه باسم أبيه الراحل، فيمتلئ قلبه الصغير حزنًا وغمًا.

يشعر بالندم حين يغضب عليها ويتمنى بينه وبين نفسه موتها!

يخبره أحد الجيران عن طيبة أبيه الراحل ورجاحة عقله وحُسن عشرته، فيتطلع إلى رب السماء متسائلاً: لماذا أخذت أبي وتركت أمي؟

ثم يعود ليخجل، ويندم، محاولاً تناسي الكلمات البشعة التي تفوه بها.

لا يطرح الهم عن كتفيه ويتذكر طفولته إلا حين يشارك أطفال المصطفين اللعب، أو حين يمر «مبسوط القرداتي» بشارعه، مصطحبًا قروده الثلاثة الراقصة في تناغم كبير، وصاحبها بجوارها يسرد مواويله وأغانيه المضحكة، تتبع توجيهاته الصعبة حتى ولأنها تفهم لغة البشر فتؤدي عروضًا مميزة، يشاهدهم ضاحكًا ومصفقًا في بهجة حقيقية تتسلل إلى قلبه الصغير، فيضع في القبعة آخر ما يملك بجيوبه من عملات معدنية.

يعود إلى البيت الكئيب ليجد أمًا مستشيطة غضبًا، تنزل فوق جسده الصغير ضربًا بستّارة أبيه دونما سبب، أو لسبب تافه لا يتذكره كلاهما بعدما تهدأ فورة غضبها، وتأخذه في صدرها باكية.

يتشبع قلبه حقدًا وغضبًا على الأم التي لا تتمالك نفسها، تعذبه كأنما تستلذ بذلك، ثم تعتذر نادمة، تعود في اليوم التالي لتعيد الكرة، إلى أن ملّ حياته وفكر ذات مساء في القفز من النافذة.

عله يجتمع بأبيه الحنون، الذي اختطفه منه البحر قبل مولده.

إلى أن وقعت في الشارع المجاور حادثة، قضى الغاز المتسرب من الاسطوانة على أسرة كاملة في أثناء نومهم، أب وأم وثلاثة أطفال في عمر الزهور، حزن عليهم كثيرًا وإن كان لم يرهم إلا مرتين أو ثلاث.

وفي ليلة صيفية حارة، فكر في فتح الغاز لينام كلاهما نومة أخيرة.

اكتشفت أمه الغاز المتسرب قبل أن يتمكن من ملء العشة، فتحت النوافذ والأبواب، ومضت إليه تجذب رأسه وتقتلع بضع شعيرات في كفها، لئلا يكرر ذلك مجددًا، تخيفه بحكاية أمنا الغولة التي تختطف الأطفال المشاغبين، وتحبسهم عندها في بيتها المهجور إلى الأبد!

فتساءل في نفسه: لماذا تكره «أمنا الغولة» الأطفال، لماذا لا تختطف الأمهات السيئات أيضًا؟

ولم يجد في سرديات «أمنا الغولة» ما يُشبع تساؤله.

(31)

حقيقة عارية تبحث عن رداء يسترها

اللعنة على الأطباء النفسيين ومن يروج لبضاعتهم.

ساعة كاملة من الحكي المتصل، لم يجن منها شيئًا سوى نكء جراحه، لا ذكرى استعادها، ولا كابوس تخفف عن كاهله.

التخفف الوحيد الذي شعر به هو فقدان خمسمائة جنيه من محفظته.

ما زال يجهل السر الذي طواه في ثنايا عقله، ويحاك في صدره كذب لا يغتفر.

وقف أمام جدار عشته المكدس بتفاصيل الجرائم الأربع، بعدما تحصل من صديق له على المعلومات التي تخص الضحية الأخيرة.

راحت الأسئلة تتتابع على ذهنه:

إلامَ يشير الموقع الإلكتروني الفارغ الذي تُفضي إليه الجروح القطعية في جبين الضحايا الأربع؟ صفحة بيضاء فارغة، ما الغرض منها يا تُرى؟

كيف تمكن القاتل من تخطيط هذا التزامن العكسي الدقيق، لتكتشف الشرطة الجرائم بتسلسل معكوس، ما هذه الدقة المتناهية؟ هل تلعب المصادفة في فريقه بعقد حصري؟

لماذا قرر القاتل أن ينهي الحدوتة الآن؟ وأين دماء «سنية»؟

لماذا تشبه جميع الضحايا أمه، من إهمال أو تزمت أو معاناة شخصية؟

لماذا يشعر أنه منغمس في هذه القضية حتى أخمص قدميه؟

هل القاتل في هذه الجرائم مختلف عن قاتل أمه؟ أم هو المجرم نفسه؟

وإذا كان المجرم نفسه، فكيف استطاع أن يُطور أسلوبه الإجرامي بهذا الإتقان؟ ولماذا توقف عن القتل لسنوات، ولماذا قرر فجأة إنهاء اللعب؟

أوصاه الطبيب قبل مغادرة العيادة: «كثيرًا ما تُثار الذاكرة بالروائح، فكر في رائحة تذكرك بليلة الحادثة، أحط نفسك بها، وغُص في المشاعر التي تثيرها بداخلك».

لم يعرف رائحة مرتبطة بأمه بقدر ما ارتبطت رائحة القرفة بالزنجبيل، وتلك الرائحة البائتة التي تفوح منها في فترات انطفائها وتكاسلها.

ولمّا لم يرَ في رائحة العرق مرشحًا مناسبًا ليحيط نفسه به، اختار مشروبها المفضل.

أعدّ كوبًا كبيرًا دون شهية، وضعه جواره فوق الكومود، استلقى على الفراش، أغمض عينيه، محاولًا إيقاظ الذكرى النائمة، ومواجهة حقيقة مقموعة لسنوات.

مرت نصف ساعة، ثم أدرك سخافة الناصح والمنصوح، وبطلان النصيحة المائعة.

وبدلًا من إيقاظ ذاكرته، استغرق هو في نوم عميق، غاص في متاهات الحلم، وتنقل بين دهاليز عقله اللاواعي، ارتحل من ممر إلى آخر، وقف أمام كل جدار تحتشد فوقه الكلمات والصور.

عقله يقاوم، يمنعه من الاستمرار، حمايةً له من بشاعة ما سيتذكره!

قاوم السيد هود الخوف المتجسد في هيئة كرة من نار تلاحقه، ربما لأول مرة منذ ليلة الحادثة يجد في نفسه تلك القوة، أراد أن يعرف، مهما كانت بشاعة المعرفة.

تصبب جسده عرقًا كأنه ينام في بطن فرن، النيران تحيطه من كل حدب وصوب، ألسنتها الحمراء تراقصه، تلسعه، وتحثه كي يتذكر الحال الذي كان عليه، لحظة أن رأى أمه ممددة على الأرض وقد فارقت الحياة.

يتذكر الدماء الغزيرة التي تحنّت بها كفاه وباطن قدميه، يتذكر نظراته الذاهلة التي طالعته في المرآة المثبتة على جدار الصالة، والغضب الذي كان يملأ قلبه قبل ذلك بلحظات، غضب شرس نهش براءته.

يتذكر آخر كلمات صرخ بها في وجه أمه بعد شجار مستعر: أتمنى أن تأتي أمنا الغولة وتمتص دمك!

وفي اللحظة التالية، يرى نفسه بجوار جثتها ينتزع شعر رأسه! لا يدري إن كان هذا وهما أم حقيقة، ذكرى أم لعنة!

يغرق أكثر في متاهات عقله، يجد نفسه بين ذراعي اللواء «لطفي درويش»، يصرخ على أمه الميتة كي تستيقظ.

يفتح اللواء كفه، يخرج الشعرة، يسأله: هل نزعتها من رأس الشرير؟

يضطرب إدراكه، تسقط الأحداث من ثقوب الذاكرة، ثم يومئ برأسه إيجابًا.

تتبدل الصور، يرى أمه في الحلم مثلما كانت في أفضل حالاتها، لا تصرخ، لا توبخه، فقط تتطلع إليه بصمت معاتبة، عتابًا له وقع طلقة نافذة من مسدس كاتم للصوت.

يستيقظ السيد هود بشهقة عالية، جسده ينتفض بقوة، ذراعاه في الهواء متشبثًا بحبال غير مرئية، يطيح بالكوب الذي برد، فيتهشم أرضًا وينسكب المشروب.

يتطلع إلى السائل المراق بذهول العائد من موتة صغرى، يرفع كفه إلى رأسه، ينتزع شعرة، يدنيها من عينيه بفزع، ويودع أمانه الذي ارتحل.

هل كل الضحايا كُنّ إسقاطًا على «المرأة الأولى» التي تمنى ابنها ذات يوم أن تأكلها «أمنا الغولة»، وتشرب دماءها.

هل كل الضحايا كُنّ إسقاطًا لأمه؟

***

طرقات على الباب تنتزعه من فراشه، وتضعه في مواجهة «ساري» المتحفزة:

- لماذا لا تُجيب على هاتفك؟

- لم أسمعه.

- هل حدث جديد لا أعرفه؟ هل تذكرت شيئًا؟ تبدو في حالة مزرية.

يرى الأشياء مشوشة، تذوب مثل شمعة، الجدار والأرض واللوحة، تتلاشى الألوان، ويتبدى كل شيء من حوله بلون أصفر مثير للغثيان.

يلقي فوق الأريكة بجسده الخائر، تبدو عليه آثار رد فعل عصبية لاستعادة ذكرى مكبوتة، مع برودة تسري في أطرافه، يجاهد ليتنفس بصعوبة.

- لا تزد قلقي يا «هود»، من فضلك أخبرني بما حدث، لماذا تبدو في هذه الحالة؟ تذكرت شيئًا بالتأكيد، لا تخفه عني أرجوك.

يشم رائحة غير موجودة منذ أن استيقظ من نومته، مزيج منفّر من الدم والعرق والقرفة بالزنجبيل.

- تعرف القاتل، أليس كذلك؟ أشعر منذ البداية أنك تعرفه.

تسقط نظراته فوق بروز بطنها، هل ازداد حجمًا عن آخر مرة أم خيّل إليه؟ يحط الغضب فوق رأسه مثل غراب أسود.

تواتيه رغبة مباغتة في أن يبقر بطنها، ينتزع الطفل من رحمها، يسلمه لأبيه، ويأمره أن يغرب عن وجه كليهما.

- أنت تخيفني.

- وأخيف نفسي كذلك.

- قلتُ إن الجريمة الأخيرة ستُغلق الدائرة، لكني عرفت أنه لم يكن هناك دماء حول الضحية الرابعة.

- لا دماء. لا دائرة.

- ماذا يعني هذا يا هود؟

- انتهى القتل، لكن الحدوتة لم تنتهِ بعد.

وقف أمام الجدار مشيرًا إلى القسم الأخير الذي كان محفورًا فوق الخنجر المنزوع من فم «مايسة» الضحية الأخيرة، الذي أخبره به «درويش» في رسالة.

- ستنتهي الحدوتة بانكشاف الخدعة.

- أي خدعة؟

طال به التفكير، لا يُسمع خلال ذلك سوى صوت عقارب الساعة، وأنفاس «ساري» المتلاحقة، لم تحتمل هذا الصمت المريب فصاحت به:

- تحدث بوضوح يا «هود»، لا أفهمك، عن أي خدعة تتحدث؟

- ولماذا تولين اهتمامًا كبيرًا لفهمي؟

- ماذا تعني؟

أشار إلى ما حوله قائلًا بهدوء شديد - أين «نسيم»؟ لماذا لا يداهم عشتي؟ كيف يتركك تتحركين بمفردك؟

- إنه نائم، نومه ثقيل، أخبرتك بهذا من قبل، لا تنظر إلى ساعتك عادة ولا تعرف أننا في الواحدة بعد منتصف الليل.

- لماذا لا يغلق باب العشة عليك من الداخل؟ لماذا لا يخشى هروبك؟

- أخبرتك بهذا أيضا، يعرف أنني لن أحاول الهرب، ليس لدي أحد ألجأ إليه، وسبق أن هددني بإعادتي إلى المصحة.

- ماذا يريد منك «نسيم»؟ لو أراد المال لساومك منذ وقت طويل، ولو أرادك لما انتظر منك دعوة.

- ما أدراني؟ إنه رجل ذو عقل مضطرب.

- لماذا توترت هكذا؟

- لأنك تستجوبني كما لو كنتُ متهمة.

- وهل تشعرين كمتهمة؟

- «هود» ماذا بك؟ لا أفهم ما ترمي إليه.

منذ اللحظة الأولى شعر أنها تخفي أكثر مما تظهر، حتى إنه شبهها بـ «امرأة هادئة تحتضن بين ذراعيها قنبلة».

لكن ما لم يذهب إليه تفكيره أن هذه القنبلة معدة لأجله، كي تنفجر في وجهه. كانت قصتها طوال الوقت ممتلئة بالثغرات، ولولا استنزافه الذهني مع تفاصيل الجرائم المتلاحقة، لأمكن كشفها مبكرًا.

تستطيع عينا السيد هود المدربتان فهم لغة الجسد، ورصد أمارات الكذب، وكان جسد المرأة الواقفة أمامه يصرخ معترفًا بأنها خدعته.

ماذا أرادت منه؟ لماذا اختارته؟ لا مال له ولا سلطة ولا ما يستحق أن نسلبه.

- لا يبدو «نسيم» كقواد، بل على العكس، يبدو رجلاً بدماء حامية، لا يثير الشكوك، ولهذا فهو الشخص المثالي لأن يطلق امرأته على جيرانه الغرباء في المنطقة.

دوت صفعتها فوق وجهه تشق سكون الليل، وتوقظ شياطين الغضب النائمة فوق جفنيه، توارت المرأة الضعيفة التي تنشد المساعدة، وظهرت أمامه القوية التي رأى منها لمحات متفرقة طوال الفترة السابقة.

- أصبت بشأن الخدعة.

قالت ذلك بنبرة تشبه شعرها، ثائرة، ومتحدية، ها هو يلتقي لأول مرة «ساري» الحقيقية.

- ماذا أردت مني؟

- أن تتذكر.

لماذا يهتم الجميع بتلك الليلة الدامية؟ لماذا يدفعونه لأن يتذكر؟

- كان مشهد قتلك مزيفا، لليلتين متتاليتين، الشجار والخنجر والطعنات الثلاث من خلف الستارة. تمثيل متقن مع شريكك في المشهد.

- عليّ أن أعترف، كنت أكثر سذاجة مما ظننت، صدقت سريعًا أنني قُتلت، حتى إنك توهمت أن الجريمة حدثت داخل رأسك.

- أين اختفيت في المرتين عندما فتشنا العشة؟

- قفزت من النافذة، هل ظننت أنني اخترت هذا التوقيت المتأخر عبثًا؟ أردت ألا يكون هناك شاهد.

- والخنجر الذي لم نعثر عليه في المرتين، هل أخذته معك؟

- لم يكن هناك خنجر، بل قطعة من الورق المقوى تُستخدم كفاصل للكتب.

- هل ضحكتما كثيرًا؟ على الأقل، أتمنى أن أكون قد نجحت في إمتاعكما.

- اترك هذه السخافات ولنتحدث بجدية، ما زالت الدائرة مفتوحة لأن نقطة البداية ليست عند «مايسة»، بل عند أمك.

تقول ذلك بغلظة متناهية، ودون رأفة تنزع امرأة السلام فتيل القنبلة، وتلقيها بين ذراعيه.

- ما عاد بوسعك الهرب من الحقيقة العارية، أنت القاتل يا «هود»!

(32)

نفس الشيطان

«درويش» الذي لم يذق غمضًا لليلة كاملة، تسلم للتو تقرير السموم الذي أصدره المعمل الجنائي، بعد إعادة تحليل الدماء القليلة المتبقية في عروق الضحايا الأربع.

بينما أتاه صوت «عمرو» كموسيقى تصويرية في الخلفية، يردد ما أفادت به التقارير:

- لم تظهر أي آثار لأي عقار غريب في التحليل الروتيني، لكن عندما أمرت سيادتك بإجراء تحاليل خاصة متقدمة، تمكن الخبراء من العثور على آثار ضئيلة من مادة «السكوبولامين» في جسد الضحايا الأربع، أحسنت يا فندم، كيف استطعت تخمين ذلك؟

لم يكن هذا تخمينه الأول، كانت عدة مواد أخرى مرشحة على قائمة من خمس مواد طلب إجراء تحليل خاص للعثور على بقاياها في دماء وأنسجة الضحايا الأربع.

لم يكن «السكوبولامين» اختياره الأول، لكنه بالتأكيد كان اختيارًا مهمًا، توصل إلى ذلك بعد شهادة عامل التوصيل الذي أفاد بأن المجني عليها كانت تتحرك مثل الزومبي، تعجز عن التحكم بأطرافها، ولا تتذكر من تكون.

عرف «درويش» أنه يبحث -غالبًا- عن مادة من دون رائحة، لها تأثير تخديري إذا ما استُخدمت بجرعات عالية، تسلب المرء ذاكرته، وتجعله يتحرك من غير وعي مثل الزومبي.

وكان «السكوبولامين» من بين المواد المعروفة كـ «مخدرات محو الذاكرة».

قال «عمرو» موضحًا ما يعرفه «درويش» بالفعل:

- تلك المادة موجودة في بذور ثمرة البروغمانسيا المعروفة بتأثيرها المهلوس، التي تنبت في «كولومبيا».

يعرف «درويش» أن الجرعات العالية من هذا العقار لا تسبب علامات تسمم ظاهرية، ولا تظهر في الفحوص التقليدية للطب الشرعي، بل تتطلب

فحوصات خاصة، ولا يتم إجراؤها إلا إذا وُجد سبب جنائي واضح.

- هذه المادة تتحلل في الدم بسرعة خلال ساعات، لكن الجرعات العالية منها تبقى آثارها في الأنسجة وقتًا أطول.

تتابع صوت «عمرو» في الخلفية:

- حسب المكتوب في التقرير، فهذه المادة لها تأثيرات قوية، لذا تُستخدم بجرعات صغيرة جدًّا طبيًّا، تؤخذ من خلال وصفة طبية، تُستخدم للوقاية من دوار الحركة والغثيان والقيء وعلاج اضطرابات الجهاز الهضمي، والجرعات العالية منها تُسبب النعاس العميق، واخلال التوازن، وفقدان القدرة على المقاومة وفقدان الوعي، وتؤدي الجرعات المفرطة منها إلى التسمم والوفاة.

فرقع «عمرو» أصابعه وهو يردف بانفعال:

- هكذا تمكن القاتل من إخضاع أولئك النسوة، سلبهن حرية الحركة والإرادة مستخدمًا هذا العقار لذلك لم يظهر على الضحايا أي جروح دفاعية، سلبهن الإدراك تمامًا، رجل خسيس، لكنه في الوقت نفسه ذكي للغاية.

«السيكوبولامين» غير مُدرج في جداول المخدرات بمصر، إلا أنه يُعرف بـ «نَفَس الشيطان»، سمع به «درويش» لأول مرة قبل عامين، وذلك بسبب شيوع استخداماته المرعبة والخطيرة في بعض الجرائم في «كولومبيا».

الجرعات المتوسطة من «نَفَس الشيطان» تُمحي الإرادة، تجعل الشخص طيعًا فاقدًا القدرة على الرفض وغير مدرك لما يفعله.

كما أنها تسبب فقدان ذاكرة جزئيًّا، لا تتذكر الضحية شيئًا بعد زوال مفعوله.

قابل للذوبان في الماء والشاي والعصائر، عديم الرائحة والطعم تقريبًا، لذا لا تشعر الضحية بالخطر الذي يحيق بها.

سُجلت حالات عديدة في تقارير دولية، حيث نُفخ في وجه الضحية مسحوق من هذه المادة، أدى إلى انهيارها خلال دقائق.

يستخدمه المجرمون في سرقة المنازل، والاعتداءات الجنسية، وهكذا أطلق عليه السكان المحليون بكولومبيا اسم «نَفَس الشيطان» نظرًا لكون الضحية تبدو وكأن الشيطان همس في أذنها وجعلها تنفذ أوامره دون وعي أو مقاومة!

- هل تعرف بمَ يُذكرني هذا العقار يا «درويش» باشا، إنه يُشبه إلى حد كبير «الروهينبول» المعروف باسم «عقار الاغتصاب»، يستخدمه المجرمون في إخضاع ضحاياهم والسيطرة عليهم ومحو ذاكرتهم، الفارق أن «الروهينبول» محظور تداوله في مصر، ولا يوصف إلا في حالات محدودة وبمعايير صارمة.

كان «درويش» قد تابع في الفترة الأخيرة حملات التوعية للنساء والفتيات، التي تحذر من شرب الماء وعلب العصائر المُقدّمة من الغرباء.

وتابع تفاصيل قضية حديثة أُلقي فيها القبض على عصابة تستدرج الفتيات بهذه المادة، ثم يتعرضن للاغتصاب أو لسرقة أعضائهن وبيعها بآلاف الدولارات في سوق تجارة الأعضاء الرائجة.

وبعد ما توصل إليه الآن من معلومات، وبعدما تأكد من استخدام «السيكوبولامين» على الضحايا، أصبح على يقين بأنه لا يشترط أن يكون القاتل رجلًا بالغًا ليتمكن من إخضاع ضحيته.

فحتى الطفل سيتمكن من ذلك!

في هذه القضية، لماذا «هود» دومًا على حق؟ لماذا يسبقه بخطوة؟

أجهد ذهنه في عزل المعلومات القليلة المهمة، وزن القاتل الذي لا يتجاوز خمسة وثلاثين كيلوجرامًا، واستخدامه لعقار قادر على إخضاع ضحايا، كل هذا يؤكد نظرية «الطفلة القاتلة» التي اقترحها «هود».

كما لو كان مطلعًا على صحائف الغيب، يُطالعها سطرًا بسطر!

لكن ثمة ثغرة في تلك الفرضية، ألا وهي الوصفة الطبية، كيف ستتحصل طفلة في الثانية عشرة على كمية وفيرة من عقار يحوي هذه المادة؟

- هذا القاتل يرغب في أن يُقبض عليه يا فندم.

- لماذا تقول ذلك؟

- بدأ جرائمه بحرفية شديدة، والآن يترك وراءه أثرًا ودليلًا. هذا المجرم يملك الكثير من الذكاء والدقة، ومثل هؤلاء المتباهين بقدراتهم، غالبًا ما يحبون إقحام أنفسهم في القضية وإبداء رغبة في المساعدة خلال التحقيق.

صرف «عمرو» ثم أخذ يتأمل الصور التي التقطها السيد هود لمسرحي الجريمتين اللتين عمل عليهما، وتلك التي التقطها المصور الجنائي لسطح بناية الضحية الثالثة، الذي أفاد فيها الشاهد برؤيته لـ «أمنا الغولة»، ذات

أقدام الماعز، تطير فوقه بعدما نفذت جريمتها، وامتصت دماء ضحيته من خلال نافذة الحمام.

أعاد تأمل تفاصيل تلك الأخيرة بدقة، لطالما قال له السيد هود: الصور شاهد صامت، لا يكذب.

دقق في الصور التي التقطها المصور الجنائي البديل، لكل ركن من السطح، بعدما أمر اللواء باستبعاد السيد هود من المهمة، وأبعده عن القضية.

مسح وجهه بحنق عندما لم يقف على شيء، وطرق سطح المكتب بعنف.

فجأة، انقبض قلبه عندما وقع بصره على صورة ملقاة على يُمنأه، لأحد أركان السطح.

أخرج من أحد الأدراج عدسة مكبرة، احتقن وجهه وقد تأكدت شكوك كانت تحاك في صدره، وطال إنكاره لها.

كانت الصورة تُظهر لعبة كبيرة ملقاة بإهمال على سطح مسرح الجريمة الثالثة، وقد غُطّيت بصندوق متهرئ من الكارتون.

فتح جهازه اللوحي بسرعة وشغل الفيديو الذي صُوّر لكل سنتيمتر من السطح، فرأى اللعبة ظاهرة بوضوح بعد أن رفع المصور الصندوق عنها.

كانت تلك التفصيلة لتمر مرورًا عابرًا، لولا لون اللعبة الذي جعله يتجمد في موضعه، كانت اللعبة بلون أصفر زاهٍ يسر الناظرين.

ولا يعرف في هذا العالم سوى شخص واحد يخاف اللون الأصفر، ويحرص على تغطيته كلما صادفه!

لم يُكَلَّف السيد هود بتصوير السطح، منعه اللواء من أداء المهمة.

فمتى تمكن من تغطية اللعبة؟

***

(33)

توتة توتة. خلصت الحدوتة

- أنت القاتل يا «هود»!

لماذا تبدو الصور أمام عينيه مشوشة، كأن شيطاناً غضوباً نفث دخانه في وجه العالم؟

هل تشرب الشياطين السجائر؟

اشتهى سيجارة، رغم أنه لم يذقها منذ عام تقريباً، عندما تزوج أقلع فوراً عن التدخين، لم يتحمل جسده اجتماع ضررين.

- أنا لم أقتل أحداً.

- هل أنت واثق؟ تبدو لي كمجرم أثيم.

لماذا تبدو «ساري» بهذه القسوة؟ نظراتها التي كانت تتهادى فوق وجهه مربتة، وصوتها الذي كان يمر على أذنيه مُهدهداً، كل شيء فيها تبدل في لحظة، كأنها طوال هذا الوقت كانت تخفي بداخلها «ساري» أخرى، مثل أرنب يخرجه ساحر من بطن قبعته.

- لا أعرف ما تتحدثين عنه، لا أتذكر.

- أنت لم تنسَ، بل تتناسى، هل تذكر عندما أخبرتك بذلك أول مرة؟ أنت رجل منافق يحلو له خداع نفسه.

- لا أعرف شيئاً، لا أتذكر.

ضاقت أنفاسه أكثر عندما انتبه إلى القلادة المتدلية من رقبتها، التي تنتهي بطائر أصفر، تفصد جبينه عرقاً، ولا شعورياً ابتعد بجسده عنها، وغاص في الأريكة أكثر.

- من هو الشخص الوحيد الذي تمنى أن تموت أمك؟

ارتحلت به الذكرى إلى يوم أسود، وأمنية بقيت محبوسة في صدره. لا، لم تُحبس، صاح بها أكثر من مرة: «أتمنى أن تموت أمي».

أمنية تُلفظ بها باندفاع أهوج.

ثم تلاشت الذكريات من رأسه، انقطع تسلسلها ولم تعد للاتصال مرة أخرى، إلا عند مشهد تتحقق فيه أمنيته.

يده مغموسة بدم أمه، والأخرى تقبض على شعرة منزوعة من رأس الجاني.

- أنت قاتل أمك.

دارت به الأرض، أو هو الذي دار بها، مثل أفعوانة فقدت صوابها، لطالما أحب الأفعوانيات صغيراً، ولم يملك يوماً المال الكافي لركوبها.

- كانت مجرد أمنية.

- هل بهذه الطريقة تخدع نفسك؟ أنت قاتل بدماء باردة، أنت مجرم يستحق الشنق في ميدان عام.

- لم أقتل أمي، لم أقتل تلكن النسوة.

- كاذب حقير.

نزلت بكفها فوق وجنته بصفعة مدوية، شقت الهدوء المخيم على المنطقة، وأيقظت القمر النائم في مخدعه، فطل من خصاص النافذة متلصصاً عليهما. زلزلته الصدمة، وقهرته الصفعة، وبدلاً من أن يثور في وجهها غضباً، خشي الاقتراب منها بينما بينما القلادة الصفراء تتدلى من عنقها.

- ما شأنك بي يا امرأة؟ أقتل أو لا أقتل، لماذا تدسين أنفك في حياتي؟

- لأنها حياتي أنا أيضاً.

سدد في وجهها نظرات حارقة، متسائلاً عما تلفظت به للتو. انقضت عليه متمسكة بتلابيبه، فسقطت القلادة فوق جبينه، ولامست بشرته، اقشعر جلده، وانتفض طرفه.

- أين ابني يا «هود»؟

تدحرج سؤالها مثل صخرة سقطت فوق عقله، ودهسته. عن أي ابن تتحدث؟ سدد نظراته صوب بطنها المنتفخ، هل ازداد حجماً منذ بداية الأمسية؟ أي خُيّل إليه أنه يكبر؟

- ابنك في رحمك.

- إياك أن تسخر.

- أقول الحقيقة التي أنكرتيها ألف مرة.

- أتحدث عن ابني الذي يبلغ خمس سنوات. أين «آدم»؟

هل أسمت ابنها «آدم» بينما لا يزال جنيناً غير مكتمل؟ لماذا تَدّعي أنه يبلغ من العمر خمساً؟ هل يتجاوز حمل المرأة تسعة أشهر؟

وفي خضم حالة الهذيان التي أصابته، تطلع إلى بطنها محاولاً أن يوافق عمر الجنين مع حجمه، هل يبدو ابن خمس سنوات حقاً؟ ربما، كل شيء في هذا العالم البغيض ممكن.

- أين «آدم» يا «هود»؟

لحظة خيل إليه أنها زوجته السابقة، وتطالبه بالإفصاح عن مكان ابنهما المشترك، لولا أنه يتذكر جيداً أنه لم يُرزق بولد، لم يرغب في أن يطعم هذا العالم الشره طفلاً من صلبه.

تقطعت أنفاسه، بينما جاهد ليُبقي قلبه داخل أضلعه انتفض بهذه القوة.

- «ساري»... لا أعرف... عما تتحدثين.

انفجرت باكية، بكاء حقيقي هذه المرة، في أشد حالاتها انهياراً وضعفاً.

- أرجوك أخبرني، أين «آدم»؟ أين ابني؟

لا يتذكر أنه اختطف طفلاً، أو شرب دماء أولئك النسوة، أو قتل أمه بثلاث طعنات بالصدر، هل يتذكر المجرمون أفعالهم؟ أم ينسون كل شيء مثله؟

- أنا... لا أعرف... لا أفهم.

الباب الذي تركته «ساري» موارباً بعد دخولها، انفتح بقوة على مصراعيه، تقدم «درويش» مقتحماً العشة من غير دعوة، يتبعه «عمرو» وخبير سيبراني وفردان من أمناء الشرطة، جميعهم في حالة تأهب قصوى.

وقف «درويش» أمام صديقه المتهالك فوق الأريكة، وأغلظ عليه القول:

- أين حاسوبك المحمول يا «هود»؟

لم يجب **السيد هود**، تشوش إدراكه، نسي امتلاكه للحاسوب.

اقتحم **«عمرو»** غرفة النوم من غير دعوة، فتش كل ركن فيها ناثرًا الملابس والأغراض في كل مكان. أخرج **«درويش»** الحاسوب من حقيبته، وأعطاه للخبير، الذي التقطه وفتحه فورًا، مطالبًا صاحبه بكلمة السر، منحهم **السيد هود** كلمة سر تفشل مرة واثنتين وثلاثًا، تنهد يائسًا وتمتم ذاهلاً:

- لا أعرف لمَ لا تعمل كلمة السر.

- لا مشكلة، سنتصرف.

عالج الخبير التقني البيانات واقتحم خصوصية **السيد هود** بلا حساب.

وقفت «**ساري**» تتطلع إلى ما يحدث بذراعين معقودتين فوق صدرها، ونظرات متلهفة، آملة في القبض على الحقيقة المتوارية في حواري التلفيق.

بعد دقائق طويلة لم يُسمع خلالها سوى صوت نقرات أصابع الخبير فوق لوحة المفاتيح، تمتم الخبير بحماس، موجهًا حديثه إلى «**درويش**»:

- إنه الحاسوب المطلوب يا فندم.

التفت «**درويش**» إلى صديقه الذاهل، صارخًا في وجهه:

- لماذا يا «**هود**»؟

- لا أفهمك يا «**درويش**».

- لماذا قتلت أولئك النسوة؟

- بماذا تهذي؟

- حاسوبك. إنه الحاسوب المستخدم لإنشاء الموقع المُشفَّر الذي قادنا إليه رمز الاستجابة السريع QR المحفور فوق جبين الضحايا الأربع.

تخبطت أفكار **السيد هود** وتصادمت ببعضها، دارت به الأرض أكثر، وشعر أنه يسقط داخل بئر مظلمة.

طرق سمعه صوت «**درويش**» بنبرته الحادة كمطارق فوق رأسه:

- حاولتُ خلال الأيام الماضية أن أتذكر أين سمعت قصة فتاة النافذة التي حبستها أمها ولم تسمح لها بالخروج إلى الشارع. قصة ابنة «**سنية**» التي لم يعرفها أحد غير زوجها. والقاتل الذي قرر معاقبة أمها، ثم تذكرت ممن سمعتها. من طفل صغير يماثلني في العمر، يقيم في دار للأيتام، لطالما أخذني والدي للعب معه إلى أن توطدت صداقتنا

وامتدت عقدين كاملين. هذا الطفل هو من أخبرني بتلك القصة. هذا الطفل هو أنت يا «**هود**»، كانت الفتاة صديقتك. اعتدت التحدث معها وأنت تقف

أسفل نافذة غرفة نومها. وعندما اكتشفت أمها لقاءاتكما السرية، عاقبتها. عذبتها. وأغلقت النافذة بألواح خشبية.

تلاقحت الذكريات في رأس **السيد هود**، مشكّلة جرائم كاملة، لا يعرف إن كانت وقعت في الحقيقة، أم هي من بنات المخيلة.

أخفى **السيد هود** وجهه بين كفيه، فلم يَرَ دليل الإدانة الذي أخرجه «**عمرو**» من أسفل فراشه. لم يزح كفيه إلا حينما سمع «**درويش**» يقول بصوت جامد النبرات:

- قلتَ لي إن دائرة القتل الجهنمية لن تنتهي إلا بالعثور على دماء «**سنية**»، آخر ضحايا القاتل.

رفع **السيد هود** رأسه ليرى أكياسًا حافظة للدماء ترقد بين كفَّي «**درويش**»، التي عثر عليها «**عمرو**» أسفل فراشه، ألهذا السبب وهو يستيقظ من كابوسه أنه يشم رائحة معدنية؟

- «**درويش**» باشا، انظر.

هتف بها التقني الذي ما يزال يتفحص محتويات الحاسوب، تعلقت أنظار الجميع بالشاشة التي تظهر رابطًا كان مدسوسًا داخل ملف مخفي.

ضغط «**درويش**» بتردد، على الرابط الموسوم بـ

Watch_me_4.mp4 - Live

للحظة ظن أن الفيديو الذي انبثق أمامه في نافذة صغيرة مسجل، إلى أن تمتم ذاهلاً:

- إنه بث مباشر!

رغم الإضاءة الخافتة، والخلفية الباهتة، تمكن الجميع من رؤية الطفل الصغير المحبوس داخل قفص كما لو كان معروضًا في حديقة للحيوانات!

صاحت «**ساري**» بلوعة، وهي تتمسك بالحاسوب بقوة:

- ابني. «**آدم**»!

التفتت إلى «**درويش**»، تبكي، وتصرخ، وترجو:

- أرجوك أعد لي ابني.

شاطرها «**درويش**» الانفعال والسخط. أمسك بتلابيب **السيد هود** الذي لا يزال جالسًا فوق الأريكة، وصرخ في وجهه:

- لم يكن ما أخبرتَ به الطبيب مجرد كابوس يراودك، لقد اختطفت طفلاً بالفعل وأخفيته في قفص، أخبرنا عن المكان وسأرسل قوة لإنقاذه. أين العنوان يا «**هود**»؟

ابتلع **السيد هود** لسانه، شعر أنه ما عاد يملك لسانًا من الأساس، راودته الغيرة من رأس البر التي لا تزال محتفظة بلسانها رغم تعاقب الفصول الأربعة.

التزم **السيد هود** الصمت، لا رغبة فيه، بل اضطرارًا إليه.

صاح الفني بحماس قائلاً:

- تمكنت من تحديد الموقع المحتجز فيه الطفل.

- أرسله إليَّ حالا.

أمره «**درويش**» ثم استخدم جهازه اللاسلكي لطلب قوة للدعم، تلحق به في المكان المرصود. ألقى نظرة مطولة على «**عمرو**»، ففهم هذا الأخير الأمر، بإلقاء القبض على **السيد هود**.

التفت «**درويش**» صوب صديقه، مُتمتمًا بنبرة ساخرة خَرَّطها الألم:

- توتة توتة، خلصت الحدوتة!

***

(34)

في مهب السؤال

انبثقت من ذاكرة السيد هود ضحكة أنثوية مرحة، وقهقهات طفل صغير يركض فوق الرمال.

تعانقت المرأة وابنها عند اللسان، وقد أنهكهما المزاح واللعب، كسا وجهها حزن دفين، أشارت إلى البحر الثائر خلف الصخور وهمست: هذا الموج سرق أباك منا.

حدق إلى الموج بنظرة طويلة مُرّة، كأن للحزن نكهة، تمنى لو يؤتى بقوة تكفي ليدس في وريد البحر إبره ويسحب مياهه، قطرة بقطرة.

داخل الزنزانة، فوق غطاء من الخيش، اضطجع السيد هود على جنبه، تبدت أمام عينيه ومضات متفرقة، وبلغت مسمعه أصوات متداخلة، فلم يدرِ أيها صوت الذكرى.

بكى بحرقة، فتشرب غطاء الخيش عبراته بنهم الأرض العطشى.

لطالما شعر أن في داخله سفاحًا نائمًا، ينتظر اللحظة المناسبة ليستيقظ، فقط لم يدرك أن هذا السفاح بدأ عمله منذ زمن بعيد، وكانت ضحيته الأولى، أمه.

وضع كفيه فوق أذنيه، يحاول حجب أصوات نساء مقتولات يصرخن في وجهه.

لماذا يعجز عن تذكر اللحظة التي أجهز فيها على ضحاياه؟ لماذا لا يتذكر شيئًا؟

هل يُسدي له عقله الباطن معروفًا فيمحو الذكرى الخبيثة كيلا ترهق ضميره؟

وقف في مهب السؤال، فلطم النسيان وجهه.

ثم عاد ليقول لنفسه: وما فائدة التذكر؟ أنا قاتل، تلك هي الحقيقة التي كنت أهرب منها.

خسر «ساري» إلى الأبد، حتى وإن كان لا يتذكر اختطافه لابنها، لن يشفع نسيانه عندها، خسر المرأة الوحيدة التي وَدّ لو يبني معها بيتًا وعائلة.

أعلن استسلامه داخليًا، تبلدت حواسه، وتوقف عن الاستجابة للمحفزات الخارجية، لا يثير حفيظته شجار رفقائه في الحبس، ولا تثير تهديداتهم الخوف في نفسه.

لا يأكل، لا يشرب، كأن جسده لم يعد معنيًا بالبقاء حيًا.

مستلقيًا على جانبه، تحدق عيناه إلى فراغ لا يراه سواه، عالم موازٍ بلا لون، بلا وقت، بلا ضوء.

مؤلَّف من الفراغ، والفراغ وحده.

عالم لا يتميز فيه الليل عن النهار، يتداخل فيه صوت المطر مع نبح الكلاب، كأنهما خرجا من حنجرة واحدة.

لم يعد قادرًا على الشعور بالغضب!

لأول مرة، يشعر السيد هود أن الغضب فارقه، طُلّق منه من غير رجعة.

عرف أن «درويش» عثر على الطفل في عشة قديمة مهجورة، لا يذكر السيد هود أنه ذهب إليها يومًا، وجدوا الطفل سليمًا معافى، إلا أنه يعاني تبعات الصدمة.

عندما سمع بذلك، لم يشعر بشيء، لا حزن في قلبه، ولا راحة، فقط رغبة خاملة في التوقف، عن كل شيء.

تمنى لو وجد زرًا في لوحة مفاتيح العالم، يضبطه على الوضع الصامت، أو يجمده عن الحركة مثل لعبة.

الحياة عقاب طويل، فلماذا يستمر فيه بإرادته؟

نام نومة طويلة لا تلاحقه فيها الكوابيس، وكانت تلك المفاجأة الوحيدة السارة، تلذذ بهذا الحدث المباغت، واتخذ من النوم مهربًا ودّ لو يكون أبديًا.

تمنى هذه المرة بصدق أن ينام بعمق، ولا يستيقظ في هذا العالم مجددًا.

(35)

قطعة ناقصة من المشهد

كان للخبر وقع مدوٍّ على العاملين بمركز رأس البر ومديرية أمن دمياط.

يعرفون السيد هود منذ بدأ العمل معهم كمصور جنائي قبل عدة سنوات، أعده البعض إنسانًا غريبًا، انطوائيًا، مُلغزًا أحيانًا، لكن أحدًا لم يتوقع أن يخفي بداخله قاتلًا متسلسلاً متعطشًا للدماء.

تواترت الأخبار من جيران السيد هود وبعض رواد مقهى المزاج الأصيل، بأنهم كانوا أول من توقع أن للرجل أسرارًا مظلمة يخفيها عن الجميع، تشاركهم طليقته وإخوتها تلك المزاعم على مواقع التواصل الاجتماعي، وقد باتت حساباتهم موضع اهتمام وتقدير.

أما اللواء «لطفي درويش» فكان أكثر من اغتمّ بهذا الخبر، كأن الذي قُبض عليه هو ابن من صُلبه.

ولموقفه الحساس، لم يحاول زيارة السيد هود حيث تُحفَّظ عليه، لئلا يسمح لمقتنصي الأخبار ومروجي الشائعات باتهام الشرطة بالمحاباة مع المتهم الأول في القضية.

المسافة التي وضعها حفاظًا على نزاهته وحماية للسيد هود في الوقت نفسه، لم تمنعه من متابعة الأخبار أولاً بأول،

التزم السيد هود الصمت طوال فترة التحقيق، لم يبُح بكلمة واحدة تبرئه من التهم المنسوبة إليه، مما دفع النيابة للتأكد من جُرمه.

أدانه صمته كما لو أنه اعترافٌ مُضمَر.

ولم يكن «درويش» في حالة أفضل، إذ أثقل الهم صدره، وعجز عن متابعة عمله بالكفاءة المعتادة، شعر بألم المطعون في ظهره، كيف يخدعه صديق عمره؟

كيف تمكن من إخفاء الظلام الذي بداخله؟

لازمه شعور الخيانة وأورثه مرارة في جوفه، حتى وهو يتجول داخل عشة «سنية» بالطابق الثاني بشارع 61، التي واتته رغبة قوية في فحصها مرة أخرى.

كان المبنى مطوّقًا بشريط أصفر يُحذر من الاقتراب، تخطاه وتجول في أرجاء العشة التي تُرِكت على الحالة التي وجدها عليها ليلة العثور على الجثة.

فقط جثمان «سنية» لم يكن موجودًا، رُسم فوق الأرض تخطيطًا بطبشور أبيض، يماثل الوضعية التي وُجدت عليها.

- ما زلت لا أصدق يا «درويش» بك أن السيد هود هو المجرم.

تجول في المكان باسترخاء ظاهري زائف، إذ كانت نفسه في حالة تشظٍّ قصوى.

أضاف «عمرو» مؤكدًا:

- لا يبدو لي مجرمًا.

- سمات المجرم تطورت عبر العصور، إلى أن أصبح لا فرق بينه وبين البريء ظاهريًا.

- هل تصدق حقًّا أنه فعلها؟ كنتما أصدقاء بشكل ما، ألم تشك به من قبل؟

- لو عُرِف المجرم بالشك، لما كان العالم بحاجة إلينا يا «عمرو».

- هذا يعني أن كل من نقابله هو مجرم محتمل، حتى أولئك الذين نؤمن أنهم نزهاء مثلنا.

حك «عمرو» رأسه ثم أردف متمعنًا في التفكير:

- لكن ثمة ما لا يستقيم مع هذه الفرضية، ثمة عنصر لا يزال غائبًا، وغيابه يزلزل السيناريو الذي يكون السيد هود فيه هو القاتل المتسلسل الذي نبحث عنه.

- وما هو؟

- الدافع يا فندم. ما زال الدافع غائبًا.

- وهل للجنون دافع؟ القتل ضرب من الجنون يا «عمرو»، لوثة تصيب الفطرة الإنسانية.

- حتى وإن كان في القتل جنون من نوع ما، على القاتل أن يملك دافعًا نفسيًا وإن كان غير منطقي، وإن كان مرفوضًا اجتماعيًا وإنسانيًا، يظل

اسمه دافعًا. أما في هذه القضية لا يجني السيد هود شيئًا من قتل هؤلاء الضحايا، بل لا تربطه بهن أي صلة من الأساس.

- كان صديقًا لابنة «سنية» في صغرهما، هذا يكفي لينمي حقده تجاه أمها.

- لماذا الآن؟ لماذا بعد مضي كل هذه السنوات قرر فجأة الانتقام لصديقته الصغيرة، صديقته التي ماتت في حادث سيارة وتركت طفلًا صغيرًا في كنف جدته، المرأة الوحيدة التي أحبته بعد أمه، هل كان ينتقم من «سنية»، أم من الطفل نفسه بحرمانه من جدته؟ ثم هذا الدافع لا يسري على باقي الضحايا، لم يكن صديقًا لأي منهن أو لأي من أبنائهن، لم تتقاطع خطاهم قط.

- كلهن أمهات سيئات في نظره، وهذا وحده كافٍ ليحقد عليهن، هذا ما وصلنا إليه في أثناء تحديد السمات النفسية للقاتل.

- أدرك ذلك، لكن هذا لا ينطبق على السيد هود، لأنه خلال سنوات عمله مع مديرية دمياط عاصر حوادث أكثر بشاعة من ذنب أولئك النسوة. قابل أمهات أشد سُميّة من الضحية الثالثة «شيماء» التي تؤذي ابنتها حرقًا وضربًا إذا تذبذب مستواها الدراسي، ومن الضحية الرابعة «مايسة» التي تترك طفليها وحدهما بالمنزل لفترات طويلة، وتهمل في مأكلهما وملبسهما، وتمنع أباهما من رؤيتهما، قابل السيد هود خلال عمله نماذج أكثر وضاعة، فلماذا اختار هؤلاء؟

- ربما سبق له أن اختار النسوة في القضايا التي عمل عليها كأهداف بالفعل، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إليهن، فلجأ إلى غيرهن.

- معذرة يا «درويش» بك، لكنني لا أظن أنك تؤمن بما تقوله، القاتل أظهر ذكاءً ملحوظًا ودقة متناهية، فما الذي يمنعه من الوصول إلى ضحية دون أخرى؟ ثم ما علاقة «آدم» ابن «ساري» بجرائم القتل؟

ألم نحدد سمات القاتل ونتفق على أنه ينقذ الأطفال عن طريق قتل النساء المسيئات في محيطهم؟ لماذا إذن يؤذي طفلًا مثل «آدم»؟ ثمة تعارض صارخ بين جريمة الاختطاف، وجرائم القتل، لا يمكن جمعهما تحت مظلة دافع واحد.

- ربما فقد عقله في لحظة ما، ربما ظن أنه ينقذ الطفل بهذه الطريقة، لا تنسَ أنه لم يؤذه، عثرنا على الطفل سليمًا ولديه ما يكفي من الطعام والشراب داخل القفص، وثمة مسجل يعمل بجواره يحكي حدوتة تلو

الأخرى، ولو أنه لم يكن معصوب العينين، لتمكن بسهولة من التعرف على خاطفه، لكنه للأسف لم يره.

- والموقع الإلكتروني وقصة رمز الاستجابة السريعة المحفورة فوق جبين الضحايا، لا يوجد هدف لها على الإطلاق سوى إدانة السيد هود، لماذا يُقدم على إنشاء موقع من حاسوبه الشخصي يُدينه بهذه الفجاجة؟ مستحيل يا فندم ألا يكون قد راودك الشك في أن هذا الدليل مدسوس بشكل متعمَّد.

كان «درويش» يُمسك بصورة تضم «سنية»، وزوجها وحفيدها وابنتها المتوفاة وزوجها، صورة عائلية دافئة، أو هكذا تبدو.

تركها فوق الطاولة، ثم استدار وتطلع إلى «عمرو» الذي تنحنح ثم استطرد بود:

- أنت لا تصدق أن صديقك قاتل، أنت فقط تحاول أن تقول ما على الشرطي النزيه أن يقوله في مثل هذا الموقف، تحاول أن تكون محايدًا، لكنك لست محايدًا يا فندم، بل تُرجح كفة على الأخرى بإضافة ثقل غير مناسب.

دار «درويش» على عقبيه، ووقف في الشرفة يتطلع إلى الشارع الهادئ؛ كشرطي، عليه أن يعترف أن ثمة ثغرات كثيرة في هذه القصة، كيف تمكن السيد هود من إقناع الضحايا بفتح الباب له، ثم قبول مشروب ما دس المخدر بداخله، أو إجبارهن على شربه؟

الطريقة الوحيدة لدخول عشش الضحايا هي عن طريق الباب، فكيف أقنعهن بفتحه واستضافته وهو رجل غريب عنهن؟

العقار الذي استُخدم لتنويم الضحايا يفقدهن الإرادة، لكن كيف تمكن من السيطرة عليهن لتنفيذ رغباته قبل أن يشربن العقار؟

وثمة تفصيلة أخرى مهمة، إذا كان السيد هود هو القاتل، فلماذا لم يتعرف عليه «تميم» حفيد الضحية الأولى؟ لقد كان في البيت وقت ارتكاب الجريمة، لماذا لم يقل صراحة عندما قابله إن هذا الرجل هو الذي أذى جدته؟

ولماذا يسعى السيد هود لمقابلة «تميم» أكثر من مرة بعد ارتكاب الجريمة، ألم يخشَ أن يتمكن من التعرف عليه؟

كيف يصادف أن يغادر لارا، أو طفلا «مايسة»، البيت وقت ارتكاب الجريمة؟

هذا فضلًا عن شهادة عامل تركيب المصابيح، الذي أقر بأن القاتل طار إلى سطح المبنى ثم اختفى في الظلام، كيف تمكن السيد هود من الطيران؟ وكيف خفف وزنه من ثمانين كيلوجرامًا إلى خمسة وثلاثين؟

والأهم من هذا كله، كيف خرج من مسرح الجريمة الثالثة؟

في الجريمة الأولى والثانية والرابعة كان باب العشة مفتوحًا، لكنه كان مغلقًا من الداخل في الثالثة!

قطع رنين الهاتف حبل أفكاره، استمع إلى الطرف الآخر ثم أجاب في عجالة:

- أرسله على البريد الإلكتروني حالًا.

أنهى المكالمة ثم فتح صندوق بريده الإلكتروني، مترقبًا الرسالة المنتظرة، ما إن دق هاتفه معلنًا وصولها حتى فتحها بحماس بالغ.

طالع ما بها بعناية، ثم استدار عائدًا إلى الصالة، وقف قبالة «عمرو» يتمتم بحماس فائر:

- وصلت نتيجة فحص محتويات معدة الضحايا الأربع.

- هل عثروا على آثار «السكوبولامين»؟

- نعم، لكنه ليس مسحوقًا كما توقعت، بل المحلول المعد للحقن، ولهذا كان تأثيره سريعًا وقويًا.

- هذا رائع يا فندم، هكذا تأكدنا من كون القاتل دس العقار في مشروب أو في طعام الضحايا، لم يحقنهن به ولم ينثر مسحوقه في وجوههن كما حدث من قبل مع بعض الحالات في «كولومبيا».

- ليس هذا فحسب، بفحص محتويات المعدة، وجدوا أن العقار أعطي لـ «سنية» مخلوطًا بالشاي، وكان هذا آخر ما شربته قبل موتها، وفي معدة «جواهر» وجد مخلوطًا بمشروب مكسرات عين الجمل ممزوجًا بالكيوي والحليب لم يهضم بعد، مع بقايا من عشاء من خبز وجبن.

- قالت جارة «جواهر» في إفادتها إنها كانت تعد لنفسها هذا المشروب كل مساء.

- أما في معدة «شيماء» فوُجد ممزوجًا بالقرفة والليمون والزبادي، ولم تحتوِ معدتها على أي شيء سوى ذلك.

- أخبرنا زوجها أنها كانت تتبع حمية غذائية صارمة، حتى أنه اشترى أغراضًا لها قبل التوجه إلى البيت لأجل مصالحتها.

- ووجدت آثار العقار في معدة «مايسة» ممزوجة بالكابتشينو، ولم يكن بمحتويات معدتها مشروب سواها.

أنهى «درويش» سرد المعلومات وتلخيصها ثم استغرقه التفكير، وفجأة، توجه إلى باب العشة، خرج، ثم أغلقه خلفه!

تجمد «عمرو» في مكانه نصف دقيقة، وقد أعجزه تفسير ما يحدث، كما لو أن هناك قطعة ناقصة من المشهد.

توجه صوب الباب يفتحه وعلى وجهه أمارات الدهشة، استحالت الدهشة فزعًا عندما فوجئ بـ «درويش» يُشهر سلاحه في وجهه!

***

(36)

الحدوتة التي بذلت جلدها مرتين

عندما قيل له إن ثمة زائرًا ينتظره، لم يهتم بمعرفة هويته، ترك جسده ينقاد طوعًا صوب مكتب يترأسه أحد الضباط الذين حققوا معه لأيام.

قال الضابط وهو ينهض مغادرًا مكتبه:

- لديكما عشر دقائق فحسب.

ثم تطلع إلى السيد هود، مضيفًا بنبرة أخف حدة مما استخدمها معه خلال التحقيق:

- مع تحيات اللواء «لطفي درويش»، احمد الله أنك تعرف رجلًا مثله.

لم ينصرف انتباه السيد هود إلا للزائر الجالس، وقد أدهشته هويته، اتخذ مقعدًا أمامه دون أن يجرؤ على رفع عينيه في وجهه، إلى أن قال الزائر بنبرته الحانية المألوفة:

- كيف حالك يا «هود»؟

لماذا تجلس «ساري» أمامه متحلية بهذا الهدوء، ولماذا طلبت رؤيته؟

أما كان عليها أن تستبدل بتلك النبرة أخرى غاضبة، أما كان عليها أن تخبره بأنها تتمنى لو يتعفن في السجن، بدلًا من السؤال عن حاله؟

تعاظمت الهواجس التي تطوف بعقله في تلك اللحظة، التزم الصمت نفسه الذي التزم به منذ لقائهما الأخير الصاخب في عشته، عندما وُضعت الأصفاد في رسغيه، واقتيد إلى محبسه، كما يليق بمجرم مثله.

مالت صوبه، تاركة لكلماتها البطيئة الفسحة الكافية لتستقر في تلافيف عقله، أفصحت بنبرة قوية محايدة بآخر ما توقع سماعه:

- أنت لستَ القاتل يا «هود»!

***

تطلع «عمرو» باضطراب إلى السلاح المشهر في وجهه، ازدرد ريقه بصعوبة ثم أردف:

- ماذا تفعل يا «درويش» بك؟ هل أنت...

لم يكمل عبارته، إذ ابتدره «درويش» قائلاً، وهو لا يزال يصوب السلاح نحوه، كما لو كان متأهباً لإطلاق النار عليه في أي لحظة:

- فلنقل إنني المجرم، طرقتُ الباب، ففتحته «سنية» بحسن نية، ووجدت سلاحاً مصوباً إلى وجهها.

تراجع «عمرو» إلى الخلف مع كل خطوة يتقدم فيها «درويش» إلى الداخل، إلى أن أغلق الباب بقدمه، ثم وقف في منتصف الصالة، مسح بنظراته الأرجاء وهو يردف:

- بشكل ما تمكنتُ من إسكات «تميم»، وأمرته بدخول غرفته، ربما أخفته بالسلاح، أو هددته بأنني سأقتل جدته إن صرخ. باقي الضحايا لم يكن حولهن أحد، امرأة تعيش بمفردها، وامرأة سافر زوجها وابنتها الصغيرة، وبنتا الضحية الرابعة غادرتا البيت للذهاب إلى أبيهما.

- هذا معقول جدّاً، لكن ابنة الضحية الأخيرة تسلمت الطرد من عامل التوصيل، في الوقت الذي كانت فيه أمها تعاني آثار شرب المادة المخدرة، أي أن القاتل كان في الشقة نفسها مع الأم والطفلتين، من المؤكد أن الطفلتين رأتا المجرم، فلماذا لم تصرخا؟ لماذا تركتا البيت؟

- سنترك تلك الجزئية إلى أن نأتي لها، ولنركز مع حادثة «سنية»، الآن، آمرك بإعداد المشروب، كي أتمكن من دس المخدر.

- لماذا لا تنثر المادة المسحوقة في وجهي مباشرة؟

- ربما أجهل تلك المعلومة، ربما أظن أن الطريقة الوحيدة لعمل تلك المادة هي بابتلاعها.

- هذا معقول أيضاً. لكن لماذا لم تستخدم مخدراً آخر أكثر سهولة وقوة من الـ «السكوبولامين»؟

- ربما لم أتمكن من الحصول سوى على هذا العقار بالذات.

- هذا معقول أيضاً.

- والآن توجه إلى المطبخ.

كان «درويش» ما زال مشهرًا سلاحه في وجه «عمرو»، ومصوبًا إياه إلى صدغه، يتوجهان معًا صوب المطبخ الضيق، بخطوات متوافقة، وحركات

متسقة، مثل رقصة كلاسيكية بين قاتل ومقتول، جانٍ وضحية.

وقف «عمرو» لوهلة حائرًا فيما عليه أن يصنع، حاول التفكير كما تفكر الضحية، فتح بعض الأدراج، وامتدت يده مباشرة إلى علبة الشاي.

سأله «درويش» بغتة:

- لماذا الشاي؟

- أنا امرأة يصوب رجل سلاحه إلى رأسها، ويأمرها بإعداد مشروب ما، في هذه الحالة لا يوجد أسهل من الشاي.

ثم استطرد:

- هذا ما فعلته «سنية»، أفاد التحليل بالعثور على الشاي في معدتها.

- لكن ليس باقي الضحايا، أعدت «شيماء» الزبادي بالطريقة التي تحبها، واستغرقت «مايسة» وقتًا في إعداد الكابتشينو، أما «جواهر» فأعدت مشروبًا دسمًا من عين الجمل والأفوكادو والحليب.

أعاد «درويش» سلاحه إلى غمده، ووقف بثبات يتساءل:

- هل بربك هذا هو الوقت المناسب لتعد كل امرأة مشروبها المفضل؟ لماذا لم يخترن مشروبًا أسهل مثلما فعلت أنت للتو؟

- ربما أخبرهن القاتل بالمشروب الذي يود من كل منهن إعداده، لم يخترن ذلك بأنفسهن.

- ولماذا يريد من كل ضحية إعداد مشروبها المعتاد؟ لماذا هذا الوقت الثمين الضائع؟

- إذن كانت المشروبات معدة سابقًا، في لحظة دخول القاتل كانت كل ضحية قد انتهت بالفعل من إعداد مشروبها، وضع به العقار، ثم أمرهن بشربه.

- وما هذه الدقة في التوقيت؟ كيف تمكن القاتل من معرفة التوقيت المناسب لدخول كل بيت؟ هذا يستلزم معرفة تفصيلية بضحاياه، معلومات لا يعرفها سوى الضحية ومن يسكن معها.

- كان يا ما كان، فتاة يتيمة الأبوين، تركا لها من المال الكثير، ومن الأقارب القليل، تعاني الاكتئاب، ذلك المرض الذي يحول الحياة إلى عبء، يمنعها من الاستمتاع كما تفعل قريناتها. تتجرع من بئر الوحدة كل يوم رشفات بطيئة

مُرّة، بئر لا تنضب، إلى أن قررت الزواج برجل بسيط ودود، كان جارًا لها، تُشبع به حاجتها إلى الأنس والرفقة، والأمان الذي يشبه العائلة.

أسفرت الزيجة عن ولد جميل أسمته «آدم».

لم يطل الرجل البقاء في حياتها، كان زائرًا خفيفًا، أسلم روحه إلى بارئه بعد عام واحد، فشُيِّدَتْ مع «آدم» الصغير عالمًا دافئا، يسع قلبين خائفين.

غير أن نظرات الرجال لم تدعها وشأنها، تطاردها في كل مكان، شابة وحيدة لا يعوزها الجمال ولا المال، تملك المقومات التي تجعلها مطمعًا ومثار اهتمام.

ولم تكن نظرات جاراتها أفضل حالاً، يسترقن النظر إليها كما لو كانت صيادة متربصة بأزواجهن، تلاحقهم في العشية والإبكار.

ينبذنها عمدًا، يتهامسن من خلف ظهرها، وينسجن عنها الحكايات، يتخذن من سيرتها فاكهة مجلس في شقة إحداهن ساعة العصاري. يلوكن عرضها جهرًا، ويشربن خلفه الشاي والقهوة.

بوجود «آدم»، لم تعد الوحدة تنهشها بشراسة كما في السابق، لكنها لم تغادرها تماماً، كانت تسكن معها في البيت ذاته، تشاركها وسادتها المبللة وساعات لياليها الثقيلة.

وبمرور السنوات، تنامت حاجتها إلى رجل تتكئ على قلبه، يكون لطفلها أبًا، وتخرس به الألسنة الطويلة. فتزوجت للمرة الثانية، زواجًا متعجلًا، لا خطبة سبقته، ولا معرفة دعمته، لم تدم الحياة بينهما أكثر من ستة أشهر، ثم انفصلا بهدوء، وبرضا متبادل عن قرار مشترك.

كان السيد هود طوال فترة حكيها مطرقًا برأسه، ينصت لها في اهتمام لا يتبدى فوق صفحة وجهه، وعندما توقفت عند هذه النقطة من حكايتها، رماها بغضب مكظوم:

- أنتِ و«نسيم» ما زلتما زوجين، عن أي طلاق تتحدثين؟

- تطلقنا قبل شهر، لكننا تأخرنا في توثيق ذلك رسميًا، إلى أن اختُطف «آدم»، فظل «نسيم» إلى جواري حتى أخرج من تلك المحنة.

- أنا لا أعرف ابنك، لم أره من قبل، ولا أعرف أي شيء عما وُجد في حاسوبي المحمول.

- أعرف ذلك.

- اتهمتني بخطفه، قلت إنني أذيته.

- أعرف أنك لم تختطف «آدم» يا «هود»، لم أشك بك قط، عرفتُ منذ البداية أنك ضحية مثلي، لكنني قلتُ هذا لأضغط عليك، لأدفعك لأن تتذكر حادثة أمك.

لم يتمكن من كبح جماح غضبه، فأطلقه مثل أبالسة صغار يتحررون من السلسال:

- لا أفهم شيئًا. ما علاقة خطف ابنك بقتل أمي بالجرائم الحالية؟ في آخر لقاء لنا في عشتي قلتِ إنني مجرم، والآن تقولين إنني بريء، أي «ساري» منهما عليّ أن أصدق؟

- اسمعني وستفهم، وعندما تفهم ستعذر.

أخذت نفسًا عميقًا ثم أردفت:

- أعيش في دمياط الجديدة كما أخبرتك، يسوقني الحنين كل فترة لأمر على رأس البر، أحب تمضية الوقت فيها، وبخاصة في موسم الشتاء، كنت أحاول تنظيم حياتي وأفكاري بعد الانفصال عن «نسيم»، فقررت أن أطلب إجازة من عملي، آه، بالمناسبة أنا مدرسة روضة لهذا أستطيع التعامل جيدًا مع الصغار، أخذتُ الإجازة وقررتُ تمضيتها هنا في رأس البر، كنا في الملاهي عندما اختُطف «آدم».

- متى حدث ذلك؟

- قبل أسبوعين تقريبًا.

- ولماذا لم تتقدمي ببلاغ وقتها.

- لأنني تلقيت رسالة من الخاطف يهددني بأنني لن أرى «آدم» مرة أخرى إن لجأتُ إلى الشرطة، إما أنه كان يترصدني ويعرف رقم هاتفي، وإما أنه أخذه من «آدم»، لكنني أرجح الثانية، «آدم» يحفظ رقمي جيدًا،

أمليه عليه يوميًا، ابتعدتُ عنه ثلاث دقائق فحسب لأشتري له المثلجات، تركته في الأرجوحة وحده، هذا خطأ قاتل من أم، أعرف، لا حاجة إلى أن تعنفني، أنا أقوم بالمهمة على أكمل وجه.

ارتجف جسدها برعدة ظاهرة، استجلبت عطفه وشفقته، ودفعته لأن يقول بحنوٍ بالغ:

- الأخطاء تحدث.

- ليس خطأً قاتلًا كهذا، المهم، فلنعد إلى حكايتنا، عندما عدتُ ولم أجده في الأرجوحة بحثتُ عنه في كل مكان، وما إن أخرجتُ هاتفي لأتصل بالشرطة حتى وردني اتصال من المجرم، يهددني كما أخبرتك.

أطرقت برأسها تقول بنبرة تعزف على أوتار الألم:

- جعلت «آدم» يحفظ رقمي حتى يتواصل معي في حالات الخطر، لو لم أفعل ذلك، لو لم يكن يحفظه، لفقد المجرم وسيلة التواصل، ولتركه وشأنه.

- أو ربما فعل به ما هو أسوأ، لا تلومي نفسك.

رفعت نحوه عينين دامعتين ممتنتين، تنحنحت ثم أردفت:

- المهم أنني اضطررتُ إلى تنفيذ أوامره، وعدني بإرجاع «آدم» سليمًا إن أطعته، عندئذ اتصلت بـ «نسيم» وطلبت منه أن يبقى بجواري، أرادني أن أبلغ الشرطة لكنني لم أستطع، خفتُ على ابني كثيرًا يا «هود»؛ إنه كل ما أملك.

- لكننا حددنا سمات القاتل ودوافعه على أنه حامٍ للأطفال ومنقذ لهم، فلماذا يؤذي «آدم» بحسبه داخل القفص؟

- ظل «آدم» طوال الوقت في غرفة ممتلئة بالألعاب، لم يضعه داخل القفص إلا في اللحظة الأخيرة، إذ كان يراقب كل ما يحدث داخل عشتك عبر كاميرا حاسوبك ما إن فتحه الخبير التقني، خلاف ذلك، هل تظن أن القاتل يملك منظومة أخلاقية سوية ومنطقية؟ الدبة لم تقتل صاحبها بُغضًا بل حبًا، هؤلاء المجرمون مرضى ينسجون لأنفسهم منظومات أخلاقية مشوهة، ويرون أنفسهم أناسًا صالحين ومنقذين مهما فعلوا نقيض ذلك، بالعكس، لو ظل محافظًا على منطقية منظومته لاندهشتُ.

- ماذا أراد منك هذا الرجل؟

- يبدو أنه أراد معاقبتي على تركي لـ «آدم» بمفرده في الأرجوحة، كنتُ أما سيئة في نظره، لذلك أعطاني مهمة صعبة.

- التقرب مني، أليس كذلك؟

احتقن وجهها خجلًا، قالت باضطراب:

- ماذا ستفعل إن كنت مكاني؟ كنتُ مضطرة، لم أفهم في البداية بالطبع لماذا يريد مني أن أتقرب منك، كل ما أراده هو أن أجذب انتباهك بشكل يكفي لتثق بي، وتبوح لي بسرّ ما، لكنك كنت الحبل الوحيد الذي امتد لي لإنقاذ ابني، فالخاطف يعرفك، إنك على صلة به بشكل ما، وهذا ما حمسني أكثر لتنفيذ المهمة، كنت يائسة جدًا يا «هود»، عليك أن تفهم ذلك، ظننتُ أن المهمة بسيطة، إلى أن حدثت أول جريمة قتل، وقتها أدركتُ أن هذا الرجل ليس مجرد خاطف فحسب، بل هو قاتل حقير، أرادني أن أعمل كجاسوسة لأعرف ما يحدث في القضية، وآخر ما توصلت إليه الشرطة، ثم أمرر له هذه المعلومات.

- كيف؟

- أكتبها في رسالة ورقية، وأتركها بالقرب من صخور اللسان، ثم أرحل سريعًا.

- بإمكان الشرطة رصد مكانه من خلال رقمه.

- هل تظن أنني لم أخبر صديقك النقيب بذلك؟ أنا قادمة الآن من مكتبه، بعدما أخبرته كل ما أعرفه في محضر رسمي، الرقم الذي حدثني منه كان من هاتف مبلّغ عن سرقته، لم يتواصل معي هاتفيًا إلا مرة واحدة، وصار تواصلنا بعد ذلك من خلال الخطابات المدسوسة أسفل صخور اللسان.

- ألم تريه ولا مرة؟

- فكرت أن أنتظره في مكان قريب من اللسان وأراقبه متخفية، لكنني لم أجرؤ على جر هذه الفكرة حيز التنفيذ، خفتُ إن خالفت تعليماته أن يؤذي «آدم»، قد أبدو لك امرأة قوية، لكنني هشة جدًا إذا ما مس الخطر ابني الوحيد.

- ألم تميزي صوته؟ ألا تستطيعين تخمين جنسه، عمره، سلوكه؟

- استخدم برنامج تغيير الأصوات، لقد احتاط كثيرًا وفكر في كل التفاصيل.

- من الذي اقترح فكرة تمثيلية القتل من وراء الستارة الشفافة؟

- أخبرني عن حادثة أمك، وأمرني باستغلالها في خدعة، فكرتُ كثيرًا مع «نسيم» ثم توصلنا إلى هذه الفكرة، أن يتظاهر بقتلي من خلف الستارة الشفافة، ظننا أنها ستجذب انتباهك لي، وستحثك على الاقتراب مني لمساعدتي لأنها ستذكرك بحادثة أمك، وفي الوقت نفسه، تمنحني ثقتك.

أفصح بمرارة:

- نجحتِ في كليهما، تستحقين الأوسكار عن جدارة.

- أنا آسفة حقًا.

- هذا يعني أن وجودك في العشة المقابلة لي لم يكن صدفة، هل وجودي أيضًا في رأس البر ليس بصدفة؟

- نعم، كما خمنتَ، المسابقة كلها كانت طُعمًا لاصطيادك.

- هل أراد منك تمرير المعلومات فحسب؟

- هذا ما ظننته، حتى ليلة القبض عليك، أدرك وقتها أنه كان يتأكد من ابتعادك عن العشة ليدس لك تلك الأدلة الزائفة أسفل فراشك، لا بُد أنه في مرحلة ما اخترق حاسوبك، ربما عندما ضغطت على رابط المسابقة لاستلام تفاصيل الجائزة. أراد منذ البداية الإيقاع بك. كان هذا هدفه، هذا الرجل يحقد عليك كثيرًا ولا أفهم السبب.

- ساعدتِ قاتلًا متسلسلًا، ألم تدركي أن هذا سيجعلك شريكة له في جرائمه؟

- ما كنتُ أستطيع المخاطرة بحياة «آدم»، أنا أم يا «هود»، لأجل ابني أفعل كل شيء، كل شيء.

تساءل السيد هود بشك محبطًا:

- لكن الحلم، لقد رأيتُ «آدم» في حلمي داخل قفص، كيف تمكن هذا الرجل من قراءة أفكاري يا «ساري»؟ كيف تتأكدين من براءتي إذا كنتُ أنا نفسي أشك في نفسي؟

أخرجت من حقيبتها هاتفها النقال، فتحت صفحته الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي، ثم قالت مؤكدة بحماس:

- هذا ما شغلني أيضًا، لذلك خطرت لي فكرة، ساعدني صديقك على معرفة حسابك هذا، تتبعتُ تعليقاتك ومنشوراتك في كل المجموعات التي تشترك بها، لقد كتبتَ بنفسك هذا المنشور منذ فترة، في مجموعة مخصصة لتأويل الأحلام، تتساءل فيه عن تفسير هذا الكابوس المتكرر، القاتل كان يتابعك، عرف بحلمك، وأدرك مخاوفك، انظر، أنت هناك تتساءل في مجموعة للدعم النفسي عن طريقة للتخلص من خوفك المرضي من اللون الأصفر، لقد استغل ذلك ودس اللعبة الصفراء فوق سطح مبنى الضحية الثالثة، كل

معلومة شخصية بحتَ بها على الإنترنت وظننتَ أنها لن تضرك، استغلها المجرم لصالحه، جعلك تشك في نفسك، جعلك تصدق حقًا أنك مجرم.

أدرك أنه منح للقاتل بنفسه ثغرة لينفذ عبرها، ليؤذيه، لقد ساعده في خطته، دون أن يدري أنه فعل.

- ما زلتُ لا أفهم، لماذا في لقائنا الأخير قسوتِ عليّ، وبذلتِ جهدك لجعلي أتذكر الحادثة القديمة؟

- لأنني أثق ثقة عمياء أن قاتل أمك هو نفسه الرجل الذي اختطف «آدم» وارتكب كل هذه الجرائم.

- أنا قاتل أمي يا «ساري». هذا هو الشيء الوحيد الذي لا تستطيعين تبرئتي منه.

لانت قسماتها كثيرًا، تهادت نظراتها وكأنها تهدهده، قالت:

- أنت لم تقتل أمك يا «هود».

- لا تعرفينني، أنا... أتذكر مشاهد متفرقة. أنا... أظنني حقًا قتلتها.

- أنت لا تستطيع قتلها. كنت طفلًا صغيرًا بريئًا.

- أطفال في هذا العمر ارتكبوا جرائمهم الأولى.

- كانت تبدو عليهم أعراض الاعتلال الاجتماعي، لكن لم ينتبه إليهم أحد، أو لم يهتم أحد بشكل كاف لتقويم سلوكهم الشاذ، أنت مختلف، مجرد طفل صغير فقد أباه ويعاني مع أم مضطربة.

التمعت عينه بعبرات حارقة، تركها تحرق وجنته، وقد ارتعدت نبرته:

- تمنيتُ موتها. أردته حقًا. صرخت بذلك في وجهها في شجارنا الأخير يوم موتها، كانت عبئًا ثقيلًا على ظهري.

- كلنا غضبنا من أمهاتنا، وتمنينا في لحظة غضبٍ أن يختفين إلى الأبد. لكن سرعان ما نندم على هذا الشعور، وندرك أن أحدًا في هذا العالم لن يحبنا مثل الأم. مهما قست، مهما أخطأت، كثيرًا ما يكون هذا بدافع الحب.

- لماذا إذن شعور الندم الذي لازمني طوال عمري؟

- شعرت بالندم لأنها ماتت وأنت غاضب منها، بعد شجار عاصف بينكما تفوهت خلاله بكلمات قاسية، كنت تتمنى فحسب التخفف من الحمل الثقيل

الذي وُضع فوق ظهرك. أنت لم تقتل أحدًا. أنت لست قاتلًا يا «هود»، لن تنجح في إقناعي بغير ذلك.

الثقة التي تتحدث بها مُعدية، انتقلت له بدوره، رأى انعكاس وجهه في مقلتيها، بريئًا، وصافيًا، كان بحاجة إلى من يؤكد براءته، محب له يؤمن أنه رجل صالح، رغم كل ما يدور بداخله من نوازع إجرامية ورغبات شاذة.

رغبات لم يأخذها يومًا إلى حيز التنفيذ، ولن يفعل.

شعر بنشوة تنبعث من قلبه وتغمر بدنه، تهدج صوته، وتلاحقت أنفاسه وهو يدلي باعتراف صارخ، مخرجًا الجني من القمقم الذي احتبس بداخله طويلًا:

- لا أريد أن أفقدك يا «ساري».

فابتسمت ست الحسن والجمال في وجه الشاطر «هود».

ولم يبقَ على انتهاء الحدوتة، سوى القضاء على «أمنا الغولة».

***

(37)

ضربة من مأمن

مضى استجواب الخفير بشكل مثير للأعصاب، أعصاب «درويش» على وجه الخصوص، بعدما أفضت له «ساري» بكل شيء.

أنكر الخفير ذو الجلباب الرمادي معرفته بالقاتل، وأقسم بأيمان مغلظة إن كل ما يعرفه أن ثمة رجلًا تواصل معه هاتفيًا، لكونه يعمل سمسارًا للمنطقة بالإضافة لمهمة الحراسة، وطلب منه تخصيص وحدتين سكنيتين متقابلتين لعدة أسبوعين كجائزة لمسابقة تمت على الإنترنت.

واقتصر دوره على تسليم المفتاحين للسيد هود والأستاذ «نسيم»، وتلقى المقابل مودعًا داخل ظرف أُرسل إلى بيته مع عامل توصيل، وجاري البحث عنه.

- ألم تدس الدماء أسفل فراش السيد هود؟

- يا نهار مدوحس، لا أعرف شيئًا عن هذا، لم أفعل أكثر مما قلته، دم؟ يا نهار مدوحس.

- ألم تَرَ القاتل وهو يدخل عشة السيد هود؟

- أنا لستُ خبيرًا وسمسارًا لهذه المنطقة فحسب، أتنقل بين عدة مناطق أخرى، إلهي تُفقع عيني إن كنتُ رأيتُ شيئًا.

- كيف تؤجر وحدتين من دون عقود يا حيوان؟

- خطأ يا باشا، خطأ أسود ومهبب ولن يتكرر، إلهي تُفقأ عيني إن كررتها مرة أخرى.

أمر «درويش» بحبسه على ذمة التحقيق، بعدما ثار في وجهه ثورة شعر الرجل خلالها أنه سيفقع له عينًا بنفسه.

وهكذا انتهى استجواب الخفير إلى طريق آخر مسدود.

***

ظل اللواء «لطفي درويش» في مكتبه لوقت متأخر، غارقًا في أفكاره القاتمة، عندما وجد «درويش» أمامه، في أقصى حالاته اضطرابًا، يضع تقريرًا فوق المكتب.

بينما التقطه اللواء وطالعه، أردف ابنه منفعلاً:

- حصلتُ على دليل براءة «هود» يا أبي.

- عن أي دليل تتحدث؟

- أجرى المعمل الجنائي تحليلاً لمطابقة الشعرة التي عثرنا عليها في مسرح الجريمة الرابعة، بالحمض النووي الخاص بـ «هود»، النتيجة: تطابق 0%. لا يمكن لـ «هود» أن يكون القاتل.

- كنت واثقًا من ذلك، الحمد لله.

- ليس هذا فحسب، لقد عثرتُ أخيرًا على تطابق.

اتسعت عينا اللواء دهشة ثم سأل بلهفة:

- مع من؟ من هو المجرم؟

- طلبت بشكل غير رسمي عمل تحليل للشعرتين ومقارنتهما، الشعرة القديمة التي عثرت عليها ليلة مقتل أم «هود»، أخذتها من «عمرو» أرجو ألا تغضب لذلك، وتلك الشعرة التي وجدناها بجوار الضحية الرابعة. إنهما متطابقتان يا أبي. متطابقتان تمامًا!

خفق قلبه بقوة، وهو ينقل نظره بين التقرير وابنه الذي أردف مبتهجًا:

- لا يمكن لـ «هود» أن يكون القاتل في الجرائم الحالية، لأن القاتل هو المجرم نفسه الذي قتل أمه.

حرك ذراعيه في الهواء من فرط حماسته وهو يؤكد:

- «هود» عندئذ كان مجرد طفل في السابعة، لن توجه النيابة تهمة القتل العمد لطفل في هذا العمر من دون دلائل دامغة وهذا لا وجود له، قوة

وعمق الطعنات التي ماتت بها أمه لا يمكن أن يقوم بها طفل، هذه الشعرة القديمة هي دليل براءته، من جرائم الماضي والحاضر معًا.

لحظة ظن اللواء أن العالم توقف عن الدوران، يا لها من لحظة مهيبة انتظرها طويلاً، العثور على القاتل الأثيم، الذي أرق مضجعه، وبسببه اتهم

بريئًا من غير ذنب، دفع بدلاً منه الثمن.

غير أن أمرًا واحدًا ثبط عزيمته.

غامت الدنيا أمام ناظريه، وتوسده القلق، وحط فوق جبينه الغم والسخط.

الشعرة القديمة التي تثبت براءة «هود»، التي تربط القاتل الحالي بالجريمة القديمة، لا يمكن استخدامها كدليل يُعتد به، إذ إنها غير مدرجة رسميًا وسط أحراز القضية!

ها هو الذنب القديم يلتف حول عنقه مثل مشنقة، رافضًا أن يتركه.

ماذا عليه أن يفعل أكثر مما يفعل كي يكفر عن هذا الخطأ؟ ألا يكفي أنه ندم وأناب واعترف؟

أليس كافيًا أنه حاول تعويض «القرداتي» عن بعض مما فقد؟

يبدو أن كل ما فعله ليس كافيًا، تمتم لنفسه: القدر يدفعك يا «لطفي» للاعتراف علانية!

تهدلت كتفه، وشاخت نظرته، حتى أضحت هزيلة مسلوبة القوة، ها هو أمام اختبار جديد للنزاهة: هل يترك مسار القضية على حاله، أم يسعى لإنقاذ السيد هود ويعترف بالسر خاسرًا سمعته؟

يا له من اختبار عصيب، حتى على أشد الناس استقامة.

استدار بمقعده وتطلع إلى القمر البازغ في السماء، يبثه عجزه وحيرته.

***

كل شيء يُباع ويُشترى عبر الإنترنت!

عندما لم تتوصل تحريات «درويش» في محلات الأحذية إلى معلومة تفيده، فكر في اللجوء إلى السوق الحرة التي يتخفى فيها البائع والمشتري: الإنترنت.

استعان بالخبير التقني، وبحث عن عملية بيع حديثة لحذاء له طبعات الماعز، ولحسن حظه، لم يجد سوى اثنين من المروجين، ومشترٍ واحد.

تمكن الخبير من تحديد موقع الجهاز المستخدم في إتمام الطلب، وتوجه من فوره بصحبة «عمرو» إلى الموقع الذي لم يكن سوى المدرسة الرئيسية

برأس البر!

عرف «درويش» أنه سيعود إلى هذا المكان آجلاً أم عاجلاً.

قابله «عمرو» أمام بوابة المدرسة قائلاً بحماس:

- هذا مكان عمل الضحية «مايسة منصور»، مدرسة اللغة العربية يا «درويش» بك.

- طفلتاها أيضًا مقيدتان في هذه المدرسة، ولا ننسى أن «تميم» و«لارا» مقيدان هنا كذلك.

لقد بات قريبًا من العثور على المجرم، دفعه هذا الشعور لأن يتحلى بروح إيجابية، أول من استقبله هو البواب كما حدث في المرة الماضية، وهذه المرة تعاظم توتر الرجل ما إن وقع نظره على «درويش»، كأنه رأى ملك الموت ذاته.

- أين مديرة المدرسة؟

- في مكتبها يا باشا، هل تريدني أن أخبرها أن سيادتك تريدها؟

رفع «درويش» كفه في وجه البواب المضطرب، ومضى برفقة «عمرو» إلى مكتب المديرة، استقبلتهما متوجسة، تشير إلى المقعدين المقابلين لمكتبها ليجلسا.

- تمت عملية شراء من أحد حواسيب المدرسة قبل شهرين تقريبًا.

- نشتري الكثير من الأغراض عبر الإنترنت يا فندم، عن أي غرض تتحدث؟

- حذاء له طبعات أقدام ماعز.

- نعم، كان لدينا حفل لأطفال الروضة، استخدم العاملون في المدرسة ملابس الحيوانات وأحذيتها، اشترينا بعضها عن طريق الإنترنت.

- وأين هذا الحذاء الآن؟

- في المخزن كما أظن.

- هل لي برؤيته؟

- هل حدث شيء يجب أن أعرفه؟

- أريد أن أراه فحسب.

أجاب «درويش» بنبرة جامدة، فاستجابت المديرة مرغمة، طلبت من إحدى العاملات إحضار الحذاء من المخزن.

ضرب القلق بسوطه فوق صدر المديرة عندما أُبلِغت بعد نصف ساعة من البحث أن الحذاء مختفٍ، لا أثر له على الإطلاق، ولم يره أحد من بعد الحفل.

قالت لـ «درويش» محاولة تخفيف وطأة الموقف:

- الحقيقة، الأغراض المستخدمة في الحفلات ليست قيمة لنودعها داخل خزينة أو نراقبها باستمرار، لا أعرف حتى متى فُقد.

- هل يوجد كاميرات في المخزن؟

- لا بالطبع، ليس مكانًا يستدعي المراقبة.

على العكس منها، لم ينزعج «درويش» مما سمع، إذ تأكد له أن للقاتل علاقة وثيقة بالمدرسة، يعرف بعدم وجود كاميرات في المخزن، فسهل عليه سرقته.

فضلاً عن عمل الضحية الرابعة بها، وتقييد أربعة أطفال في القضية، فها هو الحذاء أيضًا يرتبط بالمدرسة ارتباطًا وثيقًا.

لا يمكن لهذا كله أن يكون مصادفة.

- ما اسم العامل الذي انتعل هذا الحذاء في الحفل؟

- معذرة يا فندم، سأحتاج إلى الرجوع إلى الفيديو الذي صُوّر في الكواليس لأتأكد.

قالت ذلك ثم وقفت أمام مكتبها تضرب بأصابعها فوق أزرار الحاسوب، لم يمضِ الكثير حتى هتفت مؤكدة:

- إنها أستاذة «سهام»، مدرسة اللغة الإنجليزية.

- «سهام الوزير»؟

- بشحمها ولحمها!

غاص قلب «درويش» في صدره، لقد أتته الضربة من حيث لم يحتسب.

(38)

حلم طفل ونزيف امرأة

لم تتوقف عن البكاء، تخلع عويناتها بين حين وآخر، تضعها فوق الطاولة القصيرة أمامها، تمسح وجهها بمنديل مبلل برائحة الياسمين، ثم تعود لترتديها مرة أخرى.

راقب «درويش» عينيها الخضراوين من خلف عدستين تلتهمان نصف وجهها، منصتًا إلى نهنهاتها، التي تتخللها كلمات لها مخالب وأنياب:

- قلتُ لك إن هذا العالم ليس عادلاً، ها أنا أجلس فوق مقعد الاتهام مثل أي مجرم حقير، بينما قاتل النساء يجوب الطرقات في مأمن.

لا تساوره الشكوك بشأنها، لا يحسب أنها قادرة على ارتكاب هذه الجرائم المروعة، لكن مخالب الشك التي لا تهدأ، خمشت صدره بقوة.

- لم يقل أحد إنكِ متهمة.

- وجودي هنا معناه أن الشكوك تثار حولي، ولماذا؟ لأنني جرؤت على الإشارة بإصبعي صوب الخطأ وفقأت له عينًا، لو لم أنتبه للكدمات في جسد «لارا»، لو التزمتُ الصمت مثل الجميع، لو لم أُبلّغ، لما رأيتُ وجهك مرة أخرى.

لاحت ابتسامة خفيفة فوق شفتيه وهو يقول:

- هل تزعجك رؤية وجهي لهذه الدرجة؟

- تعرف ما أعنيه.

- لستِ متهمة بشيء يا «سهام»، أريد فقط أن أوجه لكِ بضعة أسئلة بخصوص الحذاء الذي انتعلتِه في الحفل الخاص بصفوف الروضة.

- ما شأني بالحذاء؟ أنا معلمة لغة إنجليزية، لا إسكافية.

- الحذاء اختفى.

- وهل أخبرك أحد أنني أمينة مخازن أحذية الكوكب؟

افتر ثغره عن ابتسامة أخرى، وأراها سريعًا خلف سؤاله:

- أين اختفى في ظنك؟

- وما أدراني؟ كل ما أعرفه أنني وضعته في المخزن بعد انتهاء الحفل.

- ألم يثر أحدهم شكوكك خلال الحفل؟

- باستثناء نظرات البواب الوقحة، وشُرب أستاذة «عنايات» معلمة الموسيقى لنصف لتر من العصير المعد للأطفال، وسرقة أستاذ «منصور» للحلوى وملء جيوبه بها خلسة، لم أرَ ما يسوء.

- القاتل يهاجم الأمهات السيئات في نظره، يعاقبهن مثلما تعاقب «أمنا الغولة» الأطفال المشاغبين في الحدوتة التي نعرفها جميعًا، القاتل شخص ذكي يحترم منظومته القيمية الخاصة ولا يقبل المساس بها.

- مثلي. أهذا ما تريد قوله؟

ألصق ظهره بمقعده، أراح ذقنه فوق قبضته ثم سأل:

- أخبرتني ببغضك للنساء اللاتي لا يُدركن قيمة ما رُزقن به من نعمة الأمومة، فيُسئن استخدامها.

- هل تقتل كل من تبغضه؟

- أنا الضابط، وأنتِ من تخضعين للتحقيق، يعني أنا أوجه الأسئلة، وأنتِ تجيبين.

- جيم جواب: أنا لا أقتل كل من أبغضه، أساسًا لو فعلتُ ذلك لما بقي في محيطي أحد، ولكان أول ضحاياي عم «إدريس» بائع الحليب.

- ماذا فعل عم «إدريس» ليثير استياءك هكذا؟

- يطلق صفيرًا طويلًا كلما رآني.

- رجل عنده نظر. ألا يوجد شخص واحد في محيطك يثير إعجابك؟

- الاحترام أهم من الإعجاب، عامة إذا وجدته ستكون أول من يعلم.

- حسنًا يا «سهام»، سؤال أخير من فضلك.

قال ذلك ثم قرب منها ورقة مدون بها أربعة مقاطع للحدوتة التي حفرها القاتل فوق نصل الخناجر الخشبية، وسألها إن كانت جزءًا من برنامج الحفلة.

قرأتها بتمعن، ثم هزت رأسها نافية، مقرة بعدم معرفتها.

استعاد «درويش» الورقة بمشاعر محبطة تبدت بوضوح فوق قسماته، وفي نظراته الحائرة.

اعتذر منها ثم أتبع ذلك بقوله:

- أنا أقوم بعملي فحسب.

لم يبدُ عليها أنها تولي اهتمامًا بتبريراته، كانت محتدة بشدة، رفعت رأسها تقول بإباء:

- هل تسمح لي بالمغادرة الآن؟

- بالطبع، تفضلي.

لكن الأمور لم تستقم كما أريد لها، في الرواق، استوقفها الضابط المسؤول عن التحقيق، كال لـ «درويش» بعض عبارات معنفة لدس أنفه في تحقيق يخصه، أتبع ذلك بقوله:

- لا يمكنها الرحيل.

أدرك «درويش» أن شكوك زميله مثارة حولها، إن لم تكن جانية، فبصفتها شريكة للجاني، حتمًا سيطلب التحفظ عليها.

راقبها إلى أن دخلت المكتب المجاور له، ترمي صوبه نظرات مذعورة من فوق كتفها، مستنجدة به.

السيد هود في الحبس، وها هي «سهام» تنضم إليه، بينما هو يراقب ما يحدث لهما عاجزًا عن مد يد العون.

ضربه العجز في مقتل.

وقف مراقبًا ما يحدث من غير حول ولا قوة.

***

أجرى «درويش» مكالمة عاجلة مع الخبير السيبراني، أوضح فيها هذا الأخير أن ما عُثر عليه في حاسوب السيد هود يدينه في أي محكمة، ولا شيء يمكنه تبرئته.

لا يمكن إثبات أن الأدلة زُرعت في عشه.

حتى الشعرة التي وُجدت في يد الضحية الرابعة ولا تتطابق معه، لا يمكن لهذا أن يبرئه، إذ تظن النيابة أن السيد هود بخبرته الكبيرة في العمل كمصور جنائي والوجود في مسارح الجرائم خلال عمله، تعلَّم ضرورة زرع دليل ينفي عنه التهمة، أو ربما سقطت من زائر آخر للعشة لا علاقة له بالجريمة.

لا شيء يبرئ السيد هود سوى الشعرة القديمة اللعينة!

رَبْط الشعرتين معًا هو دليل براءته الوحيد.

نفث دخان سيجارته في عصبية مفرطة، وقد استغلق تفكيره على سؤال واحد منذ أن كان في عشة «سنية»: كيف تمكن القاتل من مراقبة ضحاياه ومعرفة عاداتهن بهذه الدقة؟

لا يمكن للعين البشرية اختراق الجُدُر، ويستحيل رصد أهل بيت من الداخل دون أن يلحظوا ذلك.

هل الحل يكمن في حدوتة «أمنا الغولة» حقًّا؟

حاول التفكير من هذه الزاوية، وسبر مسار الحدوتة التي يعرفها، «أمنا الغولة» تتنكر ذات يوم في رداء الأم، وتطرق باب البيت مقلدة صوتها، يشعر الأطفال بالأمان عند سماع صوت أمهم، ويفتحون الباب رغم تحذيراتها السابقة.

تختطفهم «أمنا الغولة» وتنفيهم في كوخها المعزول في وسط الغابة.

«أمنا الغولة» تعرف متى يشاغب الطفل ومتى يُحسن الأدب، لها عين في كل مكان، وعند كل زاوية، فكيف يكون للقاتل عين في كل بيت مثلها؟

أمسك «درويش» بدفتره، ودوَّن بداخل إحدى صفحاته الحدوتة المجزأة فوق الخناجر الأربعة.

«كان يا ما كان، حولنا في كل مكان، ظلال تُرَاقب وعيون لا تنام».

«في زمن سُمِّي بالعتيق، كانت عيون الليل تطيل التحديق».

«أخبرني الشر الذي لا يكذب، أن في كل بيت ظلًّا، وفي كل ظل سرًّا، وفي بطون الأسرار تعيش القَتَلة، إنها أنا أمكم الغولة».

«كل حدوتة تبدأ بكذبة، وتنتهي بفكرة، إلا أمنا الغولة، تبدأ بحُلم، وتنتهي بخدعة، توتة توتة، خلصت الحدوتة».

ماذا قصد القاتل بـ «في كل بيت ظل»؟

هل يرمي إلى أن في كل بيت نقطة عمياء يعجز أصحابها عن حمايتها؟

نقطة ينفذ عبرها الشر رغم النوافذ المغلقة والأبواب المصفحة؟

في كل بيت ثغرة، وهذه الثغرة هي عين القاتل التي نفذ جرائمه عبرها، عين مجازية غير حقيقية.

أعاد قراءة الحدوتة، انتبه إلى تكرار كلمة «عيون» فتأكد حدسه، وتأججت حماسته.

توقف عند كلمات بعينها ووضع خطاً تحتها: «عيون لا تنام»، «عيون الليل»، «ظل»، «سر»، «خدعة»!

استوقفته الكلمة الأخيرة، كانت خدعة المجرم متقنة في نصب شباكه حول السيد هود.

لماذا اختار السيد هود بالذات ليكون كبش فداء له؟

بمن يذكّره؟ بنفسه؟ بشخص يبغضه؟

عيون، وظل، وسر، وخدعة.

ثمة ثغرة أمنية في بيوت الضحايا تجمع تلك الكلمات الأربع، تتحين اللحظة المناسبة للانقضاض، مثل شبكة بين يدي صياد!

يراقبهم الجاني من خلالها لينفذ جريمته الكاملة.

في كل بيت عين غريبة متلصصة، تضعنا في حالة مراقبة مستمرة، تقوّض شعورنا بالأمان، وتجعل الشر جزءاً من كل مكان، من كل شارع، ومن كل بيت.

الجريمة مجرد حدوتة في نظر الجاني، تبدأ بحلم طفل، وتنتهي بنزيف امرأة.

عند هذه النقطة اتسعت عينا «درويش» ولمعت ببريق الفكرة.

- هل من الممكن أن...

(39)

الثغرة التي يتسلل الشر عبرها

استضاء «درويش» بفكره، وتبعها مثل فراشة تسير حثيثًا صوب بقعة الضوء الوحيدة التي تبدت وسط العتمة.

مر أولاً على زوج الضحية الأولى، «سنية»، كان لقاءً ثقيلاً على الطرفين، لكن ما باليد حيلة.

- أعرف أنك منزعج، لكن تأكد أن الهدف الوحيد الذي أسعى له هو إلقاء القبض على قاتل زوجتك.

لانت قسمات الرجل قليلاً، مسح برؤوس أنامله فوق كدمة سببها له هذا الواقف قبالته، ثم تساءل:

- ماذا تريد أن تعرف؟

- هل يعرف «تميم» كيف يستخدم الهواتف النقالة؟

أثار السؤال استهجان الجد الذي سأل مستنكرًا:

- وهل يوجد طفل في هذا الزمن لا يعرف؟

- هل عادة يستخدم هاتفك أم هاتف جدته رحمها الله؟

- غالبًا هاتفها، لأنني أكون في المطعم معظم الوقت.

- هل لي برؤيته؟

- «تميم»؟

- لا، هاتف زوجتك.

رغم الدهشة التي تسورت مقلتيه، ترك الباب مواربًا وذهب لإحضار الهاتف، الذي سبق وتفحصته الشرطة بعد الحادثة، ولم يعثروا فيه على شيء ذي جدوى، فلماذا يريده هذا الضابط مرة أخرى؟

تعرف «درويش» على هاتف «سنية» النقال، الذي فحص بعناية من قبل بحثًا عن آخر المكالمات والرسائل المتلقية والمرسلة.

هذه المرة، نقر بسبابته فوق الشاشة بحثًا عن شيء آخر.

وعندما استوقفه هذا الشيء، رفع الشاشة في وجه الجد ثم سأله متلهفًا:

- ما هذا؟

- تطبيق للأطفال، يحبه «تميم» كثيرًا ويستمع إليه كل يوم قبل النوم، ما به؟

- سنعرف الآن ما به.

تضمنت واجهة التطبيق شخصيات كرتونية لطيفة، وألوانًا مبهجة جاذبة لأعين الأطفال.

احتقن وجهه عندما مرر نظراته فوق قائمة محتويات التطبيق ليتوقف عند كلمة: «حواديت»!

وما إن ضغط على الكلمة حتى ظهرت قائمة بالعناوين، الأرنب الشقي والفراشة اللعوب، الجميلة وحاصد الأرواح، المجرمون السبعة... واسم آخر أصابه بالفزع.

- هل يستمع «تميم» إلى هذه الحدوتة؟

- بصراحة لا أعرف، ربما كانت زوجتي تعرف، لكنه يحب الحواديت كثيرًا، شأنه شأن أي طفل آخر.

ما إن ضغط على الاسم المعلوم حتى انسابت موسيقى صاخبة، نغمات حماسية تتعالى وتختفي، ثم تعود لتتعالى وتختفي، كأن الصوت أصابه عطب متكرر، ترافق ظهور شبح عجوز ترتدي الأسود، لها أقدام ماعز، وتعرّف نفسها بـ «أمنا الغولة»!

أجرى «درويش» اتصالاً عاجلاً، وأمر «عمرو» بالتقصي فورًا، فعثر هذا الأخير على التطبيق نفسه في هاتف زوج الضحية الثالثة، والبنت الكبرى للضحية الرابعة، وهاتف ابنة جارة الضحية الثانية.

لم يعد لديه أدنى شك في أن الأطفال، دون علمهم، كانوا الثغرة التي نفذ منها الشر إلى بيوتهم!

***

ما إن تفحص الخبير التقني الهواتف الأربعة حتى عاجله مؤكدًا:

- «درويش» بك، جميع هذه الهواتف لمشتركين عاديين، إلا هاتف واحد يحمل لوحة التحكم كاملة للتطبيق وصلاحيات لا حصر لها، أي أن صاحب هذا الهاتف هو المنشئ للتطبيق.

ما إن مد إليه التقني يده التي تحمل هاتفًا بغطاء أسود قاتم يحمل ملصقات متفرقة لجماجم معلقة داخل مشنقة، حتى عرف صاحبته على الفور!

***

(40)

باركنسون

وقف أمام الجدار الداخلي للحجز، يتأمل ما خطته يداه بالطبشور، مقسمًا الجدار إلى خمسة أقسام، الضحايا الأربع، وأمه.

نفث نيران صدره المحتشدة، التي لم تفلح برودة الجو في إطفائها، ثمة جمرة مشتعلة بداخله، تغذي الاحتقان المتسرب إلى أطرافه المتوترة، وقسماته المحتقنة، ونظراته العكرة.

الرجل الذي أزهق تلك الأرواح الخمسة، هو قاتل واحد، أصبح واثقًا من ذلك.

عليه فقط أن يكتشف كيف نفذ القاتل جرائمه، وتمكن من إخضاع ضحاياه، فلا تطلق إحداهن صرخة قبل أن يدس جرعة عالية من العقار الذي يسلب الإرادة في مشروبها؟

هل الطفلة «شمس» هي القاتلة؟

لا يستبعد ذلك بالكلية، لولا أن التخطيط بهذه الدقة أكبر من إدراك فتاة بعمرها، هذا فضلًا عن الوحشية التي نفذت بها الجرائم، وغياب الثغرات في الخطة المحكمة.

القاتل ناضج، ذكي، متمرس، وهذا يفوق قدرات فتاة في الثانية عشرة.

أم تُراها قادرة على الإتيان بذلك؟

تغير الأطفال كثيرًا هذه الأيام، لا يشبهونه في شيء عندما كان في مثل أعمارهم، كأن يدًا خبيثة امتدت لتقتل فيهم البراءة، وتشوه معالم الطفولة، فلا هم بقوا أطفالاً كما ينبغي، ولا هم نضجوا بما يكفي،

مست كتفه يد قوية فانتفض، جاوره في وقفته أحد شركاء المحبس، يشير بفضول إلى الجدار قائلاً:

- أنت تحلل الجرائم التي تحدث في رأس البر، أليس كذلك؟ ما علاقتك بها، هل تعمل في جهة إنفاذ القانون؟ إن كان الأمر كذلك فلماذا وضعوك في الحجز هنا؟

اكتفى السيد هود بمنح الرجل كلمات مقتضبة، لا تواتيه رغبة الإفصاح عن دواخله لغريب التقاه في موقع مثير للشبهات.

- من فضلك لا تتدخل.

قال السيد هود ذلك بنبرة جافة، تُسقط من حساباتها أدنى قواعد اللباقة.

لم يأخذ الرجل على خاطره، هز رأسه متفهمًا، وقبل أن يستدير على عقبيه عائدًا إلى الدكة الخشبية، التي كان يجلس فوقها طوال الساعات الأخيرة، مراقبًا السيد هود وما يفعله، أشار صوب الجدار قائلاً بشيء من الاستهزاء:

- لا أظن القاتل ذكيًّا كما تدَّعي الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي، كان بإمكانه اختيار مادة أفضل وأسرع من «السكوبولامين» لتسميم ضحاياه.

- ربما لا يعرف غيرها.

- ربما!

- أو يعاني الغثيان فكان لديه العقار بالفعل.

- ربما!

ذهب الرجل وجلس مكانه، بعد دقائق لم يتحمل السيد هود الوقوف أكثر، فجاوره فوق المقعد غير المريح، وظهره يئن من الألم.

- كيف تعرف عن تأثير هذه المادة؟

سأله السيد هود محاولاً تلطيف الحدة التي تحدث إليه بها قبل قليل، وبخاصة أن الرجل لم يتعمد التطفل عليه.

- أنا صيدلي.

- آه، فهمتُ. لمَ أنت هنا إذن؟

- لا أريد أن أتحدث عن ذلك.

استجاب السيد هود لرغبته، واحترم خصوصيته.

كانت نظرات الصيدلي تروح وتغدو فوق الخارطة التي رسمها السيد هود المشور، فيما هذا الأخير يقول ممازحًا بمزاج عكر:

- ربما على الشرطة القبض على كل من يعاني الغثيان، فالقاتل أحدهم بالتأكيد.

- هذا يعني القبض على نصف سكان رأس البر، هذا إذا ما غفلنا تعداد الزوار.

بادله السيد هود الابتسامة الهازئة بمثلها وهو يقول:

- هل يعاني نصف السكان الغثيان؟ تلك مبالغة سافرة.

- بالطبع ليس الغثيان فحسب، لكن لو جمعنا كل ما يعالجه «السكوبولامين» من دوار حركة، ومغص كلوي، ومشكلات عصبية، ومرض باركنسون، فلن تكون إحصائية مبالغًا فيها كما تقول.

أراح السيد هود مؤخرة رأسه فوق الجدار وأغمض عينيه لدقيقة، ثم فتحهما بغتة يسأل جاره:

- قلت باركنسون؟ وماذا يكون؟

- اضطراب حركي يصيب الجهاز العصبي. بالطبع «السكوبولامين» ليس الخيار الأول لعلاج أعراضه، لكن قد يلجأ الطبيب أحيانًا إلى وصفه في الحالات التي لا تستجيب للعلاجات الأخرى.

- هل توجد أشكال أخرى للعقار غير الحبوب؟

تثاءب الصيدلي، يهز كتفيه بلا مبالاة وهو يقول بنبرة مسترخية:

- يوجد منه رقعات لاصقة توضع خلف الأذن.

أسند رأسه للجدار مرة أخرى، مغمضًا عينيه، هذه المرة لم يستغرق استرخاؤه سوى ثلاث ثوانٍ، انتفض بعدها جسده كله، مال على جاره يسأله بحماس بالغ:

- هذا المرض، باركنسون، هل له أعراض مميزة؟

- رعشة في اليدين، هذا أكثر ما يميزه، ويسبب للمصابين به الكثير من الحرج.

انتفض واقفًا غير قادر على التصديق، ثمة شخص واحد قابله خلال الفترة الماضية يعاني رعشة ظاهرة في يده، ويضع ملصقًا دوائيًا خلف أذنه، إنها جارة «جواهر»، ووالدة الفتاة القوطية!

أخيرًا أمسك بقرينة تدين الفتاة اللئيمة!

عليه أن يبلغ «درويش» بهذه المعلومة الثمينة.

***

(41)

شبكة بين يدي صياد

مرر «درويش» نظراته المتفحصة فوق الفتاة التي حبرت عينيها وشفتيها بالأسود، يعرفها بنفسه.

لم تغير هويته من وقفتها المتحدية، ونظراتها النافذة:

- هل تظنني بهذه السذاجة؟ أعرف جيدًا لماذا أحضرتني إلى هنا.

- ما دمتِ تعرفين، إذن أجيبيني، بماذا أنتِ متورطة؟

عقدت ذراعيها أمام صدرها في وقفة لا مبالية، وبنبرة متسلطة هازئة أردفت:

- الشرطة يائسة لدرجة أن تضع كل آمالها على اعتراف صغير من فتاة مراهقة؟

- هذه ليست لعبة.

- الحياة كلها لعبة.

باغتته:

- لماذا تخشاني؟

- ولماذا أخشى فتاة صغيرة مثلك؟

أزعجه سؤالها لأنه في الحقيقة كان يخشاها. يخاف الشعور الذي تثيره الفتاة بداخله، بهيأتها المقبضة، وهالتها الغاضبة، التي تتشابه كثيرًا مع الهالة التي أحاطت به عندما كان طفلًا ومراهقًا ورجلًا بالغًا.

كان ممتلئًا بالعند والتحدي في مرحلة المراهقة، مثلها، ناقمًا على الشوارع، والناس، وصوت المطر، ورائحة الخبز، والأحاديث التافهة.

وعلى نجاحات أبيه المتلاحقة، والمقارنات التي يعقدها الناس بينهما. يرى في كل إخفاق دليلاً على أنه «فاشل بالفطرة»، كثير التشكك في كفاءته، يلازمه إحساس اللاجدوى.

رأى في الفتاة نسخة منه، باختلاف الشكل والجنس والعمر، صراعات داخلية مكبوتة، لم تستطع يومًا أن تُعبر عنها بوضوح، وحين تحاول أن تفعل لا تجد أذنًا مصغية وقلوبًا متفهمة.

أب منشغل بالعمل، وأم تجتهد للقيام بأعبائها، ترسان في طاحونة الحياة التي لا تهدأ، لم يعد أي منهما يملك صبرًا ووقتًا ليفهم، أو ليتعامل مع الصراعات الداخلية المعقدة والرغبات المقموعة لابنتهما المراهقة.

وجدت الفتاة في الهيئة الجوثية مكانًا للاختباء، من الجميع، ومن نفسها، مظهرًا للتمرد على كل ما تبغض، وتعبيرًا بصريًا عن هوية مشوشة، وشعور بالعزلة وعدم الانتماء.

يستطيع أن يرى خلف كل هذا الحبر الأسود فتاة هشة تتوق إلى التقَبُّل والتفهُّم.

والحب.

- لكل منا طرف جميل وآخر بغيض، لم تكن السيدة «جواهر» بالسوء الذي ظننته يا «شمس»، لم تستحق الموت.

رأى انقباضة خفيفة في فك الفتاة، ومرت في مقلتيها سحابة غائمة، كانت كافية ليدرك أنه عثر على ثغرة ينفذ منها إليها، فتابع بنبرة هادئة مسالمة:

- لو قتل كل منا من يبغضه لما بقي على ظهر الأرض أحد، نحن مزيج من ظالم ومظلوم، نفحة من روح الله وقبضة من طين.

لملمت الفتاة شتاتها سريعًا وقالت باستعلاء مصطنع:

- كانت امرأة بغيضة معي، لا يهمني أي ملاك كانت مع غيري.

- وأنتِ شيطانة صغيرة لأبويكِ، وعذاب لمعلميكِ، تعرفين ذلك جيدًا، فهل تستحقين القتل بدوركِ؟ لا يمكن تطهير المجتمع كجز العشب، نحن أرواح لا أشياء، لو أراد الله عالمًا لا يُخطئ فيه أحد، لما أعجزه شيء عن أن يخلقنا جميعًا في هيئة الملائكة، لكنه أراد أن نُبتلى، ثم نُختبر، ثم

نخطئ، ثم ندرك، ثم نندم، ثم نرجع، ثم نسعى، ثم ننهض وقد صرنا أكثر إنسانية.

أخذ نفسًا قصيرًا ثم تابع:

- نرفع رؤوسنا حياءً أو رجاءً. فيغفر، لا يمل الرحمة وإن مللنا التوبة، لو أرادنا الله بلا ذنب، لخلقنا بلا إرادة، بلا قدرة على الاختيار.

تنهد ثم أردف مؤكدًا:

- ليس المجد لمن لم يسقط، بل لمن عرف الطريق بعدها.

سكتت سكتة طويلة، ثم تمتمت بنبرة راجفة وعين تغشاها الرهبة، وقد تبدى التأثر والارتباك على وجهها:

- كانت مجرد لعبة.

***

الفتاة شريك في الجرائم المروعة!

نظرًا لحداثة سنها، ولكونها لم تبلغ السن القانونية، كانت تعرف أنها ستفلت من أي عقوبة مشددة.

اشترطت حضور محام لها خلال التحقيق، وعقدت صفقة تحولها من شريك إلى شاهد ملك، مقابل الإدلاء بكل ما تعرفه.

أبدت جرأة لا تتوافق مع الصورة الذهنية التي في مخيلة الأبوين عن طفلتهما الصغيرة، نبههما هذا إلى كون الأطفال يتطورون سريعًا هذه الأيام، بأسرع مما يدركه ذووهم.

أتت اعترافاتها في عبارات مقتضبة، وحاسمة.

لم يعد خافيًا أو عصيًا على الفهم كيفية إنشاء التطبيقات والترويج لها عبر المواقع المختلفة، حتى على فتاة بمثل عمرها.

كانت بارعة في التعلم، شغوفة، ومندفعة، تمكنت قبل عام ونصف من إنشاء تطبيق له طابع سوداوي، مستتر خلف واجهة مغموسة بألوان قوس قزح.

تنبعث من الواجهة موسيقى بدت مألوفة لـ «درويش» ما إن سمعها. إنها الموسيقى نفسها التي سمعها ليلة العثور على جثة «سنية»، وأمر أمين الشرطة بإطفائها.

في التطبيق، تحكي «شمس» بصوتها الأقرب للفحيح، حواديت مرعبة، بشخصيات من خيال الظل، تخلب ألباب الأطفال، وتؤرق مناماتهم.

الخوف هو أفيون الأطفال، ما إن يتذوقونه مرة حتى يقعوا في دائرة الإدمان، وأكثر المخاوف إدمانًا، هو «الخوف الآمن»، الذي يدرك فيه الطفل أنه لا يزال في بيته آمنًا، بينما الشرير محبوس داخل شاشة هاتفه.

ولكي تحشد الكثير من الزوار، إلى تطبيقها ذي الواجهة الإعلانية التي تُدر عليها المال، وتضمن عودتهم إلى تطبيقها مرات ومرات، كان عليها أن تنفث من روحها في تلك الحواديت، وتجعلها أشبه بلعبة تفاعلية.

بالتدوين أو التحدث من خلال الميكروفون المفتوح، يتبادل الزوار الرسائل معها، ويتلقون منها الإشعارات المميزة.

إشعارات لطيفة لا تثير شكوك أولياء أمورهم، تحث الأطفال على سماع الحواديت، والتفاعل معها، تذكرهم بشرب الحليب قبل النوم، والاستماع إلى أوامر أمهاتهم كي لا تسخطهم الساحرة إلى ضفادع صغيرة إلى الأبد.

- ولماذا اخترتِ تلك الموسيقى الغريبة في الواجهة؟ إنها عالية جدًا في مواضع، وخافتة جدًا في مواضع أخرى، وغير مسموعة فيما بينهما؟

- هذا ضروري لجذب الأطفال من أعمار صغيرة جدًا.

- كيف؟

- ألم تسمع عن «عتبة السمع»؟

لما أبدى «درويش» جهلاً فاضحًا، تعاظم اعتدادها بنفسها وهي توضح بتفاخر:

- «عتبة السمع» هي الحد الأدنى للتردد الذي يمكن للإنسان سماعه، تختلف الترددات التي بإمكاننا أن نسمعها باختلاف العمر، بإمكان الأطفال سماع ترددات بآذانهم الرهيفة، لا يستطيع الكبار سماعها.

- هل واجهة التطبيق تبث أصواتًا لا يمكننا نحن الكبار سماعها، قادرة على الوصول إلى النطاق السمعي للأطفال؟ لكن لماذا؟ ما الفائدة؟

- فهمك بطيء يا حضرة الضابط، أقول إنني بحاجة إلى ذلك لاجتذاب الأطفال، ألم تسمع عن «التنويم المغناطيسي الصوتي»، أو الترددات فوق وتحت السمعية وشبه المسموعة وتأثيرها النفسي والذهني؟

بعض النظريات النفسوفيزيائية تدعي أن أصواتًا أو ترددات معينة تؤثر على العقل، قرأتُ كثيرًا في هذا الباب، ودعني أقول لك إن قدرة الأصوات على

التأثير في اللاوعي مذهلة، هل تعرف أن بعض الترددات الصوتية تُباع على الـ Dark Web كمخدرات سمعية؟

- مخدرات سمعية!

- إنها نغمات ثنائية، تُرسل لكل أذن ترددًا صوتيًا مختلفًا قليلاً، وعندما يحاول الدماغ دمج الترددين، ينتج فرق ينعكس على نمط موجات الدماغ، ويمكن له تغييرها، تجعل الدماغ يدخل في حالة ذهنية تشبه تأثير المخدرات، بعض الترددات تسبب إدمانًا شبيهًا في بعض جوانبه بالإدمان على المواد الكيميائية، حتى إن بعضها يتضمن طلاسم سحرية غير مسموعة، أو مسموعة لأعمار ونطاقات محددة، تؤثر على العقل الباطن، وتسبب تغيرات في المزاج والتركيز والسلوك وتؤدي إلى هلوسات سمعية، ألم تسأل نفسك لمَ يبدو أطفال اليوم أقل تركيزًا وأكثر عنفاً؟

- هل الأصوات مؤثرة إلى هذه الدرجة؟

- بالطبع، حتى إن بعض التقنيات الصوتية بدأت تُستخدم في السينما، تدفعك للشعور بالتوتر والقلق في مشاهد الرعب، ببث صوت لا يُسمع ذي ترددات صوتية منخفضة جدًا، هل تسمع عن السليمنال Sublimnal؟

- أظن أنني سأسمع الآن، ألا يمكنك التحدث بشكل متواصل دون توجيه الأسئلة؟

- إنها رسائل تحت عتبة الوعي، مكونة من صوت أو عبارة أو صورة صغيرة جدًا، مخفية ومحفّزة، تُدس داخل فيلم أنمي، أو سيمفونية، أو حدوتة، قد لا يلتقطها العقل الواعي مباشرة، لكنها تؤثر على العقل الباطن بالتكرار، وتجعله منغمسًا فيها، ومتأثرًا بها.

- كل هذه مبالغات غير مثبتة علميًا، مجرد نظريات لا قرائن على صحتها.

رفعت حاجبًا، ومال جانب فمها راسمًا بسمة ساخرة، ثم التزمت الصمت فيما يتعلق بهذه النقطة، مسترسلة في باقي اعترافاتها.

ذات ليلة، تعرفتْ إلى أحد الزوار، حدث هذا قبل عدة أشهر، كانا يتبادلان الرسائل عبر التطبيق طوال الوقت، رسائل لها خاصية الإخفاء، تمسح نفسها بنفسها بعد مضي عشر ثوانٍ على قراءتها.

وكان هذا هو الحال مع كل طفل، لذلك، لم ينتبه أي من أولياء الأمور لما كان أطفالهم منغمسين بداخله.

هذا الزائر الفريد، كونت معه «شمس» صداقة وطيدة، دون أن تعرف له وجهًا أو اسمًا أو هوية، يتشاركان في النظرة السوداوية للحياة، الكبت، والغضب، والحرمان.

ظنت نفسها ذكية، وبمأمن عن أي ألاعيب نفسية.

وجدت في صداقته شيئًا من السلوى، يبدد وحدتها الثقيلة، وشيئًا فشيئًا، تغيرت فحوى أحاديثهما، تحولت ثرثرته الظلامية إلى رغبة حثيثة في التنفيذ.

غرس في صدرها بذرة الانتقام، من كل امرأة لا تجيد الحب والعطف والاحتواء.

أخبرها عن المرأة التي سممت حياته، دون أن يمنحها اسمًا أو صفة، كانت بينهما رابطة مقفرة من العواطف، تعاقبه على أدق الأخطاء وأجلها، عقوبات مروعة، تؤمن أن تربية الطفل ما هي إلا محاولات حثيثة لكسر إرادته، بعقوبات نفسية وجسدية صارمة.

تنزل فوق بطنه بعصا «الجوع» فتحرمه الطعام لأيام، أو تجبره على الشرب من ماء الصرف، لتقدير نعمة المطعم والمشرب إذا ما رفض تناولهما.

وفي بعض الأحيان، كانت تفرض عليه عزلة انفرادية على السطح، أو تقييدًا جسديًا بجنزير حديدي في طرف الفراش.

وفي الضرب، تستخدم أدوات غير تقليدية، مثل مقابض الأبواب وأسلاك الكهرباء، تمشط شعره بمشط معدني إذا ما عثرت على حشرة بق في ملابسه.

تجبره على أوضاع جسدية مؤلمة، الوقوف على قدم واحدة، رفع اليدين، والسجود على الركبتين فوق الحجارة.

وإذا ما خاف من الظلام أو الوحدة، هددته بالتخلي عنه وبيعه بثمن بخس إلى «أمنا الغولة».

عاش معها حياة مفعمة بالتعذيب وسوء المعاملة، ترتدي رداء التربية.

بالحب ينمو الأطفال، بالحب وحده، وكل امرأة تبخل بهذا الحب هي امرأة آثمة، قاتلة.

أفضى إلى الفتاة برغبته في معاقبة كل امرأة تحكم أطفالها بسلطان الخوف، إذ لا يفل الشر إلا شر مثله.

كانت قد أخبرته عن دواء أمها الذي تستخدمه لعلاج أعراض مرض باركنسون، وكيف أنها أخذت أكثر من جرعتها المقررة ذات مساء على سبيل الخطأ، ففقدت اتزانها، واضطرب إدراكها، وسقطت في نوم عميق.

عندئذ استبدلت به ملصقًا طبيًا تضعه خلف أذنها.

طلب منها أن تسرق العقار من دولاب أمها، وتضعه في وقت معلوم عند صخور اللسان.

- كيف تمكن من دس المخدر في مشروب كل ضحية؟

رفعت رأسها إلى المحامي، فأومأ لها مطمئنًا، ضامنًا حقوقها كافة، فازدردت ريقها وأفصحت:

- لا أعرف شيئًا بشأن باقي الضحايا صدقني، لكن فيما يخص السيدة «جواهر»، أنا من أضفته إلى الخلاط في أثناء إعدادها لمشروبها المفضل، كانت تسمح لي بدخول بيتها أحيانًا، وبخاصة عندما تريد تحديث شيء على هاتفها، جعلتُ التطبيق يُخرج رسائل مستمرة أزعجتها، فنادتني كي أصحح ذلك.

لم تأتِ أمها قط على ذكر تلك الزيارة الخاطفة ليلة الجريمة، إذ خشيت توريطها.

وهكذا كانت «شمس» اليد التي ساعدت، والشريك الذي أعان.

غير أنها ظنت أن الأمر لا يعدو على أن يكون مجرد لعبة.

لعبة قاسية بعض الشيء، لكنها لن تضر كثيرًا، لم تعرف أن الأمر سيصل إلى عتبة القتل، فلم تجد مانعًا من أن تتسلى قليلاً.

عندما وقعت الجريمة الأولى، لم تربط بينها وبين صديقها الغامض، إذ لم تتوفر لها معلومات كافية، رغم بحثها الحثيث عن تفاصيل القضية.

لم تُثَر شكوكها إلا بعدما قُتلت السيدة «جواهر»، بالطريقة نفسها التي حلم بها صديقها الغامض، أن يمص دماء النساء اللئيمات من أجسادهن الخبيثة.

كانت امرأة غليظة مزعجة، حدثته عنها كثيرًا، أشركته في لوحة إدارة التطبيق، وأنـزلت التطبيق سـرًّا على هاتف السـيدة «جواهر»، الـتي لا تجيد اسـتخدامه كثيرًا.

بعد السماح للتطبيق بالوصول إلى إعدادات الهاتف الحساسة، من تفعيل الميكروفون، والكاميرا، والاطلاع على الرسائل، وقائمة الاتصال، وغلق الشاشة وفتحها، صار بإمكانه السيطرة على هواتف كل المستخدمين الذين سمحوا بذلك، جهلاً أو حماقة.

أصبح له في كل بيت عين لا تنام.

وأداة بإمكانها تنفيذ الجريمة الكاملة!

أنا الأداة التي تفعل ولا يُفعل بها، أتحين اللحظة المناسبة للانقضاض، مثل شبكة بين يدي صياد.

(42)

ماضٍ ينام بعين مفتوحة

انتهى زمن الاختبار، وحان الوقت للاختيار.

قبل أن يُعلن إجابته عن السؤال الذي اختبرته الحياة به، قرر اللواء «لطفي درويش»، بذل آخر جهده للتكفير عن خذلانه للعدالة، والقانون الذي يأتمر به.

عندما رآه «درويش» مسرعًا خارج مبنى المديرية، استوقفه يتساءل والقلق يغزل شباكه حوله:

- إلى أين يا أبي؟

- لدي عمل مهم، وربما عمل أخير.

- ماذا تقصد؟

- عثرت على عنوان ابن «مبسوط»، كان يبلغ اثني عشر عامًا فحسب عندما انهارت حياته، سأخبره بنفسي عن براءة والده، سأحاول إصلاح شيء مما فسد، ثم أتخذ قرارًا صعبًا، صعبًا للغاية.

- لا تتخذ قرارًا متعجلاً، أستطيع إثبات براءة «هود» دون مخاطرة، أنا في طريقي لذلك، اقتربت كثيرًا من الهدف.

ابتسم في وجه «درويش الصغير»، وغرز أنامله في كتفه، بقوة شعر بها هذا الأخير، وتأثر بها.

- خلافًا لما تظن، لم أشك يومًا بكفاءتك.

- لا تُخيفني من فضلك، أخبرني بما يدور في رأسك.

- لا تقلق يا بني، إنها أقدار الله، لا مفر منها إلا إليها.

تابعه بعينين تغشاهما سحابة محملة بالمطر، مهما كان القرار الذي سيتخذه أبوه، فإنه سيدعمه، ويؤازره.

وليكن ما يكون.

***

عجز الخبير السيبراني عن التوصل إلى هوية صديق «شمس» السري.

ولم يستطع استعادة المحادثات القديمة بينهما، لكونها برمجت التطبيق ليحذف بشكل تلقائي الرسائل بعد قراءتها بعشر ثوانٍ.

لكن لحسن الحظ، ذات مرة غفل هذا الصديق السري عن التدابير الاحتياطية، واستخدم التطبيق من حاسوب مكتبي، أمكن من تحديد موقعه بسهولة.

مدرسة رأس البر الرئيسية!

كل شيء يلف ويدور ثم يعود إلى هذه المدرسة اللعينة، هذا ما طفق يدور في عقل «درويش» الذي سارع بالتوجه إلى المدرسة.

هذه المرة عازمًا على الظفر بهذا القاتل الأثيم.

دون أن يدري كيف سيعثر عليه من بين مئات المدرسين والإداريين والعمال.

بمساعدة المديرة، تمكن من التوصل إلى الجهاز الذي استخدمه القاتل بغرفة الكمبيوتر، وعرف أنه متاح للجميع، يستطيع أي شخص أن يستخدمه دون أن يثير شبهات الآخرين.

- ألا توجد كاميرات مراقبة هنا؟

- لا يا فندم، لا حاجة لنا بمراقبة غرفة الكمبيوتر.

- لم أرَ كاميرات في هذه المدرسة اللعينة إلا في قاعة الاحتفالات، هل تسمين هذه مراقبة؟

قالت بتباعد فاتر:

- لم تحدث أي مشكلة من قبل في مدرستي.

- لديك سفاح طليق في مدرستك يا أستاذة.

احتقن وجه المديرة وتلبسها شبح الخوف، تركها «درويش» مغاضبًا، دفع مقعدًا في طريقه، وصفع الباب من خلفه بقوة ارتجت على إثرها الجُدُرُ.

استند إلى السور ووقف يتطلع إلى الأطفال اللاهين لعبًا وضحكًا في وقت فسحة، مفكرًا في السؤال الذي يلقيه «عمرو» الواقف بجواره:

- كيف سنعرف هوية القاتل؟ كيف سنحدده وسط كل هؤلاء البشر؟

ومن موضعه التقت نظراته نظرات البواب الذي غشيت قسماته القلق، وأبعد وجهه كأنه لم يره، من فوره انطلق «درويش» قافزًا فوق الدرجات إلى أن بلغ البوابة، اقتلع البواب من مربضه فوق مقعده الخشبي، وألصق ظهره بجدار المدرسة من الخارج، بعيدًا عن مرمى نظرات الأطفال الفضولية.

- ماذا تخفي؟ هل تعرف شيئًا؟ تحدث وإلا ألقيت بك في الحجز.

- لا أعرف شيئًا مما تقول يا باشا... أنا... أنا لم أفعل شيئًا.

تحدث وهو يمسح بيده فوق جيبه، فعل قهري تكرر أكثر من مرة أمام «درويش»، مما دفعه ليدس يده في جيب البواب، ثم يخرج الشيء المحشور بداخله.

رفعه أمام ناظري البواب المرتعد، وقال معنفًا:

- حشيش في مدرسة للأطفال يا ملعون؟

- أقسم... يا باشا أقسم إنني لا أعرف شيئًا عن...

- تعاطي أم اتجار؟ هل تبيعها للأطفال؟

لم يتمالك «درويش» نفسه فسدد في وجهه لكمة خلخلت سنًا أمامية، تباكى هذا الأخير وهو يصيح صارخًا:

- لا، بيع لا. إنها تخصني وحدي.

جذبه من قميصه جذبة قوية ووضعه في المقعد الخلفي لسيارته قائلًا من بين أنفاسه اللاهبة:

- هذه الكمية تكفي لعدّها اتجارًا. أقسم بالذي خلقك وخلقني أن أجعلك عبرة لمن يعتبر.

أغلق باب السيارة بقوة ووقف يلتقط أنفاسه بصعوبة، شعر بدمه يفور في عروقه كأنه بركان ثائر.

دنا منه «عمرو» يسأله بقلق حقيقي:

- هل أنت بخير يا «درويش» بك؟

تصاعدت أبخرة الغضب من منخريه وهو يشيح بذراعيه متمتمًا:

- الكلب يتعاطى داخل المدرسة، والمديرة نائمة على أذنيها، قاتل يدخل ومدمن يخرج.

- أدرك مدى انزعاجك يا فندم، لكن ماذا تفعل المديرة؟ هل تسير خلف كل عامل ومدرس؟

أخرج سيجارة من جيبه، ونفث دخانها بقوة في وجه العدم، تسربت نهنهات البواب ممزوجة باستجداءاته عبر زجاج النافذة، ضربها «درويش» بقوة بقبضته، فابتلع الرجل لسانه على الفور.

- هل تظنه المجرم الذي نبحث عنه؟

تساءل «عمرو» مشيرًا برأسه صوب البواب، فأجابه «درويش» بازدراء:

- إنه أغبى من أن يكون القاتل.

تصاعد دخان سيجارته مشكلًا ستارة تحجب قسماته، تمعن مفكرًا في المعزوفة الموسيقية التي اختارتها الفتاة «شمس» لتكون واجهة التطبيق.

تلك الموسيقى، تلك النغمات، يكاد يجزم أنه سمعها من قبل! لا في بيت «سنية» ليلة الجريمة فحسب، بل في مكان آخر، كانت أكثر خفوتًا فلم ينتبه لها حينها، عصر ذهنه كي يتذكر، أين سمعها؟ أين ذهب مؤخرًا؟

- في بيت «سنية»، أتذكر هذا جيدًا يا «درويش» بك، حتى إنك طلبت من أمين الشرطة إغلاق الصوت. والآن أدركنا أن الموسيقى كانت تنبعث من هذا التطبيق، يبدو أن «تميم» كان يستمع إلى إحدى الحوادث أو يتحاور مع زوار التطبيق عندما داهم القاتل العشة.

- ليس هناك فحسب، أشعر أنني سمعتها في مكان آخر.

- مكان آخر!

- نعم، في وقت قريب، ومكان قريب.

أخذ عقله في الترحال بين كل المواقع التي زارها مؤخرًا، مسارح الجرائم الأربع، القسم، المديرية، عشة السيد هود وجارته، وحتى الكافيتريا التي توقف عندها قبل ليلتين ليشرب فنجانًا من القهوة في شارع النخيل.

في مكان ما زاره مؤخرًا، سمع تلك المقطوعة الموسيقية السوداوية، بصوت هادئ، ضعيف، لم تلتقطه أذنه وقتها بوضوح كافٍ ليثير ريبته.

وفجأة، ألقى سيجارته أرضًا، وانطلق صوب المدرسة آمرًا «عمرو» بالتحفظ على البواب واقتياده للمركز. توجه من فوره إلى الجراج، وهناك استوقف عاملًا وسأله بلهفة:

- أين سائق هذا الأتوبيس؟

أشار صوب الأتوبيس الأصفر الكبير القابع في زاوية، أجابه هذا الأخير بحيرة:

- بالمدرسة أربعة سائقين، أي سائق منهم تقصد؟

تركه وتوجه من فوره إلى المديرة، مطالبًا إياها بقائمة تضم أسماء وصور السائقين الأربعة. استجابت المديرة متبرمة، تأمل ألا ترى وجهه في أروقة مدرستها مرة أخرى.

يوم التقى السائق الذي كلفه بمراقبة «سهام» و«لارا» وما يحدث داخل المدرسة، لم يكن في ذهن يقظ بما يكفي لالتقاط النغمات الخافتة التي كانت تنبعث من هاتفه داخل الأتوبيس، قبل أن يناديه «درويش» بلحظات.

ليته أصاخ السمع، إذ إنها كانت نغمات واجهة التطبيق نفسها.

ضرب جبينه عندما تذكر أنه كان يستخدم يده اليسرى عندما أخذ منه السيجارة وأشعلها!

هاتف معاونه آمرًا:

- استمع إليَّ جيدًا يا «عمرو»، ثمة اسم سأمليه عليك بعد قليل، أريدك أن تتحرى عنه جيدًا، أريد أن أعرف عنه كل شيء منذ أن ولدته أمه، هل تفهم؟ يعمل سائقًا في المدرسة، اسمه «راضي». انتظر. حالًا سأملي عليك اسمه كاملًا.

انتزع القائمة من بين أنامل المديرة بعصبية، حتى كادت أن تتمزق، مرر نظرات اللهفة فوق الوجوه الأربعة، إلى أن توقف عند وجه السائق الذي التقاه في الجراج.

وما كاد يقرأ اسمه كاملًا، حتى انقبض قلبه، واحتقن وجهه، كما لو أنه تلقى صفعة مدوية!

- ألو. «درويش» بك. هل ما زلت معي؟ كنت ستذكر لي اسمًا لأتحرَّى عنه.

بأنفاس لاهثة، ونبرة مغموسة في بئر المفاجأة، قال بنبرات مرتعدة:

- الاسم... «راضي مبسوط رشدي الدرملي». المعروف بـ«ابن القرداتي»!

(43)

اللقيط الذي أنجبته الغولة

أراد أن ينتظر ابن «مبسوط» على السلم، إلا أن زميله المشارك له في السكن رحب به بحفاوة.

- تفضل انتظره بالداخل.

دخل اللواء «لطفي درويش» الشقة الصغيرة، المكونة من صالة ضيقة لا مقاعد فيها، ولا تتسع سوى لطاولة وُضعت فوقها مزهرية رخيصة بلا أزهار، وغرفة واحدة يتشارك فيها الرجلان.

- لا مؤاخذة البيت متواضع ولا يليق بضيافتك، «راضي» رجل ابن حلال، أنا زميله في السكن.

أشاد به زميله، لاعنًا أصحاب العقارات الذين يغالون في الإيجار مضيفًا بإشفاق:

- أصحاب البيوت يزعجون «راضي» ويطردونه لحبه في تربية الحيوانات، لكن صاحب هذا البيت ابن حلال، لا يزعجنا عند التأخر في دفع الإيجار بضعة أيام.

ثرثر كثيرًا في كل اتجاه، ثم استأذن في المغادرة، إذ حان موعدورديته، ولو تأخر دقيقة واحدة سيخصم راتب يومه ابنُ الحرام الذي يعمل عنده.

هكذا أخبره.

سنحت له الفرصة للتجول قليلًا في الغرفة الوحيدة الضيقة، قُسمت الطاولة العريضة الموضوعة بين الفراشين إلى نصفين، مساحة خاصة لكل من الرجلين، تمكن بسهولة من معرفة أن النصف الأيمن يخص «راضي»،

إذ كان فوقه إطار به صورة تجمعه بأمه الست «عنايات»، أمام دارهما بكفر البطيخ.

أمسك بالصورة ومسح فوقها بنظرات رؤوم، تركها سريعًا ليلتقط دفترًا للتدوين، يستخدمه «راضي» للرسم.

كانت رسوماته بالقلم الجاف لافتة، تنم عن موهبة لم يُعتنَ بها كما ينبغي.

انعقد حاجباه في ضيق، لو كان لديه أب يهتم ويعتني، لكُتب للشاب مستقبل أفضل، ولربما أصبح رسامًا مشهورًا تشارك لوحاته في المعارض الفنية، وينال ما يستحق من تقدير.

بدلًا من الإقامة في غرفة حقيرة كريهة الرائحة، والتنقل من عمل لآخر، الذي كان آخرهم سواق أتوبيس، بعقد مؤقت.

تنهد بحرارة وهو يترك الدفتر فوق الطاولة، ويمرر سبابته فوق ألبوم قديم للصور، قلب فيه بعقل شارد، إلى أن تناهى إلى سمعه صوت خطوات فالتفت:

- «راضي». مر وقت طويل، رغم ذلك تبدو كما أنت، لم تتغير كثيرًا يا بني. لا أظنك تتذكرني، أنا...

- سيادة اللواء «لطفي درويش».

تمتم «راضي» بعبوسه المعهود، تمامًا كما يتذكره، يحمل وجهًا يبدو ناقمًا على الدوام، لطالما رآه بصحبة والده وقروده الثلاثة، يمر من شارع إلى آخر، لا يشارك في العروض، ولا يبدو مهتمًا بما يدور.

صادفه عدة مرات في المديرية وفي المحكمة، منكفئًا على دفتره، يرسم وجوهًا مقبضة، وعلى وجهه تعبير جامد، اعتاد أن يراقب الأطفال المستمتعين بعروض والده، دون أن يشاركهم لحظات اللهو والمتعة.

وضع اللواء كفيه في جيبيه، ثم أردف:

- تعمل سائقًا في مدرسة رأس البر، أليس كذلك يا بني؟

- لم أُثبّت بعدُ، ما زلت في شهور التجربة.

- تفحصت رسوماتك، إنها لافتة، تبدو موهوبًا يا «راضي».

- لا أعرف، ربما.

- تحتاج إلى القليل من الثقة.

- لا أريد أن أبدو وقحًا، لكن... اعذرني سيادتك. لماذا أنت هنا؟

بدا متوترًا إلى الحد الذي دفعه لقرض أظفاره، كما هي عادته منذ الصغر.

استهل اللواء حديثه باعتذار واضح، من دون تورية، سدد سهمًا مباشرًا صوب الهدف، تقاطع الكثير مما قاله للشاب الواقف أمامه، مع ما قاله لأمه في

دارها.

واختلف فيما يخص مشاعره الأبوية الصادقة، ووعده بتقديم كل سبل المساعدة، ليختار في الحياة مسلكه.

وبينما تحدث استدار مرة أخرى وتأمل الألبوم القديم، مسترجعًا بعض ذكرياته عن والده، والسعادة التي كان يرسمها على وجوه أطفال المنطقة، بما فيهم ابنه «أحمد».

وبينما قلب بسبابته في الصور، تجمدت البسمة فوق شفتيه، وأضحت ببرودة نتفة ثلج، ما فتئت أن أخذت في التراكم حتى تحولت إلى كرة ضخمة مُهلكة.

وذلك عندما طالع صورة لامرأة مسنة بوجهها جامد القسمات، تقف بجوار «مبسوط القرداتي» عندما كان شابًا، يتوسطهما «راضي» بوجهه العبوس.

توقفت نظرات اللواء عند حزام المرأة الذي يضيق بشدة حول خصرها.

لا تكشف الصورة القديمة بالأبيض والأسود عن لونه، لولا يد خارجة تدخلت في تفاصيل الصورة، لتلون الحزام بلون أصفر فاقع!

- تلك جدتي اللعينة.

سمع «راضي» يقول ذلك من خلف ظهره، ولم يزد، أخذ عقل اللواء يعمل بسرعة مفرطة، يصنع خارطة لما يعرفه من معلومات قليلة ويربطها ببعضها.

القاتل حاقد على امرأة قاسية ما فتئت تعذبه!

القاتل يعرف جيدًا الأطفال أو يعمل في محيط وجودهم ويعرف أيهم يتعرض لإساءة المعاملة!

القاتل خبير لا يترك أثرًا وراءه، لذلك فقتله لأم «هود» لم يكن جريمته الأولى حتمًا!

جدة راضي التي تظهر في الصورة لم يرها في أثناء التحقيق والمحاكمة، ولم تظهر لها شهادة وفاة من يومها، أين اختفت يا تُرى؟

القاتل يعرف جيدًا أنه انكشف بعد التحقيق مع «شمس»، ولم يعد لديه ما يخسره!

القاتل قريب جدًا، أكثر مما ينبغي!

الشعرة لم تتطابق مع «القرداتي» نفسه، رغم أنه لم يمر من أمام بيت الضحية سواه وقافلته المكونة من ثلاثة قرود. وابنه المراهق العبوس!

- جدتي اللعينة، كانت عجوزًا شمطاء مخيفة، لها أساليب فريدة في التربية.

استنار عقل اللواء بالحقيقة المروعة، وقبل أن يستدير دورة كاملة، كان «راضي» قد أمسك بالمزهرية، وبكل الحقد الذي يحتشد في صدره نزل بها فوق رأسه صائحًا:

- تستحق الموت مثلها.

(44)

لوحة نجت من حريق العالم

كان لهذا الكشف وقع مزلزل، فريق التحقيق، وأبناء رأس البر، وزوارها، وصائدو الأخبار.

تردد اسم ابن «القرداتي» آلاف المرات فوق ألسنة الناس وفي تدويناتهم، خدش أمان الناس لكونه يعمل سائقًا تحت التدريب، في مدرسة تضم أطفالًا من مرحلة الروضة وحتى الإعدادية.

ورغم كل الجهود والضغوط التي مورست عليه للاعتراف، أبى إلا الالتزام بالصمت.

لم يتفوه «راضي» بكلمة منذ أن اقتحم «درويش» الشقة متتبعًا رقم هاتفه، وسدد له ضربة في منتصف وجهه بكعب سلاحه، منقذًا في اللحظة الأخيرة والده مدمى الرأس، المنسدح فوق الأرض.

لو تأخر دقيقة واحدة، لو لم يعمل عقله سريعًا ويكتشف الحقيقة، لأصبح والده الضحية السادسة لهذا المجرم المنحرف.

صب جام غضبه فوق وجه «راضي» وجسده، إلى أن أزاحه أحدهم، كان خائفًا، بل يرتعد خوفًا من أن يصيب أباه مكروه، ويخسره.

شعر لحظتئذ أن كل خلافاتهما السابقة لا تزن شيئًا في ميزان محبته.

يحبه حقًا، ويحترمه، ويقدّره.

عانقه بقوة، مطمئنًا نفسه لكونه بخير، ترك الفريق يتولى الأمر، وأراد اصطحابه إلى المستشفى. اعترض أبوه واكتفى بتضميد رأسه في المركز، ثم باشر متابعة التحقيق من بدايته.

لم يستخرج ضباط التحقيق كلمة واحدة من فم «راضي»، الذي أطرق برأسه معاندًا، ومغالبًا القوة التي تحيط به من كل اتجاه، مثيرًا استياء كل الرتب التي التقته.

تكفّل «درويش الكبير» بنفسه بمتابعة إجراءات الإفراج عن السيد هود، فيما كان «درويش الصغير» يتابع التحقيق مع «سهام الوزير».

لم يُخلَ سبيلها بسهولة كما تمنى، ما زالت الشبهات تحوم حولها لكونها تعمل في المدرسة نفسها التي يعمل فيها القاتل، وثمة احتمال قائم لأن تكون شريكته.

هكذا كان يرى ضابط التحقيق.

لولا أن وكّل لها «درويش» محاميًا ماهرًا، لما تمكن من تحريرها، ساعده كونها امرأة حسنة السمعة، وتملك عنوان إقامة ثابتًا.

***

عندما ظهر اللواء بعد أن اختفى عن الأنظار لعدة ساعات، أدرك «درويش» على الفور ما حدث.

نطقت قسمات أبيه بالراحة والسكينة، بأكثر مما رآه يومًا. شعر أن أباه انتعش، وكأنه استعاد عدة أعوام من عمره، راحة عجيبة تسللت إلى نظراته العميقة، وابتساماته الخفيفة، حتى لغة جسده كانت تبدو في أكثر درجاتها استرخاء.

انتهى للتو من اعتراف كان يجب أن يقدم عليه قبل عشرين عامًا، أخبر رؤساءه بكل ما وقع منه في ملف القضية القديمة: الشعرة التي فقدها، ثم عثر عليها، ثم خاف من إظهارها.

وما إن فعل ذلك حتى شعر بالجبل الجاثم فوق صدره يتفتت، وتذروه الرياح، مرة واحدة وإلى الأبد.

رغم أن القضية كانت لتنتهي دون ذكر الشعرة القديمة، فالقاتل سينال عقابه على قتل أربع نساء، بعد أن يتطابق حمضه النووي مع الشعرة التي عُثر عليها في مسرح الجريمة الأخيرة، أما الجريمة القديمة فقد سقطت مدتها القانونية، ولكون «راضي» يومها كان حدثًا لم يبلغ السن القانونية، لن ينال عقوبة تماثل عقوبة قتله لتلك النسوة الأربع.

رغم كل ذلك، شعر أنه بحاجة ماسة إلى الاعتراف، من أجل نفسه.

ولشد ما أشعره هذا بالخِفَّة.

تقدم منه «درويش الصغير» يقول بتأثر كبير:

- أنا فخور بك يا أبي، مهما حدث.

قد يخسر سمعته، وقد يخسر رتبته، وقد يخسر كليهما، إلا أنه شعر أخيرًا

أنه تحرر من السجن الذي حبس نفسه فيه سنوات طويلة.

***

كانت لحظات محتدمة عندما التقى «مبسوط» في الممر.

- ألم يكفك ما سرقته من عمري؟ تريد سرقة حياة ابني؟ كم مرة عليَّ أن أتجرع من كأس ظلمك؟ ألم يكفك كل ما حدث؟

- اعترفتُ بكل شيء يا «مبسوط».

حينئذ ران الصمت طويلًا على كليهما.

***

لحظة أن رأى «درويش» صديقه مقبلًا نحوه من غير أصفاد تقيده، أو تهم تلاحقه، عانقه بقوة قائلًا:

- اشتقتُ إليك كثيرًا.

- وأنا أيضًا يا صديقي، شكرًا على كل شيء يا «درويش».

- وثقتُ ببراءتك دائمًا، كنت فقط أقوم بعملي كما تعرف.

- أثق في نزاهتك.

تمتم السيد هود بذلك وهو يربت ذراعه راضيًا، غير ناقم عليه ولو بمقدار ذرة.

- هذا السفاح، لم تكن أمك أولى ضحاياه، كانت ضحيته الأولى هي جدته، هكذا يُرجح أبي. لم نعثر بعدُ على جثتها، لكن حتى وإن لم نعثر عليها، فمطابقة حمضه النووي مع الشعرة التي سقطت منه في ساحة الجريمة الأخيرة ستكفي لإدانته بأربع جرائم قتل، أبي أخبر رؤساءه بكل شيء يا «هود»، سيُغلق ملف قضية أمك أخيرًا، وستستريح في قبرها.

لم يكن إطلاق سراحه هو الجائزة الوحيدة لهذه الليلة، هذا ما تردد بداخله عندما طالع وجه «ساري» البشوش مقبلًا عليه، تنطق كل خلجة من خلجاتها بفرحة عارمة، وإن لم تتحدث بهذا صراحة.

- انتهت القضية، انتهى الكابوس.

هكذا قال لها مانحًا إياها أكبر وأروق ابتساماته، لوهلة، شعر أنه راضٍ عن العالم تمام الرضا.

إلى أن وجد «ساري» تمسك ببطنها فجأة، تتحسس، وتعتصر، كما لو كانت تود انتزاع معدتها!

كان بطنها قد كبر كثيرًا، مثل امرأة نحيلة في شهورها الأخيرة.

- لقد عرفتُ كل شيء عن زواجك السابق، وبوجود ابن لك من زوجك الأول، لماذا ما زلت تنكرين حملك؟

صاح بها مغتاظًا يحسبها تعانده، فهتفت بقوة مؤكدة بغيظ مماثل، وقد سئمت من تكرار قولها:

- أنا... لستُ... حاملًا!

أطلقت صيحة صغيرة متوجعة، قبل أن تسقط أرضًا خائرة القوى.

***

لم يتركها السيد هود لحظة، صاحبها في سيارة الإسعاف، وبينما سار معها في ممرات المشفى، كانت تئن ألمًا بينما تحاملت على نفسها لتقول كلمة واحدة:

- «آدم».

لم يحب نبرتها، ولا الكلمة التي اختارتها، آخر ما يريده منها هو وداع ووصية.

- ستكونين بخير، سأظلِ هنا بانتظارك.

ما فتئ يردد ذلك إلى أن اختفت داخل غرفة العمليات، ساعات قاسية تلك التي مرت عليه وهو واقف في الممر، دون أن يتحصل من طاقم التمريض على معلومة نافعة.

كلها عبارات مبتورة، حمّالة أوجه، غير قاطعة المعنى.

كل ما كان متأكدًا منه، أن ثمة شيئًا غير عادي يدور في غرفة العمليات، التي ما فتئ يدخلها طبيب تلو آخر، إلى أن توقف عن إحصاء عدد من يتابعون

حالتها بالداخل.

كل ما تمكن من معرفته، أنها تخضع لجراحة عاجلة.

وما كان ينقصه سوى أن يرى «نسيم» أمامه، يقبل مسرعًا مصطحبًا في يده «آدم» الصغير باحثًا عن أمه، وذاهلًا عما حوله، رق له قلب السيد هود، ولم يبعد ناظريه عنه

- كيف حالها؟

- لا أعرف.

- ماذا يحدث بالداخل؟

- لا أعرف.

- متى ستخرج من غرفة العمليات؟

- لا أعرف.

تلمظ «نسيم» غيظًا، لم يبدِ السيد هود أدنى قدر من الاهتمام بانزعاجه، إذ كان غارقًا في همّه الخاص، نزل على ركبتيه حتى أضحى رأسه ورأس الصغير على خط استقامة واحد.

- أهلًا يا «آدم».

لا يجيد التعامل مع الأطفال، بل دأب على الهرب منهم، لا يلاطف، ولا

يهادن، ولا يداعب.

لا يجيد التعامل مع عقولهم الصغيرة الخضراء، التي لا تزال في طور

استكشاف العالم، إذ يشعر برغبة عارمة في أن يبصرهم بحقيقة البؤس الذي

ينتظرهم.

ولشد ما أدهشه ألا تثار بداخله تلك الرغبات الداعية إلى المكاشفة، بل

أحب أن يزيف الحقيقة، وينثر في عين الواقع تراب الكذب.

- أمك بخير، سننتظرها معًا.

راقبه «آدم» متوجسًا، وفي الوقت نفسه مستشعرًا الطمأنينة بما يسمعه

عن والدته، كل ما يملكه في هذه الحياة الكبيرة.

- هل تحب العصير؟ هل ترغب في أن نشتري واحدًا؟

احتار الصغير في الإجابة، رغم عطشه الشديد، ومغريات اللحظة، فإنه تذكر جيدًا كيف نبهت عليه أمه ألا يأخذ شيئًا من الغرباء.

لوى عنقه ورفعه يتطلع إلى «نسيم» متحسسًا إن كان بإمكانه قبول الدعوة، لم يبدِ هذا الأخير أي ردة فعل، ظلت قسماته جامدة، ولشد ما أغاظ ذلك السيد هود، ودفعه لأن يقول ملاطفًا:

- اسمي «هود»، أنا صديق أمك، هل حدثتك من قبل عني؟

كانت المرة الأولى التي يستخدم السيد هود اسمه مفردًا لا مركبًا كما يحب، تخفف من أثقال الاسم متوددًا إلى الصغير الذي اكتفى بقول:

- أعرفك.

تصالح الحظ معه، إذ استقبل «نسيم» اتصالاً هاتفيًا عاجلاً يخص عمله، واضطر إلى إيداع «آدم» في أمانته.

فوق مقعدين قريبين جلسا متجاورين يشربان العصير المعلب، لم يتبادل السيد هود الحديث معه، إذ كان الطفل مهمومًا بغياب أمه المقلق.

أخذه مرتين إلى دورة المياه، وجلب له شطيرة باردة من المقصف، هي كل ما استطاع الحصول عليه ليسد به جوعه.

استعاد ذهنه صفاءه بالكامل لحظة أن انفتح باب غرفة العمليات، وتقدم منه أحد الأطباء تبدو عليه أمارات الإرهاق.

- كانت حالتها حرجة للغاية، أتيتم بها في الوقت المناسب.

ابتعد السيد هود بالطبيب عن مرمى سمع «آدم» اللاهي في شطيرته، مستوضحًا:

- قال أحد أفراد طاقم التمريض إن عملية استئصال كانت تجري بالداخل.

- في الحقيقة، كان الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك.

- أي شيء استأصلتم من جسدها؟ هل هو ورم؟

- بل جنين.

نزل سوط الخيانة ثلاثًا فوق صدره، لم يسبق له أن شعر بخيبة أمل كالتي يشعر بها الآن، سألها عدة مرات، وفي كل مرة كانت تجيب بالنفي، لماذا خدعته؟

لماذا الكذب؟

- كم كان عُمر حملها؟

قالها ثم ابتلع غصة تحشرجت بها حنجرته، لم تتبدد إلا عندما فاجأه الطبيب بقوله:

- كلا، لم تكن حاملاً.

- قلت إنكم استأصلتم جنينًا من جسدها، كيف وصل الجنين إليها إن لم تكن حاملاً به؟

- المريضة كانت تعاني حالة طبية نادرة، رصدنا نموًا غير طبيعي في بطنها، فكرنا في الحمل لكن أثبتت الفحوصات والأشعة بالموجات الصوتية كونها تعاني حالة امتصاص جنين كان توأمًا لها. حدث ذلك في المرحلة الجنينية، في بعض الحالات النادرة التي تكون الأم حاملاً في توأمين، تُمتص أنسجة الجنين المعتل من قِبل الجنين الأكثر صحة، إلى أن يختفي تمامًا. وشخصيًا مرت عليَّ حالتان لامرأتين كانتا حاملتين في توأمين، وبالفحص بعد عدة أشهر تبين أنها لم تعد تحمل أكثر من جنين واحد. في حالة مدام «ساري»، وبينما كانت أمها حاملاً فيها، لم يتحلل توأمها، بقي بداخل بطنها، يكبر معها دون أن تكتشف ذلك، جنين تحول إلى كتلة مشوهة من الشعر والعظام،

تسبب في نحافة المريضة، وشعورها بالغثيان، وزيادة حجم البطن بشكل غامض، ظلت تلك الكتلة الممتصة حية بشكل ما، مستمدة القوة من نشاط الجسد الذي يحويها.

جفل السيد هود من هول المعاناة التي كانت تمر بها المرأة التي أحبها، تساءل بلهفة، بعدما استلزمه الأمر نصف دقيقة من الصمت لاستيعاب ما سمع:

- يعني... كانت أمها حاملاً في توأمين، واختفى واحد منهما داخل بطن الآخر؟

- نعم، هذا ما حدث.

- وهل هي الآن في حالة طبيعية؟ أعني لم يعد هذا الشيء بداخلها؟

- أزلنا بقايا توأمها بعملية جراحية دقيقة، إنها بخير، ستستعيد طاقتها، وسيزداد وزنها بمعدل أفضل، ولن تشكو بعد الآن من آلام في البطن.

أصابه الندم بسهم في منتصف قلبه، لعدم تصديقه لها، رغم أنها نفت غير مرة حملها، ليته صدق، ليته بحث حثيثًا عن السبب الحقيقي لغثيانها وبروز بطنها.

لخفف معاناتها في وقت أبكر.

***

لم يفارق «آدم» إلى أن سُمح له بزيارتها في الغرفة العادية التي انتقلت إليها بعد خروجها من العناية المركزة.

أدرك -وإن كان لم يجرب مشاعر الأبوة من قبل- أنها ستكون في أمس الحاجة إلى رؤية طفلها، وأن رؤيته ستُحسن من مزاجها، وتدفعها إلى التعافي بسرعة. عانقت «آدم» طويلاً رغم الألم، قبلته، تشممت رائحته، أجابت عن أسئلته الكثيرة دون ضجر، بددت مخاوفه، وزرعت بذور الأمان في قلبه.

وافقت على أن ينام بجوارها، وروت له حدوتة عن أمير وسيم، وشجرة تنبت الأحلام فوق غصونها.

شعر السيد هود أنه أمام لوحة جميلة تجسد معاني الأمومة العظيمة، لوحة نجت من حريق العالم يوم حُرق.

ولن يسمح لأيادي الزمن الغاشمة أن تفسد ألوانها.
أبدًا.

(45)

وشم أصفر في جبين الذاكرة

أراد السيد هود لاحتفالهم الصغير بانتهاء القضية أن يكون في عشه، لولا إصرار «درويش» على استئجار ثلاثة مقاعد في سفينة مخصصة للتنزه، تجوب البحر ثلاث ساعات في كل دورة.

لم يزعجه صوت الأطفال الموجودين على متن الباخرة الصغيرة، كان هذا لأول خمس عشرة دقيقة فحسب، ثم شعر بصداع نصفي كاد يشج رأسه.

فوق الطاولة التي التف حولها ثلاثتهم، وضع النادل صنوفًا مختلفة أشكالها من المخلوقات البحرية، لا تضاهي مذاق ما يعده السيد هود بنفسه.

كان هذا رأي اللواء «لطفي درويش»، رغم أنه لم يتذوق صنيع يديه إلا مرات معدودات، أما «درويش» فكان قادرًا على أن يتلذذ بلحم السمك حيًا دون أن يميز الفارق بين جودة أو نكهة.

هكذا تمتم السيد هود ممازحًا، فانطلقت من صدور الرجال الثلاثة قهقهات مرحة.

- هل خرجت «ساري» من المستشفى؟

تساءل «درويش الصغير» غامزًا بعينه اليمنى.

- أمس.

- هل ما زالت هنا؟

- تستعد للعودة اليوم إلى بيتها في دمياط الجديدة.

- و...؟

- لم أفهم.

- كيف ستنتهي هذه القصة؟ تعرف أنني أحب النهايات السعيدة.

- لم أحشر أنفي فيما يخصك أنت ومعلمة اللغة الإنجليزية.

- لم يقل لك أحد ألا تحشره.

قال ذلك ثم قهقه ضاحكًا، أردف متباسطًا، يغمز بعينه ببشاشة:

- عامة، نحن أفضل حالاً منكما.

كان هواء البحر باردًا، يترامى اللون الأزرق من الاتجاهات الستة، ورائحة الهواء المحملة باليود تعمل بداخله كمهدئ مثالي.

استعادت رأس البر هدوءها بعد إعلان القبض على القاتل المتسلسل، وها هي تحاول التعافي مما قاسته من أحداث روّعت أمانها.

كان كل شيء مثاليًا إلى حد مقلق!

هذا ما شعر به السيد هود، ربما لأنه حتى هذه اللحظة لم يستعد ذكرياته الضائعة، أوقف مهمة البحث عنها بين ثنايا عقله، قنع بما حازه في هذه الرحلة، وما خسره.

لا تنتهي الرحلات دومًا بالسعادة الكاملة، ولا تُجاب جميع الأسئلة، هذا لا يحدث إلا في ساحات الحواديت.

رن هاتف «درويش الصغير»، فمازحه والده:

- اشترطت علينا ألا نلمس هواتفنا خلال الرحلة، فهل يسري هذا القانون عليك أيضًا يا سيادة «الرائد» المستقبلي؟

قهقه ضاحكًا، ولم تجرؤ يده على إخراج الهاتف من جيبه، تجاهل الرنين، وتمازح مع السيد هود وهو يملأ فمه بصوص ظهر سمكة لوت مشوية:

- لن أتحدث في الهاتف بالطبع، لو تركتُ الطاولة لحظة لنسفها هود في الحال، ألا ترى كيف يأكل وكأنه آخر زاده؟

لما رن الهاتف للمرة الثالثة لم يستطع تجاهله، وظهر على وجهه فضول القط، تبادل اللواء والسيد هود نظرات ذات مغزى مع ابتسامة هازئة.

- أفندم يا «عمرو»؟ لو لم يكن اتصالك مهمًا كأن تكون في طور الاحتضار

ف

ابتلع «درويش» ذيل عبارته، مع ما تبقى في فمه من لحم اللوت، حتى الشوكة التي لاكها بلسانه وأحس بها قبل انزلاقها في حلقه، ابتلعها مع كل شيء آخر.

أنهى «درويش» المكالمة، وعاد إلى تناول طعامه دون أن يقدم للرجلين توضيحًا كانا في حاجة إليه.

- ماذا حدث يا «درويش»؟

- لا تشغل بالك يا سيادة اللواء.

- تبدو منزعجًا.

- لا شيء مهم يا «هود». فلنعد إلى احتفالنا.

لكن ثلاثتهم أدركوا أن الأجواء الاحتفالية تسممت بالفعل، وما عاد يستطيع أي منهم العودة إلى الوراء خطوة.

اصطدم أحد الأطفال بطاولتهم في أثناء اللعب، فنهر ه «درويش» بعنف استجلب ضيق والد الطفل، وكاد الاثنان ينغمسان في مشاجرة، لولا كلمات اللواء الحازمة.

- ماذا يحدث لك؟

مسح «درويش» يديه وفمه بمنديل ورقي، ثم قذفه فوق الطاولة بعنف.

- ظهرت نتيجة تحليل المعمل الجنائي.

قال ذلك ثم نقل ببصره بين الوجهين المشدوهين أمامه، زفر بقوة وأفصح بغضب مكتوم:

- الشعرة اللعينة لا تتطابق مع الحمض النووي لـ «راضي»!

كيف لا تتطابق؟ هذا ما طفق يتساءل الجميع بشأنه، كُلٌّ في رأسه.

- لكن الشعرتين للقاتل نفسه، و«راضي» هو القاتل، كيف لا تتطابق معه؟

- أعادوا التحليل ثلاث مرات، والنتيجة واحدة، لا تتطابق معه أي من الشعرتين.

ثم أردف بقوة وهو يطرق بسبابته فوق الطاولة:

- لن ينجيه هذا، نستطيع إحكام القضية ضده، حتى لو لم تتطابق الشعرة معه، فهذا لا يعني سوى أنه رجل خبيث منذ نشأته، زرع شعرة مجهولة عندما قتل أمك في الماضي، وزرعها مرة أخرى اليوم بعدما بدأ سلسلة جرائمه الحالية. قد تكون الشعرة لصديق يعرفه، أو حتى لمتشرد أو متسول. الشعرة لا تهم، لدينا أدلة قوية أخرى تدينه.

- من دون الشعرة، ستراها النيابة مجرد أدلة ظرفية.

- «راضي» ضليع في عالم الحاسوب من خلال عمله السابق فني تقني، بالإضافة إلى كونه مجال دراسته، كما أننا أثبتنا وجود تطبيق «شمس» على هاتفه، ورأينا نافذة محادثة حتى وإن اختفى فحوى ما تبادلاه من أحاديث فمجرد تحميل التطبيق يكفي لإثبات أنه صديق «شمس» الغامض الذي كانت تتحدث معه، عمله في المدرسة، وسهولة معرفته بالأطفال وما يمرون به في بيوتهم، وسهولة سرقته لحذاء أقدام الماعز، كل تلك أدلة تدينه.

رغم كل ما ذكر، خيم الوجوم فوق الرؤوس كطير جارح، يخشى أحدهم أن يأتي بحركة تزعجه. التفت اللواء إلى السيد هود يسأله باهتمام بالغ:

- «هود»، هل أنت واثق أنك نزعت تلك الشعرة من رأس قاتل أمك؟

- توقف عن ذلك يا أبي، «هود» لا يتذكر ما حدث عندما كان في السابعة من عمره، حتى إنه ظن فترة حبسه أنه نزع تلك الشعرة من رأسه هو. ذكريات «هود» عن الحادث مشوشة لا يمكن الوثوق بها.

صحيح ما يقول «درويش»، ذكرياته مشوهة، مزيج عجيب من الحقيقة والزيف، الواقع والخيال، ما يريده، وما يجب أن يحدث.

وفجأة، اتسعت أعين الدرويشين بحدة، يطالعهما السيد هود بدهشة، ما الذي يفزعهما هكذا؟ ما إن استدار حتى فهم سبب تلك النظرة المتشائمة.

من خلفه، أقبل الأطفال يحملون بالونات كبيرة يلهون بها، ومن حولهم العاملون يعلقون أخرى كثيرة متجاورة في كل أرجاء الباخرة.

كان ليثير ذلك في نفسه أجواء احتفالية مبهجة، لولا أن البالونات، جميعها، كانت بلون أصفر!

***

كيف لقلب أن يغزوه هذا القدر من الخوف، ويظل نابضًا؟ مشوّش الوعي، مترنح الشعور، تحاصره من كل اتجاه جيوش اللون الأصفر الطاغي.

تمدد كل ما هو أصفر، وانتشر كمرض جلدي على سطح الباخرة.

أصوات اقتحمت سمعه، ضحكات، صرخات، خطى مهرولة، طنين حاد. ثم ارتطام خفيف، وتماس ناعم بجبينه.

بالونة صفراء!

تطايرت من يد طفل، والتصقت بوجهه.

خيّل إلى عقله المذعور أنها مخلوق مطاطي شرير، له مخالب وأنياب، يغرزها في لحمه، ويمتص منه شيئًا خفيًا، مثل «حقه في النجاة».

- «هود»، أتسمعني؟

صوت مألوف، لكنه باهت، كأن المنادي يصرخ من قاع بئر، أو من خلف زجاج مضبب.

كل شيء حوله ضبابي تمامًا.

يدٌ شدت على عضده المرتجف، وصوت ردد:

- ابقَ معي، هل يوجد طبيب هنا، مُسعف، أي أحد؟

ميز نبرة «درويش الصغير»، و«درويش الكبير»، و«درويش» الآخر الذي لم يُخلق بعد.

كلهم يصرخون في آن واحد.

امتزجت أصوات جميع من على المركب، فبدت الكلمات المعجونة ببعضها تعويذة تُلقى عليه، حاولوا بها إخراجه من دائرة سحرية جهنمية.

تسارعت نبضات قلبه إلى حد جنوني، وكذا أنفاسه، سمع للون الأصفر ضحكة خبيثة ماجنة، اخترقت رأسه، عششت فيه، وبثت موجات خوف بدائي، نفاذ الرائحة.

لم تحتمل قدماه ثقل الخوف المعلق في مشانق أوردته، فهوت به أرضًا.

- دعني أنظف الدماء عن وجهك.

وخز حاد في جبينه بعد اصطدامه في أثناء سقطته، وقطرات لزجة، دافئة، سالت وخضبت قميصه الأبيض، كما فعل الدم قبل عقدين من الزمن، ليلة قتل أمه.

يد «درويش» مسحت الدماء الجديدة عن وجهه الغارق في دمه القديم.

انسلت ذكريات حادث الأمس من ثقب جرح اليوم.

يوم دفعته يد القاتل الغاشمة، كان يجهل صاحبها.

لكن الآن، يتذكر!

ذكرى مشوشة بدأت تنجلي، رويدًا رويدا.

تلك اليد التي دفعته بقوة، كانت مشعرة، يحاول التشبث به، يتمسك بعنقه، ينزع بيده الصغيرة شعرة عن رأس القاتل.

بينما كان يقاتل لأجل أمه، كانت هي على الأرض جثة هامدة.

طوق القاتل خصرها بحزام بغيض أصفر، انطبع لونه في ذاكرته مثل وشم مرعب.

دفعه القاتل بيده المشعرة القاسية، فاصطدم بالمقعد، وانفتح جرح دامٍ في جبينه.

دفعت ضرباته المتسارعة بالدم الحار إلى ممرات مهجورة بعقله، مكدسة بذكريات خطيرة، صورة مطبوعة على سطح الوعي، لوجه القاتل الذي لمحه في المرآة، بعدما أزاح عن وجهه القناع.

كان القاتل يرتدي وجه «أمنا الغولة» كما تصفها حواديت الأمهات، امرأة قبيحة، بأنف أفطس، وشعر أشعث.

المرآة، نعم، كانت هناك مرآة على الجدار، شاهد صامت يعكس المشهد كله، استرجع وجه المرأة، كأنه مسرح ظل، وفي الظلال، ثمة وجه.

مألوف!

غير قابل للإنكار.

ظهر في عقله الآن وجه القاتل، بكامل ملامحه، وتعابيره، وشره المكشوف.

خرجت من صدر هود شهقة خافتة، لا ذعرًا، بل انكشافًا.

شهقة رجل أدرك أنه عاش داخل خدعة مُحكمة.

تقول «نظرية المبادلة»: إذا تلامس شيئان فإن أحدهما يترك أثرًا على الآخر.

وهذا ما حدث.

التحم مع القاتل في تلك الليلة مدافعًا عن أمه.

انتزع منه شعرة.

وانتزع القاتل منه ذكرى.

واليوم، استعادها من جديد.

الآن تذكر وجه قاتل أمه.

الآن عرف من يكون!

***

(46)

الحل في مرمى البصر

عندما فتح عينيه وتطلع بنظرات ناعسة إلى السقف الأبيض، ظن أنه ما يزال فوق سطح الباخرة، وأن السماء الزرقاء التي شهدت فظائع البشر، ملت المشهد، وضربت بينها وبينهم سدًا.

- «هود»، حمدًا لله على سلامتك.

عرفها قبل أن يراها، جلست إلى جواره تنتظر بلهفة لحظة إفاقته.

- «ساري».

نطق باسمها فقط كي يستأنس به، أضحت هي الشيء الوحيد الذي يجعله يتحمل كل ما تلقيه الحياة على عاتقه.

- أفزعتني بشدة.

- لماذا لم ترحلي بعد؟

طأطأت برأسها تعترف:

- لم أستطع، عندما اتصلت بك لتوديعك، أجاب صديقك وأخبرني بما حدث.

انتبه لكونه مستلقيًا فوق فراش بالمستشفى، عندئذ تنبهت حواسه، وتذكر أنه تذكر!

انتفض جالسًا يقول بحماس بالغ:

- استعدتُ ما فقدته أخيرًا يا «ساري».

- تذكرت؟

هز رأسه إيجابًا والتمعت مقلتاه تأثرًا، طلب منها أن تستدعي الدرويشين بأقصى ما يملكانه من سرعة، فأخبرته أنهما بالخارج ينتظران إفاقته.

سمحت للرجلين بالدخول، وخرجت هي، تاركة لثلاثتهم ما يحتاجون إليه من خصوصية، رغم فضولها لكي تعرف.

- سيادة اللواء، «درويش».. أنا أتذكر... أعرف الآن... كل شيء. أعرف هوية المجرم الذي قتل أمي.

تطلع إلى شفتيه رجلان واللهفة ثالثهما، ينتظران بكل ما تحمله الحياة من فضول، الاسم الذي سينطق به.

وما إن نطقه حتى جمدتهما المفاجأة!

ظنا أنه يمزح، أو أن السقطة أثرت على إدراكه للأمور، وما إن لمح تلك النظرة المتشككة، حتى نزع الغطاء عن جسده، ووقف قبالتهما. السرعة التي تحرك بها أشعرته بدوار خفيف، امتنع عن الحركة لبرهة، إلى أن استعاد توازنه.

تمتم اللواء ذاهلًا:

- «هود»، لا أظنك تعي ما تقول.

وكذا فعل «درويش»:

- إذا كنت تظن أنك لست بخير فدعني أستدعي الطبيب.

- أنا في كامل وعيي وتركيزي. وأخبركما أنني تذكرت وجه قاتل أمي، أثق تمامًا بما أقول، هذا الحقير الخبيث سدد طعناته الثلاث إلى صدرها، وعندما قفزت فوق عنقه لما كان جاثيًا على ركبتيه بجوارها يطوق خصرها بالحزام الأصفر، خلعت قناعه الذي يشبه وجه «أمنا الغولة»، هكذا كان يخبر الأطفال عندما يرتديه أمامهم ويروي لنا حوادثه ومواويله الطويلة، رأيت وجهه في المرآة وأنا أنزع من رأسه شعرة، وأطبق عليها بكفي بقوة، قبل أن يدفعني عنه، فيصطدم رأسي بالطاولة، وأفقد الوعي، ومعه الذكرى.

تبادل الدرويشان نظرات تدرجت من الشك إلى الحيرة، وانتهت بصدمة تبدت بوضوح فوق لسان اللواء وهو يعيد سؤاله:

- أخبرني مرة أخرى، من قتل أمك؟

أخذ السيد هود نفسًا عميقًا، ثم انسلت الحروف من فمه محملة بثقة الدنيا:

- قاتل أمي هو «مبسوط القرداتي».

***

استحالت غرفة المستشفى إلى غرفة مباحثات عامة.

الاسم الذي نطق به السيد هود، كان الأبعد عن دائرة الاتهام، وخارج قائمة المشتبه بهم، إنه الاسم الذي بُذل كل الوقت والجهد لتبرئته، لا لإدانته!

والسؤال المعجز الذي كان يواجه تلك العقول الثلاثة اليقظة، هو كيف تجتمع حقيقتان متضادتان في سماء واحدة؟

كيف للشمس والقمر أن يتجاورا في أفق واحد؟

- يا بني أنا لا أكذّبك. لكن دعني أذكّرك. تقول إنك نزعت تلك الشعرة من رأس الرجل الذي قتل أمك، وفي الوقت نفسه تقول إنك متأكد من كون هذا الجاني هو «القرداتي»، دعني أذكرك أنني طلبت بنفسي إجراء تحليل للحمض النووي للشعرة ومقارنتها بالحمض النووي للرجل، والنتيجة: العينتان غير متطابقتان.

التقط اللواء أنفاسه، ثم أردف بقوة يُخيّره:

- إما أنك لم تنزع الشعرة من رأس الجاني كما تتوهم. وإما أن الوجه الذي رأيته في المرآة عندما قفزت فوق عنق المجرم ونزعت قناعه توهمت أنه وجه «القرداتي».

لكن المشكلة أن السيد هود كان واثقًا من الأمرين معًا، نزع الشعرة، ورأى وجه «مبسوط»، قبل أن يدفعه بعيدًا فيصطدم جبينه ويفقد وعيه.

- ربما التحليل كان خاطئًا، يجب إجراؤه مرة أخرى يا أبي.

وهذا ما كان يفكر فيه اللواء بالفعل، تحركوا في الحال كلٌ في جهة.

استُدعي «مبسوط» لأخذ عينة أخرى منه، هذه المرة أخذها الخبير باستخدام أداة مسح قطنية، دسها في فم «مبسوط» وغمسها جيدًا في لعابه، ثم كحتها بالجهة الداخلية من وجنته.

جرى التحفظ عليه لحين ظهور النتيجة، وكانت تلك فترة قاسية، مشحونة بالتوتر والفضول. ما إن ظهرت النتيجة حتى تسلمها «درويش» في مكتبه، وفض مغلفها أمام نظرات أبيه والسيد هود المترقبة قرأ النتيجة، ثم زفر بقوة قائلاً بانفعال صارخ:

- كما قلتُ بالضبط. «هود» يتوهم. «مبسوط» ليس صاحب الشعرة.

وما إن رأى امتقاع وجه صديقه حتى استطرد:

- هذا لا يهينك في شيء يا «هود»، صدقني، عقلك مستنزف، أنت بحاجة إلى الراحة، لدينا بالفعل قاتل في الحبس، وهو «راضي»، لا حاجة إلى عقلك للبحث عن متهم آخر.

- أنا لا أبحث عن متهم آخر يا «درويش»، بل عن المتهم الحقيقي، أقول لك، «القرداتي» هو قاتل أمي، وليس ابنه.

- أخبرني كيف بربك؟ إذا أردتنا أن نتهمه، إذن توقف عن ذكر الشعرة التي انتزعتها من رأسه، لأنها كما ترى، دليل براءة الرجل لا إدانته.

- تريد مني أن أكذب؟

- بل أريدك أن تكون منطقيًّا.

- فليذهب المنطق إلى الجحيم، «القرداتي» هو قاتل أمي، وهو قاتل كل أولئك النسوة، والشعرة نزعتها بيدي من رأسه.

- هذا جنون، لو استمررت في قول ذلك سيرفع الرجل عليك قضية تشهير.

- هذا إذا لم أقتله أولًا.

- تريد أن تتحول إلى مجرم.

- أريد العدالة، ولا شيء سوى العدالة، القاتل يُقتل.

في ذلك الحين، كان اللواء واقفًا يتطلع من النافذة، موليًا ظهره لهذا الشجار المتصاعدة حدته، عليه أن يعترف، رغم القبض على «راضي» وانتهاء هذا الفصل من القضية، كان لا يزال الشك يساوره، ثمة أسئلة لم يعثر لها على إجابة.

مثل: لماذا توقف «راضي» عن القتل، وترك عشرين عامًا مسافة زمنية بين جرائمه؟

عادة لا يتوقف القاتل المتسلسل إلا لسبب وجيه، كأن يكون قد قُبض عليه في جريمة أخرى، أو يخشى أن ينكشف، أو زالت دوافعه للقتل.

فما الذي دفعه لهذا التوقف الطويل جدًّا؟

ولماذا عاد فجأة؟

ما الذي أعاد فتح جرحه القديم عن جدته التي كانت تعذبه؟

ثم إنه قابل «راضي» وتحدث إليه خلال التحقيق، لم يجد فيه نباهة أو قدرًا كافيًا من الذكاء يؤهله ليقوم بتلك الجرائم بهذه الحرفية.

كذلك، لا يملك منظومة أخلاقية صارمة تمثل دافعًا متينًا لقتل النساء المسيئات للأطفال.

«راضي» أجبن من أن يكون قاتلًا!

التقط التحليل الملقى فوق المكتب، تمعن فيه، ثم صاح مباغتًا:

- القاتل صاحب الشعرتين يشترك مع «مبسوط» في الحمض النووي!

لم يكن قد اطلع على التقرير المطبوع للتحليل الأول، إذ كان قد طلب من «عمرو» سابقًا أن يُبلغ بالنتيجة النهائية هاتفيًّا، وبشكل غير رسمي.

أما الآن، ها هو يطالع تلك التفاصيل لأول مرة، التي كانت في الحقيقة، مذهلة.

مسح «درويش» الصغير وجهه ثم قال مؤكدًا:

- بالطبع يشتركان في جزء من الحمض النووي، لأن القاتل هو «راضي» ابنه، هذا دليل آخر ضد «راضي»، فكما درسنا في الثانوية الابن يحمل الشفرة الوراثية لكل من الأم والأب.

- لا يا بني، اقرأ التفاصيل جيدًا لا النتيجة النهائية فحسب، القاتل صاحب الشعرتين يشترك مع «مبسوط» في جزء من الحمض النووي من جهة الأم.

تساءل السيد هود بريبة عن معنى ذلك، فأوضح اللواء مؤكدًا:

- هذا يعني أن القاتل و«مبسوط» أخوان من الأم نفسها!

وكانت تلك الحقيقة صفعة مدوية.

وبخاصة عندما لم تجد دعمًا في الأوراق الرسمية، لم تُظهر بيانات السجل المدني أي أخوة لـ «مبسوط»، لم تنجب الأم سوى ابن واحد فحسب، هذا ما تؤكده الأوراق الرسمية، وشهادات الجيران، وتحريات المباحث المكثفة.

وبعد تحريات استمرت لثلاثة أيام، وقفت خلالها الداخلية على قدم وساق، جاءت الحقيقة المؤكدة:

يستحيل أن يكون لـ «مبسوط» أخ، فأمه خضعت لعملية إزالة الرحم بعد ولادته مباشرة، وكان «مبسوط» ابنها الأول والوحيد.

كيف إذن يشترك مع القاتل في جزء من معلوماته الوراثية؟

كيف؟

***

غرق السيد هود في أفكاره بدوره، رغم غلق القضية المزعوم، كان هناك ما أزعجه طوال الوقت، مسألة الشاهد الذي رأى القاتل يطير إلى أن بلغ سطح البناية، كيف تمكن «راضي» من الطيران؟

وكيف تخفف من وزنه ليبلغ فقط خمسة وثلاثين كيلوجرامًا؟

لماذا لم يتعرف «تميم» على «راضي» رغم أنه سائق أتوبيس المدرسة ويراه كل يوم تقريبًا؟

«تميم» هو الطفل الوحيد الذي رأى القاتل، وأكد أنه: «أمنا الغولة».

فما هو تصور «تميم» عن «أمنا الغولة»؟

هل هو تصور الكبار نفسه عنها كعجوز قبيحة لها أقدام الماعز؟

تكوّن في ذهن السيد هود تصور مثير، وخط جديد، انطلق في إثره متتبعًا.

***

انطلق اللواء إلى عشة «القرداتي» خلال فترة التحفظ عليه، متتبعًا خيطًا آخر.

الخنفساء!

هل كان وجودها في مسرح الجريمة الثانية مصادفة؟ هل سقطت من السقف، أم من القاتل، أم من شريك مجهول الهوية؟

شريك يستطيع التسلق أو الطيران، ولا يزن أكثر من خمسة وثلاثين كيلوجرامًا.

تفكر اللواء بذلك وهو يدخل العشة نتنة الرائحة، فزع إذ قفز القرد الأجرب فوق عنقه وجذبه بقوة من شعره، فدفعه بعيدًا وأوقعه.

كان القرد الهزيل قد خدش بأظفاره الطويلة وجهه، فمسح فوقه بمنديل كان في جيبه.

وعلى ضوء القمر، رأى القرد الذي لا يزيد وزنه على ثمانية كيلوجرام، يأكل أوراق شجر الليمون الجافة، فتذكر معلومة مهمة: الخنافس القشرية تحب شجر الليمون!

تنبت فوق غصون أشجار الحمضيات أزهار ذات رائحة قوية، تجذب العديد من الحشرات، بما في ذلك الخنافس.

الخنافس تتغذى على أوراق الأشجار أو الفواكه المتساقطة.

الخنافس تميل إلى الوجود في الأماكن التي تحتوي على تربة غنية بالمواد العضوية.

الخنافس تهاجم الأشجار إذا كانت التربة غنية بالبقايا النباتية المتحللة، مثل حديقة ليمون ميتة.

أشعل كشاف هاتفه ومضى على ضوئه داخل الحديقة المحتضرة، فتش بمقدمة حذائه بالقرب من جذور الأشجار الضامرة، والأوراق الجافة المتراكمة.

فعثر أخيرًا على خنفساء، بل مجموعة منها، انتبه لها عندما سلّط الضوء على مساحات واسعة.

دعس واحدة، ثم وضعها داخل منديله، ولفه جيدًا.

مضى بين الأشجار مفتشًا عن الشريك الغامض.

أين عاش القرد طوال فترة سجن صاحبه؟ من الذي اعتنى به؟

كذبت «عنايات»، أو لعلها تجهل أن ابنها وأباه كانا على تواصل منذ زمن.

***

أصحاب البيوت يزعجون «راضي» ويطردونه لحبه في تربية الحيوانات.

***

لم يقل: حيوانًا واحدًا، بل حيوانات!

توقفت قدماه عن السير لما توصل أخيرًا إلى الشريك الغامض، في اللحظة نفسها التي فهم فيها ما حدث.

حول شجرة ليمون متهالكة، رأى اثنين من القرود معلقين في سلسلة، تربطهما بساقها، وتسمح لهم بحرية الحركة للعثور على أوراق جافة وخنافس للأكل.

قرد واحد -هو أكثرهم هزالاً- يزن ثمانية، وثلاثة معًا يتجاوز وزنهم ثلاثين كيلوجرامًا!

كان السيد هود محقًا.

«القرداتي» هو القاتل.

وشركاؤه هم «سُكّر» و«توتو» و«شرارة»، قروده الثلاثة المدربة!

***

خلف خيط آخر، كان «درويش» يركض بكل ما يملكه من يقظة ذهنية.

ملأ سطح مكتبه بالصور، وأعاد تشغيل كل فيديو صُوّر لساحات الجرائم الأربع، عندها تذكر أن ثمة فيديو لم يشاهِد، أو للدقة، شاهده على عجالة، ولم يقربه مرة أخرى.

فوق سطح مكتب حاسوبه، حرك السهم باحثًا عن الفيديو المرصود، وفتحه متلهفًا.

أنبأه حدسه أنه سيعثر فيه على أثر ذي صلة.

البث المباشر الذي قام به «صالح مدكور» وزوجته، جيران «سنية»، البث الذي عمل كحجة غياب لهما عن مسرح الجريمة، وأخرجهما من دائرة الشبهات.

كان هذا الفيديو طوال الوقت يمثل شيئًا أكبر من دليل نفي لتهمة قتل «سنية»، إذ رصد تحرك «أمنا الغولة» في الخليفة، صوت وصورة.

انتبه «درويش» لذلك بعدما قرأ تعليق أحد المشاهدين على الفيديو: «ثمة عفريت يتحرك في الخلفية!».

مشيرًا إلى كائن يرتدي عباءة سوداء متطايرة، مفتوحة من الأمام، يتحرك بخفة في الجانب الأيمن من الكادر، ويتسلق إحدى البنايات إلى أن يختفي فوق السطح، في مقطع لا يتعدى خمس ثوانٍ.

أعاد المقطع، وكبر الصور الثابتة الملتقطة للشاشة، إلى أن اتضحت تفاصيلها.

هل هذا الذي يراه بارزًا من جانب العباءة ذيل قرد؟

لا.

ليس ذيلاً واحدًا.

بل ثلاثة أذيال تظهر في جهات متفرقة.

يتعلق كل منهم في ساق الآخر، ويتحركون بتناغم الجسد الواحد.

لا يمكنه الآن التأكد من كيفية وصول المخدر إلى مشروب كل ضحية -باستثناء «جواهر»- لكنه يستطيع أن يرى بعين الخيال القرود الثلاثة وهم يؤدون المهمة التي دُربوا عليها جيدًا.

أحدهم يتسلل عبر نافذة الحمام بعدما تترنح الضحية وتفقد إرادتها الحرة، في الوقت الذي يتابع فيه القاتل كل شيء من خلال كاميرا الهاتف المحمول وسماعاته، الممنوح له الأذونات والصلاحيات كافة لفتحهما عبر تطبيق «شمس» للحواديت.

عرف القاتل جيدًا متى يرسل القرد إلى الداخل، وذلك عندما تنهي الضحية مشروبها وتفاجأ بدوار وثقل في الحركة وتشوش في الإدراك.

حرص القاتل على تخويف الطفل من خلال التواصل معه عبر التطبيق، أمر «تميم» أن يلزم غرفته، وإلا... ستأتي «أمنا الغولة» لتأكله.

كرر التهديد مع الابنة الكبرى لـ «مايسة» وأمرها متى تغادر البيت ومتى تعود إليه، وربما صور لها ذلك كتحدٍ أو لعبة!

أخبر «لارا» أن «أمنا الغولة» قادمة لمعاقبة أمها السيئة، التي لطالما شكتها لأصدقائها في التطبيق.

ما إن تفقد الضحية توازنها حتى يتسلل القرد إلى الداخل، بينما يظل الاثنان الآخران معلقين فوق نافذة الحمام الصغيرة، في قدمي أحدهما حذاء له طبعات الماعز، كي تتأكد الحدوتة الشعبية، ويُضلل رجال التحقيق.

فتح القرد الباب للقاتل، فتسلل إلى الداخل، سحب الدماء من عنق الضحية، ونثر دماء امرأة أخرى حولها، طبع فوق جبينها رمز الاستجابة السريع مستخدمًا قالبًا معدنيًا.

كل الأقدام محاطة بحافظات قدم بلاستيكية تخفي آثارها، كالتي يستخدمها فريق البحث الجنائي.

ثم تأتي مهمة القرد الثاني، فيُسدد طعنات بيُسراه مستخدمًا الخنجر الخشبي إلى صدر الضحية، يتابعه القاتل كي يتأكد من تسديد العدد الصحيح في المكان الصحيح.

فالقرود تثور وتهتاج لمرأى الدماء.

لا ينسى القاتل أن يأخذ الكوب الذي استخدمته الضحية، الذي يحوي آثار المخدر، ويضع كل ذلك في حقيبة معلقة على كتف أحد قروده، ثم يغادر من الباب الذي يتركه مفتوحًا ليوهم رجال التحقيق أن القاتل دخل عبره.

إلا أنه في الجريمة الثالثة حدث خطأ دون علمه، أوصد قرده المشاغب الباب من الداخل بعد انصراف صاحبه، وأوقع بالخطأ الخنفساء العالقة بجسده في ساحة الجريمة الثانية.

تغادر القرود عبر نافذة الحمام الصغيرة التي دخلوا عبرها، يتلحف ثلاثتهم بعباءة سوداء واسعة معقودة فوق رأس أعلاهم، يتسلقون الجدران، فيبدون للرائي كما لو كانت «أمنا الغولة» تجيد الطيران.

بينما القاتل يجوب الشوارع منهيًا حياة النساء الأربع، مع عربة خشبية لجمع القمامة، لا تثير شبهات المارين، وحتى إن فعل، لن يجدوا في العربة سوى القذارة.

يعرف «درويش» حادثة «القرد النشال» التي وقعت عام 1949م، حيث درب «قرداتي» يسكن منطقة «عزبة القرود» بالقاهرة قرده على سرقة محافظ جمهوره من المتفرجين، وأخرى مماثلة وقعت في سيرك متنقل بالصين، دُرب خلالها قرد صغير على سرقة المنازل.

وكذلك حادثة «القرد الشاهد» التي وقعت نهاية أربعينيات القرن الماضي، التي تعرف فيها القرد على صاحبه في محكمة الجيزة، وأثبت للقاضي كون الرجل يعمل «قرداتيًا» لا متسولًا، فأخذ حكمًا بالبراءة.

وها هو يعاصر بنفسه واقعة «القرد القاتل»!

ولا يعرف «درويش» سوى شخص واحد في رأس البر يملك المهارة الكافية لتدريب ثلاثة قرود لعينة.

***

تمكن اللواء من التوصل إلى سجل زوار «مبسوط» طوال فترة سجنه، فتأكد حدسه.

اعتاد «راضي» أن يزوره على فترات متباعدة، بدأت قبل خمسة عشر عامًا، وتزايد عددها في الفترات الأخيرة قبل تسريحه حسن سير وسلوك.

بمواجهة «راضي» بكل هذا، انهار باكيًا، مانعًا لسانه من أن يزل بكلمة تدين والده.

حثه اللواء معنفًا:

- والدك مجرم، سفاح، إن لم نلق القبض عليه، لن يتوقف عن القتل أبدًا، ذنب ضحاياه في رقبتك يا «راضي».

فلا يزيده هذا إلا بكاءً، وضعفًا. يضرب اللواء سطح الطاولة الكبيرة التي يجلسان متواجهين حولها، ويردف:

- أبوك استغل سذاجتك، عرف منك حكاية تطبيق الحواديت وما تملكه من صلاحيات واسعة منحتها لك «شمس»، فاكتملت القطعة الأخيرة من خطته التي ظل ينسجها لسنوات طويلة، كنت أنت من تواصل مع «شمس» في البداية، وبعد خروجه من السجن استخدم هاتفك وتواصل معها بنفسه مستغلًا إياها هي الأخرى، دفعك لسرقة الحذاء من المدرسة، جعلك تخترق حاسوب السيد هود وتنشئ موقعًا مشفرًا، ربما عندئذ لم تكن على علم بنواياه، ربما كنت تشك فحسب، لم تكن متأكدًا، لكنك عرفت بعد ذلك، ومع ذلك لم تمنعه، أبوك مجرم أراد توريطك في الجرائم التي ارتكبها بنفسه.

- قد يكون أسوأ أب في العالم، لكنه يحبني.

- إنه أب فاشل، لم يستطع حتى أن يكون رجلًا، لو أحبك حقًا لما ورطك.

- لا تعرف كم عانى بسبب جدتي، لا تعرف ما اضطر إلى اختباره على يديها، أنت ضابط شرطة لا تعرف سوى القانون وتطبيقه، لكنني أفهم منشأ كرهه لهذا النوع من النساء اللاتي لا يملكن من الأمومة سوى اسمها، أفهمه، وأعذره.

- أنت مخطئ يا بني، تفهم المخطئ وإدراك دوافعه، لا يعني أبدًا أن نتركه يتحرك على سجيته، لأنه يؤذي في طريقه أرواحًا بريئة لا ذنب لها.

- أبي لا يؤذي الأبرياء.

وضع أمامه صور الضحايا الخمس، ثم أشار إلى واحدة تلو الأخرى، يسرد خطأ كل منهن من وجهة نظر الجاني، ثم سأله

- لماذا لا تعذرهن كما تعذر والدك؟ هل أخطأن؟ نعم، لكن من منا لا يخطئ؟ نسعى جميعًا آباء وأمهات لنكون حاضنة صحية لأطفالنا، أحيانًا ننجح، وأحيانًا نفشل، لا يشفع لنا سوى كوننا نحاول.

- أبي ينقذ الأطفال.

- أبوك يدمر حيواتهم، هل تظن أن حياتهم في دور الأيتام وفي بيوت غير بيوتهم ستكون أفضل من عيشهم مع أمهات لهن زلات وأخطاء؟ هل تظن أن أحدًا سيمنحهم الحب الكافي للنمو العقلي والنفسي المنشود؟ هل تظن أن الحياة سهلة على من فقد أبويه معًا؟ أنت عشت من دون والدك، لكن كان لديك أمك التي تحبك وتحيطك بجناحيها حتى وإن كانا أضعف جناحين في العالم، تلك المزية يا «راضي» فقدها «هود»، لم يكن لديه سوى أمه، أمه المريضة التي كانت تحتاج إلى الإشفاق، لا إلى العقاب، لو أراد والدك حقًا إنقاذ الأطفال لمد يد المساعدة إلى الأمهات، أو على أقل تقدير لكان تقدم بشكوى إلى مكتب حماية الطفل.

- وهذا ما حدث مع «لارا»؟ فهل أُنقذت، لا، بل عُوقبت معلمتها.

- ما لا تعرفه أن الأم وُضعت تحت الملاحظة، وأي بلاغ آخر في حقها كان سيجرها إلى ما لا تُحمد عقباه، لو حل كل منا مشكلاته بالقتل، لمات العدل.

- تلك رؤيتك، ولكل منا زاوية نظر.

- لا توجد أي زاوية تبرر ما فعله أبوك، أعلم أنك تحبه، وتفتقده، ولا تريد أن تُحرم منه مرة أخرى، لكن عليك ألا تغض طرفك عامدًا، لقد استغلك، عرف منك الكثير عن الأطفال وأحوالهم، وساعدته في الأمور التقنية، سبق وأن عملت في شركة للتكنولوجيا ذُكر هذا في ملفك، كنت ماهرًا فيما تعمل، إلى أن طردك صاحب العمل بسبب القرود التي تحضرها معك، أثق أنك لم تكن تعلم في البداية ما يخطط له أبوك، لكنك بالتأكيد اكتشفت ذلك حين سقطت الضحايا واحدة تلو الأخرى، الآن بعد كل هذا، ألا ترى أنه استغلك، وأنه ورطك في انتقامه الأهوج؟

- لا يوجد ما يدينني، أخبرني المحامي أن الشعرة لا تتطابق معي، وهذا كافٍ لنسف القضية، كل ما تملكونه هو أدلة ظرفية، لن تقبل بها المحكمة، أبي لم يؤذني قط.

- تعقّل يا «راضِي»، وحكّم ضميرك، بعض الخطايا لا كفّارة لها.

- ليس لدي ما أقوله.

وأمام هذا الفم المطبق، لم يستطع أن يفعل شيئًا.

***

لم تسفر مواجهة «القرداتي» إلا عن تأكيد إدانته.

لم يقل هذا بلسانه الذي أخذ يدندن ببراءته، وبظلم القانون ورعونة من يمثلونه، وتهديده بطلب تعويض كبير عن كل ما حدث، إلا أن تلك العينين الدقيقتين الخبيثتين فضحتاه كالشمس وسط الظهيرة.

يلهج لسانه: أنا مسكين مظلوم.

بينما عيناه تقهقهه: أنا الرجل الذكي الذي مرغ أنوفكم في التراب.

قرأ اللواء ذلك في عينيه، وفهمه جيدًا، ولأول مرة منذ زمن طويل اشتعل صدره غضبًا.

قضى سنوات عمره بين براثن الشك يتساءل: هل ظلمتُ بريئًا وورطته في جريمة ليس له فيها لا ناقة ولا بعير؟

وتثاقل الذنب الذي احترق به طوال الفترة الماضية، عندما تأكد أن الدليل الذي تقاعس عن ضمه للأحراز، يبرئ «القرداتي» من الجريمة التي عوقب عليها.

لكن كل هذا كان عبثًا!

خدعة محكمة من مجرم خبيث.

الرجل متورط من رأسه إلى أخمص قدميه، في الجريمة السابقة، وفي الجرائم الحالية.

لكن، كيف تمكن من خداع المختبر الجنائي؟

لا يمكن خداع المختبر، والعينة في المرتين أُخذتا أمام عينيه، لا بُد أن السيد هود هو الذي أخطأ في تقديره، تشوشت ذكرياته كما يقول «درويش».

واجه السيد هود بذلك، فانفعل هذا الأخير:

- أنا لا أقوم بتأليف القصص.

- لم نقل إنك تؤلف، رأسك يخترع التفاصيل ليسد الفجوات الناقصة من حكايتك.

- أنا أثق فيما أتذكر، نزعت الشعرة من رأسه، حتى إنه أنَّ متوجعًا.

- لا يمكن لهذا أن يحدث، إذا أصررت على هذه القصة، لن نستطيع توجيه التهمة إلى «مبسوط»، لأن الشعرة تبرئه.

شعرة لعينة!

رغم اعترافه أمام الجهات العليا بما فعل، لا تزال لعنتها تطارده.

اقترب السيد هود من الجدار، وظل يطرق به برأسه بقوة آلمته، لو كان في بال رائق ليستشعر الألم. لم يشعر بشيء رغم قوة الضربات، كان مهتاجًا بشدة، فقد ما تبقى من حصافته.

أوقفه «درويش»، وأداره، ثم واجهه:

- لا تؤذ نفسك، سندينه، لن يفلت منا يا «هود».

- كيف؟ لا نستطيع إثبات أنه القاتل، لا نستطيع الحصول على دليل، القرود والخنفيساء وفيديو البث كلها أدلة لا تكفي وحدها.

أخرج «درويش» صورة من أحد الأدراج وقربها من السيد هود قائلاً:

- هل تتذكر هذه الصورة؟ التقطتها بنفسك ليلة العثور على جثة «سنية»، تسلقت ماسورة الصرف إلى أن وصلت إلى شباك الحمام، ثم التقطت الصور دون علمي، هل تتذكرها؟

- ما بها الصورة؟

- انظر إلى هذه إنها مكبرة، هل ترى تلك الحصاة الصغيرة الملتصقة في إطار النافذة الصغيرة؟ عندما انتبهت لها توجهت إلى مسرح الجريمة، ومن حسن الحظ وجدتها لا تزال هناك.

- عينة مجهولة أخرى؟

- بل عينة من براز قرد، بفحصها عثرنا على خلايا مبعثرة من بطانة القناة الهضمية، التي تحمل الحمض النووي الخاص بالمضيف، وبمقارنتها تأكدنا أنها تخص أحد القرود الثلاثة. قرود «مبسوط» هم دليل إدانته.

- وكيف ستثبت أن «مبسوط» هو الذي استغلهم في تنفيذ جرائمه وليس «راضي» أو شخصًا آخر؟ ما دامت الشعرة التي عثرنا عليها لا تتطابق

معه فسيتمكن أي محامٍ مبتدئ من تبرئته. ما الحل في رأيك؟ هل نطلب من القرود أن تعترف علًى صاحبها؟ إذن خطتك هي أن ننتظر إلى أن تتعلم القرود الكلام، خطة عظيمة يا «درويش».

- على الأقل أنا أفكر، ماذا تفعل أنت غير النواح؟

أخذ عقل السيد هود يعمل كمفرخة أفكار لا تنضب.

يشعر أن الحل قريب منه، كقرب الدم من وريده، الحل هنا داخل الحدوتة، عليه فقط أن يجمع المشاهد بترتيبها الصحيح.

الحل هنا، أمام عينيه.

فكيف لا يراه؟

***

- أي شيء استأصلتم من جسدها، هل هو ورم؟

- بل جنين.

***

إذا نسيت، فعمك «مبسوط» لم ينس يا فتى، لم ينس.

***

وفي بعض الحالات النادرة التي تكون الأم حاملاً في توأم، تُمتص أنسجة الجنين المعتل من قِبل الجنين الأكثر صحة، إلى أن يختفي تمامًا.

***

لا تتذكر يا بني، النسيان لمثلك رحمة.

***

أزلنا بقايا توأمها بعملية جراحية دقيقة، إنها بخير الآن.

***

تقول «نظرية المبادلة»: إذا تلامس شيئان فإن أحدهما يترك أثرًا على الآخر.

***

كنا نحمل «جيكل» و«هايد» في جسد واحد.

***

عرف الحل أخيرًا، الحل الذي كان أمام عينيه طوال الوقت!

(47)

عدالة بعكاز خشبي

الأطفال هم الثغرة التي نفذ عبرها الشر إلى البيوت الآمنة.

لم تُفدهم ابنة «مايسة» الكُبرى بشيء خلال الاستجواب، إذ أصيبت بانهيار عصبي منذ مقتل أمها، وعندما وضع السيد هود أمام «تميم» و«لارا» عدة صور مختلفة لشخصية «أُمنا الغولة» كما تصفها الحكاية الشعبية، وطلب منهما الإشارة إليها.

أشارا معًا نحو ثلاثة قرود يتعلقون في سباق بعضهم بعضًا، يرتدي آخرهم أقدام ماعز، وتغطيهم عباءة سوداء واسعة مفتوحة من الأمام!

طوال هذا الوقت كان تصورهما عن «أُمنا الغولة» مختلفًا عن خيالات الكبار التي رسمتها الحدوتة القديمة المحفوظة.

تسلم الطفلان -ومعهما ابنة «مايسة»- المخدر قبل ليلة من الجريمة من يد القرد عبر نافذة الحمام، ليضعوها في المشروب في موعد محدد سيرسله لهم التطبيق.

ظنوا أنها مجرد لعبة، بضعة أوامر يرسلها التطبيق وعليهم تنفيذها للفوز بجائزة مثيرة.

أوهمهم القاتل أن هذا السائل السحري الذي خرج من بطون الحواديت، صنعته «أُمنا الغولة» في معملها السري بباطن الأرض، قادر على جعل الأمهات أكثر هدوءًا وبشاشة، فيتوقفن عن التربية بالضرب والسب والعصبية والأذية.

السائل السحري سيجعل قلب الأمهات أكبر، ويغمره بالتفهم والتقبُّل والدعم والحب غير المشروط.

***

اقتحم اللواء «لطفي درويش» غرفة التحقيقات التي طُلب من «القرداتي» المكوث فيها.

- حقيقي أهنئك، لقد أجدتَ لعب دور الضحية، والآن انتهت المسرحية.

نطقت عينا اللواء بالتحدي والشماتة، وصرخت نظراته بانتصار ساحق على عدوه اللدود، أخيرًا.

زعزع هذا ابتسامة «القرداتي» الهزيلة، التي لم تدم طويلاً، تكسرت فوق شفتيه اليابستين متباطئة.

تقدم منه بخطى ثابتة، ثم انتزع من رأسه شعرة واحدة!

تمتم بقوة مباغتًا:

- الآن سنحصل على تطابق مثالي، أليس كذلك يا «مبسوط»؟

تراكم الفزع فوق قسمات «القرداتي»، وقد أدرك أن سره قد انكشف.

ما عاد له من مهرب!

***

تلاحقت أنفاس السيد هود اللاهثة وهو يشرح ما توصل إليه أخيرًا، ممسكًا بين يديه بكتاب طبي عن التحليل الجنائي في مختبرات الطب الشرعي:

- تُسمى هذه الحالة الطبية بـ (الكيميرا البشرية Human Chimera، حالة نادرة يكون فيها لدى الشخص مجموعتان مختلفتان من الأحماض النووية، سُميت بذلك نسبة إلى (كيميرا Chimera) كائن أسطوري في الميثولوجيا الإغريقية، له رأس أسد وجسد شاة وذيل أفعى. تحدث تلك الحالة الطبية عند اندماج جنينين في رحم واحد، توأمان غير متطابِقين نشآ عن تخصيب حيوانين منويين لبويضتين مختلفتين، وما يحدث خلافًا للمعتاد، هو أن كل جنين لا ينمو على حدة، بل يندمجان معًا في رحم الأم ليكونا جسدًا واحدًا.

وهذا الجنين الواحد يحمل مجموعتين مختلفتين من الحمض النووي، فيكون للكليتين أو الكبد أو الأعضاء التناسلية أو للشعر حمض نووي مختلف عن باقي خلايا الجسد.

تحدث اللواء وقد بدا على وجهه أثر ارتياح عظيم رغم الإرهاق وعلامات الأرق:

- بفحص سجلات «مبسوط» الطبية والتحدث إلى طبيبه الذي اعتنى بحالته خلال فترة وجوده في السجن، تبين أنه خضع لعمليه بتر في ذراعه اليسرى نتيجة مضاعفات لمرض السكري، وقص جزء من أمعائه، وبعد العملية أبدى جسده تحسسًا شديدًا وتهيجًا غير معتاد بعد نقل الدم إليه. احتار الأطباء في

ذلك، إلى أن أظهر التحليل أن دماءه تحمل شفرتين وراثيتين مختلفتين، ومن هنا خضع لعدة تحاليل تكفل بها طبيب متطوع جذبته تلك الحالة الطبية الفريدة، اكتشف «مبسوط» المعجزة التي يحملها في جسده، ومن هنا راود عقله الإجرامي فكرة «الجريمة الكاملة». أدرك أن لديه تذكرة تمكنه من ممارسة رغباته الشاذة من ترويع النساء وقتلهن، والاستهزاء بها من جهات إنفاذ القانون.

تقدم أحد الصحافيين يسأله:

- وكيف تمكن رجل جاهل مثله من استيعاب كل تلك التفاصيل في جرائمه، وبخاصة أن جزءًا منها يحتاج إلى إلمام جيد بالتكنولوجيا.

- لم يكن هذا صعبًا على رجل مثله، فمن بعد العملية التي خضع لها، وانتشار تلك المعلومة بين زملائه في السجن، تحولت نظرتهم إليه من «مبسوط القرداتي» الجاهل الذي يعيش على الهامش، إلى «مبسوط المبروك»، ظنوا أنه صاحب كرامات، وأصبحت رغباته مجابة من قبل أن يتفوه بها. خالط مختلف أنواع البشر، من جاهل، لمتعلم، لخبير في مجاله، لمحترف في الإجرام، يمدونه بكل ما يحتاج إليه من خبرات، «مبسوط» دخل السجن كرجل أُمِّي، حرمته أمه من استكمال دراسته التي توقفت عند الابتدائية ودفعته للعمل متسولاً ثم قرداتيًّا، لكن من بعد واقعة مرضه واكتشافه لما يملكه، قرر استكمال تعليمه وحصل من داخل السجن على الشهادة الثانوية، وهذا يوضح صبره وإصراره على تنفيذ خطته، لم يكن صعبًا على عقل مريض وقلب أسود مثله أن ينسج خلال سنوات حبسه خطته المُحكمة، يراجع تفاصيلها ألف مرة، ويسد ثغراتها أولاً بأول، ويسحب إليها ابنه خطوة بخطوة، مستغلًا ضعفه تجاهه، وجوعه إلى أبوّته.

- هل ابنه شريك له؟

- لم يكن يعلم شيئًا عما يضمره أبوه في صدره في بادئ الأمر، اقتصرت مهمته على مراعاة القرود والحفاظ عليها إلى اليوم الموعود، إذ كان من الصعب الحصول على غيرها، هذا فضلًا عن الوقت اللازم لتدريبها، احتاج إلى قروده الثلاثة الذين يألفونه لتنفيذ مخططه، ولم يكن ابنه في نظره سوى قرد رابع، عرف منه بشأن التطبيق، فاكتملت فصول خطته، وإجابة سؤالك، نعم، إنه شريك له بالتستر والمساعدة، فعل «راضي» أشياء كثيرة غبية لا لأنه رجل مجرم، بل لأنه رجل جائع لحب والده، والجوع إلى التقبّل يدفع المرء للقيام بأشياء جنونية، وربما الشيء الوحيد الذكي الذي فعله هو استجابته لنصيحة أمه، إذ قرر الشهادة لينال حكمًا مخففًا.

- كيف اختار «القرداتي» ضحاياه؟

- بعضهن كان يعرفهن قديمًا، خطط لقتلهن قبل سجنه، مثل «سنية»، وبعضهن سمع عنهن من ابنه الذي يعمل سائقًا لأتوبيس المدرسة، مثل «شيماء» و«مايسة»، أما «جواهر» فعرف عنها من «شمس» ابنة جارتها.

- إلى أي مدى كان السجن نقطة تحول في حياة «القرداتي»؟

- الجريمة إما مرض عضوي وإما عقلي وإما اجتماعي وإما أخلاقي، وهذا يتطلب علاجًا بشكل جدي وبرنامج تعديل سلوكي معرفي لإعادة المجرم إلى الحالة الطبيعية، التي تؤهله للعيش بسلام مع أفراد المجتمع، لكن هذا لا يحدث داخل بيئة السجن، لأنه -مع الأسف- مؤسسة عقابية لا إصلاحية، «القرداتي» دخل السجن مجرمًا ذا ميول منحرفة، وخرج منه وقد استفحلت نوازعه، في بيئة السجن تشكلت هويته الإجرامية، من خلال ما اكتسبه من معارف وعلاقات سهلت عليه التورط في السلوك الإجرامي مرة أخرى.

- هل تملك النيابة قضية محكمة ضده؟

- عثرنا على إبر سحب الدم مخفية في حديقة الليمون واستعنا في ذلك بكلاب بحث مدربة، وبالحفر خلف العشة تمكنا من العثور على جثة متحللة لعجوز تبين أنها أم «مبسوط»، ضحيته الأولى، أفاد تقرير الطب الشرعي بكونها ماتت إثر ضربة قاتلة على الرأس، وكان حول وسطها

حزام بلون أصفر، وبالعثور على الدافع وسلاح الجريمة اكتملت أركان الإدانة.

- ما منشأ الجريمة في رأي سيادتك؟

- تولد الجريمة نتيجة الزواج الإجباري بين رغبات الفرد الملحة، وضرورة العيش المشترك مع الآخرين، عندما يتعارض الطرفان، عندما تتقلص مساحة الحرية الفردية للحفاظ على حقوق المجتمع، تولد الجريمة كمخرج لتحقيق الرغبات غير المشروعة.

- هل هذا هو سبب انتشار الجريمة في يومنا هذا بشكل غير مسبوق؟

- كل جريمة تُرتكب هي خنجر مسموم في قلب العدالة، وكل ظلم هو صفعة فوق وجهها وتعدٍّ سافر على قيمتها الإنسانية، ربما لهذا السبب لم يعد الكثير من الناس يشعرون بالعدالة كقيمة مجتمعية، تسربت قيمتها من نفوسهم لكثرة الجرائم المشاهدة، ففقدوا «حاسة العدالة»، وتحولوا

بدورهم إلى مجرمين. حاسة العدالة كحاسة الشم والتذوق، تحتاج إلى المران المستمر لتميز بين نكهة وأخرى.

- وما مصير «القرداتي»؟

- كل مجرم عليه أن يتحمل نتائج اختياراته، لأن هذه الاختيارات تُكلف غيره أثمانًا باهظة، ومهمتنا هي التأكد من أن العدالة تسير في وجهتها الصحيحة، حتى وإن كانت تجر من خلفها قدمًا مصابة، أو تخفي عينيها بعصابة، عدالة عرجاء بعكاز خشبي أفضل من غيابها.

وبينما يغادر القسم بعد انتهاء القضية رسميًا، مستمتعًا بلمسات الهواء المنعشة فكّر: ربما يكون هذا أحد أسباب عدم الأخذ بتحليل الحمض النووي في إثبات الأبوة في المحاكم، ويُنسب الطفل مباشرة إلى الفراش، إذ ثمة ثغرات وطفرات وحالات استثنائية لا يمكن رصدها بالتحاليل التقليدية.

نفض عن رأسه تلك الأفكار الجدلية، وكل ما يتعلق بهذه القضية.

فما يهمه الآن، أنه تحرر من الهم الذي لازمه طويلًا.

وأصبح حرًا أخيرًا.

(48)

هدنة مؤقتة مع العالم

ما من رحلة إلا وتترك أثرًا في النفس لا يزول.

أدرك السيد هود ذلك عندما ترك «آدم» جميع بالونات الهليوم، التي يحملها بائع جائل بالقرب من سوق دمياط، وتخير واحدة بلون أصفر فاقع يسر الناظرين.

لحظتئذ، وجد نفسه بين خيارين، أن يُسعد الصغير باقتناء البالون الذي أحبه، أو الهرب كعادته.

لم يكن التغلب على أذيال الخوف سهلًا، تفصد جبينه بعرق بارد، ورصد رعدة أصابت أطرافه العلوية، تحامل كي يبتسم للصغير الضاحك، الذي منحه قبلة فوق وجنته وهو يقول فرحًا:

- شكرًا يا بابا «هود».

أحكم قبضته على كف «آدم»، لا تسعه أرض ولا سماء، خفق قلبه بقوة، فالحب قوة جبارة، قادرة على تبديد الوحشة، حتى تلك التي تجذرت في صدورنا.

شعر بالسعادة المطلقة، كأنه حاز الدنيا في قبضته.

خمشه الخوف قليلًا، لكن هذا لم يزعجه، الخوف عاطفة بدائية، ساعدت أسلافنا في البقاء على قيد الحياة، يخيفه ألا يملكها أكثر مما يخيفه امتلاكها.

ما إن لاح بيته من مبعدة، حتى اتسعت ابتسامته، إذ تذكر كيف وقفت «ساري» ذات يوم أمام طليقته، مستعيدة -من فم الأسد- شقته.

في الواقع، أشفق على طليقته عندما أجادت «ساري» لعب دور المرأة المختلة عقلياً، أخافتها كما لم يرهما يومًا خائفة.

- يكتسب المرء مهارات استثنائية من معاشرة المجانين.

وضحت له «ساري» ضاحكة.

رآها واقفة في الشرفة، بعد أن انتهت من إعداد كعكة الجزر لجلسة العصاري، لوحت لهما بكفها، وبالأخرى مسحت فوق بروز بطنها.

بروز خفيف لامرأة نحيلة في شهرها الرابع من الحمل.

ما زال يخيفه أن يضع طفلاً بريئًا بين يدي هذا العالم البائس إلا أنه قرر أن يمضي أيامه باذلاً جهده في محاولة التغلب على الخوف.

عاقدًا هُدنة مؤقتة مع العالم.

على الأقل، يستطيع أن يحاول.

خاتمة تُشبه البدايات

يجلس صغير البيت مشدوهًا أمام هاتف محمول، حيث تُعرض حلقة جديدة من كارتونه المفضل، بينما يتشاجر إخوته على لعبة، تحاول الأم من بين أشغالها فض الاشتباك المحتدم.

كالممسوس، تتعلق نظرات الصغير بالصور المتحركة فوق الشاشة، ويتنامى إلى سمعه صوت متكرر لموسيقى خافتة، لكن مؤرقة، تشده مثل النداهة التي تجذب ضحاياها بصوتها المعسول.

ينجذب نحوها كفراشة تسير بلهفة صوب اللهب، غافلة عن جناحها الذي يحترق.

ترمقه الأم اللاهية، بنظرة راضية، غير مدركة للجرف الذي فيه ينزلق.

أُغلق ملف القضية

قضية منتهية

يجد السيد هود نفسه في خضم جريمة جديدة غامضة، يُسدد فيها المجرم طعنة أخرى في جسد العدالة، ويتفلّت من قبضة القانون مثل زئبق يحترف المراوغة، انطلقت شرارة التحقيق بحماسٍ وذلك عندما...

«عذرًا، لقد نفد الورق، وعلينا شراء رزمة أخرى

لفتح ملف القضية التالية».

Notes

[←1]

يُطلق مسمى "عشة" على الشقق السكنية بمدينة رأس البر.

[←2]

سورة الرحمن: (19-20).

[←3]

وجهان من رواية «القضية الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد» للكاتب الاسكتلندي «روبرت لويس ستيفنسون»، يجسدان الصراع الداخلي بين الخير والشر.

[←4]

سورة النساء، الآية 40.

[←5] الزفح: صوت القرد.

[←6]

القتولة: امرأة كثيرة القتل.

[←7]

الجوثية Gothic: ثقافة نشأت في ثمانينيات القرن الماضي، كانت مرتبطة بالموسيقى القائمة مثل الروك القاتل والميتال الأسود. إلا أنها تطورت مؤخرًا وصارت نمط حياة يعتنقه بعض المراهقين.